

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190539

UNIVERSAL
LIBRARY

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ۱-۲۰/۸۹۲۵۷۳^ع Accession No. 17929

Author جرجی زیلان

Title (مهمین طولون (روایة تاریخچه از اندک) - اسر و اور

This book should be returned on or before the date last marked below.

احمد بن طولون

رواية تاريخية غرامية

وهي الحلقة الثالثة عشرة من روايات تاريخ الاسلام

تتضمن وصف مصر وبلاد النوبة في أواسط القرن الثالث للهجرة

على زمن احمد بن طولون ويتخلل ذلك وصف أحوالها

السياسية والاجتماعية والادبية . وعلاقة الاقباط

باهل الدولة وما كانوا يضمرونه في نفوسهم

أو يجول بخواطرم . وما بين النوبة

ومصر من العلائق السياسية ووصف

أحوال البجة وغير ذلك

تأليف

عمرجي زيدان

منشء الهلال

مطبعة الهلال

سنة ١٩٣١

مقدمة الطبعة الاولى

(سنة ١٩٠٩)

هذه هي الحلقة الثالثة عشرة من روايات تاريخ الاسلام وهي خاصة بوصف مصر في ولاية أحمد بن طولون (توفي سنة ٢٧١ هـ) وهو اول أمير استقل بإدارة حكومة مصر تحت رعاية الدولة العباسية وبني نفسه بلدا سماه القطائع بين المقطم والفسطاط لا يزال من آثاره الى اليوم جامع ابن طولون في الصليبة

وبذنا الجهد في تمثيل مصر في القرن الثالث للهجرة من حيث علائقها السياسية مع بغداد واحوالها الاجتماعية وعلاقة الاهلين بعضهم ببعض. ومثلنا ما بين الاقباط والمسلمين من الاختلاف وبيننا اسبابه وأسباب الخلاف بين أهل الدولة الاتراك والعرب وما كان يجول في خواطر كل من الفريقين بالنظر الى الآخر

وهذه هي الرواية الثانية من سلسلة روايات الاسلام المختصة بمصر . اما الاولى فهي رواية أرمأنوسة المصرية التي تمثل فتح مصر على يد عمرو بن العاص

ويسرنا ان اقبال القراء على مطالعة هذه السلسلة يزداد في كل يوم فقد أعيد طبع اكثر حلقاتها غير مرة ونقل معظمها الى اللغات الشرقية في الهند وفارس وتركستان كما فصلنا ذلك في مقدمة عروس فرغانة بالسنة الماضية

ونحن في كل حال لا ندخر وسعاً فيما نظنه مفيدا لقراء العربية . وقد ظهر لنا ان سبك التاريخ في قالب الرواية جليل الفائدة في تحييب التاريخ الى الناس وترغيبهم في المطالعة على الاجمال . وهذا ما نرمي اليه في تأليف هذه الروايات والله حسبنا ونعم الوكيل

الفصل الاول

دميانة

خرجت دميانة من منزل ابها في قرية طاء النمل بكورة سخا (مديرية الغربية) في اصيل يوم من أيام سنة ٢٦٤ للهجرة ومشت تسترق الخطى في البساتين تلمس كنيسة هناك بنيت لصلاة أهل تلك الناحية والقرى المجاورة. وكانت دميانة تذهب للصلاة فيها كل صباح ولاسيما في أيام الآحاد والاعياد لكنها أرادت الذهاب في ذلك الاصيل لتخلو بنفسها وتسر اليه امرأ خالج ضميرها واقلق راحتها وهي ترى في الاعتراف راحة أو مشورة أو مؤساة. ولو كانت والدتها حية لاستغنت عن مكاشفة القسيس بالشكوى اليها. وأما والدها مرقس فلم تكن ترتاح الى مطارحته ما في خاطرها لانه كان مخالفاً لها في الطباع والاطوار - كانت هي تقيه ورعة تصلي كل صباح وهو لا يعبأ بالدين ولا يدخل الكنيسة الا نادراً. وكانت تكره المسكرات وهو يتعاطاها مع ميل الى المجون والتهتك لا يهجمه الا التمتع بملاذ الجسد من الطعام والشراب والتأنق فيهما. توفيت امرأته وابنتها دميانة لا تزال طفلة ولم يكن له منها سواها فلم يتزوج ليس مراعاة لها واحتفاظا بكرامتها ولكنه رأى الزواج قيماً ومشغلة فعمد الى التسري واقتناء الجواري اقتناء بسراة المسلمين في ذلك العهد - عهد البذخ والترف والقصف. والمسلمون وجدوا في بعض قواعد الاسلام متسعاً للتسري واقتناء الجواري فاقتدى بهم بعض الاقباط من أهل الثروة ومرقس في جلتهم

وكان مرقس (ابو دميانة) من أصحاب القرى وأهل الثروة لا يشغله طلب الرزق عن شيء من ملاذ الحياة فيقضي نهاره بالاكل والشرب بين الاصدقاء والحلان الذين على شاكلته. وكان العقلاء ينتقدونه ويقبحون عمله لاسيما الذين عاشروه من الصبا وعرفوا حداثة عهده بالثروة لانه ربي

في صباه متوسط الحال لا يزيد دخله على الكفاف ثم إجماعه الثروة فجأة فصادفت منه قلباً شرهاً ونفساً ضعيفة فأتجهت قواه الى التمتع بالمشنبيات الحيوانية

أما دميانة فقد ربيت في حجر والدتها الى الثامنة من عمرها وأخذت عنها الفضائل والتقوى وتعودت الصراحة في القول وصدق اللهجة والاتكال على الله والمحافظة على الصلاة اليومية. وماتت أمها على غرة وهي غائبة ولو شهدت موتها لسمعت منها حديثاً يهمها ويكون له شأن في مستقبل حياتها . فاصبحت دميانة بعد وفاة والدتها وحيدة لا انيس لها في تلك القرية لان سكانها أكثرهم من الفلاحين الذين يشتغلون في أرض ابها وهم تابعون للأرض ينتقلون معها من مالك الى مالك أو من متقبل الى متقبل على نحو ما كانت عليه الحال يومئذ في أكثر البلاد . ففي المملكة الرومانية باوربا كانت الارضون تنتقل من بارون الى بارون وينتقل فلاحوها معها ويسمونهم سيرف (Serfs) وهو ما يعبرون عنه في العربية بالقرن (الجمع اقنان)

فلم تكن دميانة ترتاح الى معاشره بنات الفلاحين وان كانت لا ترى بدأ من مخاطبتهن والاتفات اليهن بالاحسان والبشاشة والملاطفة وهن يتقربن اليها بالهدايا والخدمة . غير أن ذلك لم يكن ليسبع نفسها الكبيرة ولم تكن تجد باباً للتعزية بالمكاشفة أو المطارحة على عادة بنات المدن بمن يتألفهن من الصواحب أو الجارات أو ذوات القرى . فكانت اذا طرأ عليها أمر يقتضي مكاشفة شغلت نفسها بالصلاة فيعزيها ذلك ولو الى حين

أما ذلك اليوم فاحست بانقباض صدرها وضافت ذراعاً عن كتان ما في نفسها وهي تحسبه مخالفاً لقواعد التقوى وشرط التدين فقضت معظم النهار في التفكير منفردة في غرفها حتى اذا مالت الشمس الى الاصيل لاح لها أن تبوح بسرها الى قسيس القرية الاب منقريوس وكانت تأنس به لطول عهده في خدمة تلك الكنيسة ولسكر سنه . وأهم من كل ذلك ان الاعتراف للقسيس قاعدة متبعة عندهم

نخرجت في ذلك الاصيل وحدها تمشي في البساتين كأنها تتمتع بمناظر الطبيعة وتظفر في الاغراس وصبيان الفلاحين وبناتهم يقفون احتراماً لها أو يفرون خجلاً منها وبعضهم في شاغل عنها بثور يسوقه الى مربوطه أو حمار يحمل عليه قضباناً أو فاكهة الى بيت مولاه . فمشت دميانة تظهر انها مهمة بتلك المناظر وهي بالحقيقة في شاغل عنها بما يتردد في فكرها من الامر الذي تم بكشفه للاب منقربوس . فلم تكن تسمع غناء العلمان وهم يحصدون الزرع ولا صياح الاديك ولا رفرقة الاطيار التي تلتقط الحب : ولما دنت من الساقية الكبرى على ضفة النيل لم تنتبه لانيها أو طقطقة اخشابها ولا خوار ثورها اذ يستحثه الغلام على الدوران

وكانت دميانة في نحو العشرين من عمرها ربة القامة سمراء اللون مع صفاء ونضارة كبيرة العينين سوداء الحدقتين مع ذكاء ووداعة صغيرة الانف صغيرة الفم ممثلة الشفتين لها ميسم ينم عن صدق طويتها ورقة احساسها . في اذنيها قرطان من ذهب يمتلان ابا الهول . وقد ضفرت شعرها الاسود ضفيرة واحدة ارسلتها الى ظهرها وغطت رأسها بنقاب من الحرير نسيج دمشق اهدته اليها امها في طفولتها وقد طرزت لها على حواشيه بعض الدعوات والآيات باللغة القبطية . وارتدت ثوباً من القباطي الرقيق واسع الاردان التفت فوقه بمطرف من الخبز مما كان يحمله تجار فارس الى الفسقاط واحتذت نعالا محوكة من الخوص وقدد الجلد معاً . وفي عنقها قلادة من الذهب في وسطها صليب محجر

الفصل الثاني

الكنيسة

وكانت المسافة بين المنزل والكنيسة نحو ميل قطعت معظمه على ضفة النيل وعيناها تنتقلان بين الماء واليبس على غير انتباه فمرت بها عدة قوارب تحمل تبنياً أو حبوباً أو غير ذلك من الغلال وهي لم تنتبه لها ولا لصراخ نوتيتها ولا لفقش الماء أو نقر الريح على اشروعها ولكنها انتبهت فجأة الى سفينة تختلف عما تعودت مشاهدته في ذلك النيل لكبرها واتقان بنائها وزخرفها وكبر شراعها وما فيها من الغرف والنوافذ كأنها بيت ساج فوق الماء يشبه ما يعرف اليوم بالذهبيات . فعلمت أن مثل هذه السفينة لا تخلو من بعض السراة وربما كان فيها بعض أصدقاء ابها فلا تريد أن يراها أحد منهم . وكانت قد أشرفت على الكنيسة فأسرعت اليها مهرولة تتوارى بين جذوع الشجر وأغصانها حتى دنت من باب الكنيسة فاستترت وراء نخلة بين يدي الباب قديمة العهد جذعها هائل الكبر . والتفت نحو النيل لتعيد نظرها الى تلك الذهبية لعلمها تعرف أصحابها . فتفرست في الراية المنصوبة في مقدمها فرأت عليها كتابة بالعربية وهي لا تقرأها — وأهل القرى كانوا الى ذلك العهد لا يعرفون العربية لقلّة اختلاطهم بالعرب لان المسلمين كانوا لا يزالون من زمن الفتح يقيمون في معزل عن أهل البلاد إما في القسطنطينية مقرر رجال الدولة ومن يلحق بهم من الحاشية والاعوان أو في أطراف البلاد بالمضارب والحيام . ولم ينزلوا القرى الا بعد قدوم المأمون الى مصر في أوائل القرن الثالث للهجرة اذ جاء لآخاد ثورة انتشبت هناك فاذا القبط وأمر المسلمين بنزول القرى فابتنوا فيها القصور وحولوا بعض الكنائس الى مساجد^(١) فلما رأّت دميانة تلك الراية علمت انها لبعض رجال الدولة أو بعض

الخاصة منهم أو الحياة من القبط قد خرجوا لجمع الخراج والحزبية . ولولا علمها بتقرب والدها من صاحب الخراج لخافت أن يكون عليه بأس من اصحاب تلك الذهبية . ولو كانت تقرأ العربية لقرأت على تلك الراية اسم احمد المادرائي متولي الخراج وهو صاحب النفوذ الاكبر عند ابن طولون صاحب مصر . وانتهت بغتة لما جاءت من أجله فتحولت نحو الكنيسة ودخلت بابها الغربي وكان لتلك الكنيسة في أول امرها بابان احدهما غربي والآخر شمالي . فلما نزل المسلمون في القرى بعد قدوم المأمون واحتاجوا الى أماكن للصلاة ابنتي بعضهم المساجد وحول آخرون بعض الكنائس الى مساجد . أما تلك القرية فنزل فيها رجل من الشيعة العلوية يقال له ابو الحسن البغدادي جاء من بغداد في جملة أصحاب المأمون وأحب المقام بمصر فاستأذنه في البقاء هناك فاذن له وظل مدة يقضي فروض الصلاة في منزله . وكان معتدلاً منصفاً فلم ير أن يسلب أهل تلك الناحية كنيستهم فاتفق مع صاحبة القرية وهي يومئذ مارية القبطية المشهورة ان يقطع من الكنيسة جانباً يتخذ مسجداً يصلي فيه كما فعل المسلمون بالجامع الاموي لما فتحوا دمشق . فاذنت له فقسم الكنيسة شطرين بحائط واصبح الباب الشمالي خاصاً بدخول المسلمين وليس منهم هناك الا ابو الحسن البغدادي وحاشيته وظل الباب الغربي مدخلاً للنصارى

دخلت دميانة من ذلك الباب ومشت في الدهليز باحترام وخشوع حتى اقيت على واجهة الهيكل وعليها الايقونات الملونة والاسرار المصورة فرسمت علامة الصايب وعرجت الى ايقونة مريم العذراء في جهة اليمين وهي تمثل العذراء تحمل طفلها في شكل جميل . وقد جلبت هذه الصورة من القسطنطينية . فيجئت دميانة امامها وأخذت تصلي بحرارة وخشوع . وتمثل لها الامر الذي جاءت من أجله فخفق قلبها تهيئاً من الخوض فيه فتجلدت واخذت تتضرع الى أم الاله ان تقويها وتسدها ولمست وجه الصورة باناملها ثم مسحت بها وجهها تبركا بكرامتها

وهي في ذلك سمعت متممة القسيس في الهيكل للصلاة التي اعتاد اقامتها هناك قبل الغروب كل يوم ويندر أن يحضرها احد. وتنسبت رائحة البخور ورأت ضوء الشموع فازدادت خشوعاً وتهبياً لانفرادها في ذلك المكان المقدس . ولم تر القسيس لان باب الهيكل كان مغطى بستارة من الديباج المزركش صنع دار الطراز في تينس . ولما فكرت فيما قدمت من اجله اكبرته وحدثتها نفسها أن تعدل عن مكاشفة القسيس بسرها وهمت بالرجوع واذا بالقسيس قد ازاح الستار ووقف بباب الهيكل ويده الصليب والانبيل وهو يتلو الصلاة فلم تمالك عن التقدم نحوه واحناء رأسها تحت الكتاب فقراً فصلا من الانجيل بالقبطية على جاري العادة فتشددت ورجعت الى عزها على الاعتراف

فلما فرغ القسيس من الصلاة مد يده اليها فقبلتها وأحس القسيس بارتعاش اناملها . وكان الاب منقريوس شيخاً طاعناً في السن عرف دميانة منذ طفولتها وهو الذي كلل أمها وعمدها هي وكان عطوفا عليها وهو طيب السريرة صادق التدين مع سذاجة وصفاء طوية وقد اطلع على أسرار اعترف له بها اصحابها زادته اشفاقا على دميانة ورعاية لها - وقسيس الشعب الذي يطلع على اسرار رعاياه اذا كان صادق التدين طيب السريرة كان وجوده بركة وسعادة لانه يستخدم تلك المعرفة للتوفيق بين بنيه وازالة ما يكدر صفوهم من سوء التفاهم . اما اذا كان طماعاً منافقاً فانه يكون شراً عظيماً عليهم لانه يستخدم تلك الاسرار لسلب الاموال والتمتع بالسيادة وغيرها من مطالب العالم

أما الاب منقريوس فكان شيخاً جليلاً قد ابيض شعره واسترسلت لحيته . لامطع له في شيء من حطام الدنيا وأما همه خدمة رعيته والتوفيق بينهم . فلما رأى دميانة على تلك الحال في ساعة لم يتعود أن يراها فيها بالكينسة ابتدرها بالكلام ليجرئها على بث شكواها فقال « كيف أنت يا ابنتي ؟ »

فهمت بالكلام فسبقها العبرات فاطرقت حياء ووجلا فقال « ما بالك

تبيكين؟ . . . ان من كان في مثل حالك من التقوى والاعتقاد بالسيد المسيح لا ينبغي له ان يحزن أو يخاف «

فتشددت وقالت « نعم يا سيدي صدقت وأنا قد جئت الآن لاعترف لك بأمر اتعني وأقلق ضميري فهل تسمعه؟ »

قال « كيف لا؟ . . تفضلي الى كرسي الاعتراف » قال ذلك ونحول الى كرسي بجانب الهيكل يقعد عليه لسماع أقوال المعترفين وأمرها ان تقعد على كرسي بين يديه . وبعد ان تلا بعض الصلوات أو الطقوس التي تتلى في مثل هذا الوقت قال لها « قصي خبرك يا دميانة ولا تخافي فانك تخاطبين نفسك ومهما يكن من خطارة سرك فانه يبقى مكتوماً لا يعلم به أحد كأنك تاجين الله في ضميرك «

فأطرقت دميانة خجلاً وقد بدا الاصفرار في وجهها وسكتت فقال « قولي يا ابنتي قولي «

الفصل الثالث

الاعتراف

فرفعت بصرها اليه وتناولت يده وقبلتها وبللت قفاها بدموعها فاجتذب يده منها وقال « قولي يا دميانة لا تخافي يا ابنتي . . . ولا أظنك تقولين شيئاً أجهله لانتا معاشر القسيسين لا يخفى علينا شيء من أسرار الرعية بما وهبنا السيد المسيح من سر الاعتراف وواجباتنا ان نستخدم تلك المعرفة في الاصلاح بين الناس وتخفيف متاعهم . وانت تعلمين اني بمنزلة ابيك وقد عرفتك وانت طفلة وعرفت والدتك من قبلك ولا تخفي علي خافية من أحوالك «

فلما سمعت قوله صاحت « تعرف ما في نفسي؟ صحيح تعرف؟ قل بحياة قدسك . قل ما تعلمه وخفف عني مشقة القول «

فتنحج القسيس ومسح فمه وحيته بمنديه وقال « لا يا ولدي لا يجوز ان أبدأ بالقول ولكنني قلت لك ذلك لاهون عليك التصريح » فقالت « أتعرف جارنا أبا الحسن البغدادي زيل هذه القرية » قال « كيف لا أعرفه ؟ أليس هو صاحب هذا القصر بجانب قصر أميك ؟ »

قالت « نعم هو . . انه بالحقيقة من أهل اللطف والانس وأراه يجب القبط ويلاطفهم ويحاسنهم خلافاً لسواه من أهل الدولة » فلم ير القسيس رابطة بين ما سمعه وما كان يتوقع ان يسمعه ولكنه ظنها تدرج في الحديث على سبيل الاسترسال فقال « أراك تحسبن اضطهاد أهل الاسلام للاقباط قاعدة من قواعد حكومتهم . . والواقع ان ذلك يختلف باختلاف الرجال فقد كان المسلمون في أوائل دولتهم بمصر أكثر الناس رعاية لنا ورفقاً بنا واحتراماً لعاداتنا وطقوسنا وقد تخلل ذلك اضطهادات كان الحق في بعضها علينا لطمع كبارنا بأموال الدولة والامساك عن دفع الخراج أو الجزية ومنها السنة التي جاء بها المأمون وقد عاقبنا أشد العقاب مما لا محل لتفصيله الآن . أما أبو الحسن فهو رجل عاقل ومعتدل . عرفت اعتداله على الخصوص من تساهله في معاشرتنا واقتناعه بجزء من هذه الكنيسة لصلاته وقد رأينا غيره يحولون الكنائس الى جوامع (١) » ثم سعل وبلع ريقه وقال « وهناك سبب آخر لتقربه منا لا أظنك تعرفينه . . وهو ان أبا الحسن هذا ينتمي الى طائفة من المسلمين يقال لها الشيعة العلوية يضطهدها رجال الدولة لانها تحالف مذهب الخليفة وأمراؤه كما كان حالنا قبل الاسلام اذ انقسمت الكنيسة الى ملكية ويعقوبية وكانت دولة الروم تنصر الملكية لانهم على مذهبها وتضطهد اليعاقبة حتى تمنى هؤلاء خروج هذه البلاد من حوزتها وقد حصل . . ألا تذكرين يوم جاءت أوامر المتوكل خليفة بغداد الى قبط مصر منذ بضع عشرة سنة . . أظنك لا تذكرين ذلك لانك كنت طفلة - انه بعث الى عامله بمصر يهدم الكنائس المحدثه بعد الاسلام ونهى

أن يستعان بهم في الاعمال أو ان يظهروا الصلبان في شعائنيهم وأمر ان يجعل على أبوابهم صور شياطين من الخشب وأن يلبسوا الطيالة العسلية ويشدوا الزنار ويركبوا السروج بالركب الخشب بكرتين في مؤخر السرج وأن يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب قدر كل واحدة اربع أصابع ولون كل واحدة غير لون الاخرى ومن خرجت من نسائهم تلبس ازاراً عسلياً ومنعهم عن لبس المناطق وغير ذلك (١) وما زالت هذه الاوامر جارية حتى تولى ابن طولون قابطها

« والشيعه قد اصابهم في ذلك الوقت من الاضطهاد نحو ما اصابنا فان ابن الخليفة الذي نحن بصدده كتب الى عامله بمصر ان لا يقبل علوي ضيعة ولا يركب فرساً ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من اطرافها وان يمنعوا من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد ومن كان بينه وبين أحد من العلويين خصومة من سائر الناس قبل قول خصمه فيه ولم يطالب بمدينة (٢)

« وطبيعي يا ابنتي ان الذين يقاسون الذل معاً يتآلفون ويتحابون ولو بعدت أصولهم وتباينت مذاهبهم »

وكان القسيس يتكلم ودميانة تظهر الاصغاء وفكرها يشتغل في تهيهة عبارة تبدأ بها شكواها أو تبث بها غرامها. فلما فرغ من كلامه قالت « وسعيد المهندس ضيف ابي الحسن أو ابنه أو مولاه هل تعرفه ؟ »

فنظر القسيس اليها خلسة فوجد سحتها تغيرت وامتع لونها وأبرقت عينها فادرك ان ظنه لم يكن مخطئاً فاراد أن يشجعها على التصريح فقال « وأنت . . . ألا تعرفينه يا دميانة ؟ »

فلما سمعت سؤاله نزلت عن الكرسي وجثت بين يديه وأخذت تبكي وتم بالكلام فيمنعها البكاء فصبر عليها حتى هدأ روعها فقال « اظنك تحيينه . انه شاب حميد الحصال بارع ماهر »

فتهدت دميانة وهي تمسح دموعها وقالت « نعم يا ابتي . . . اني أحبه . وهذا هو الامر الذي جئت لاعترف به واستغفر الله من أجله . . . احبيته

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ١٣١ ج ٤ (طبعة ثالثة) (٢) القريري ٣٣٩ ج ٢

رغم ارادتي يا سيدي وأنا لم اخاطبه بعد . وإنما كنت اشاهده داخل الى منزله أو خارجاً منه وربما حياني بكلمة أو اشارة لاتتجاوز الكلمة وجوابها ولكنني كنت اسمع بخصاله ومناقبه ومهارته بالهندسة . ولم يتفق لي أي اجتمعت به في مكان لان أبي لا يريد ان يرى أبو الحسن أحداً من اهله النساء ففجينا عنه كما يجب ذلك نساءه عن رجالنا وقد فعل حسناً فان في ذلك دفعاً للشر وكثيراً ما حاولت البعد وغض الطرف لعلني انسى فلم اقدر» قالت ذلك وعادت الى البكاء

فقال القسيس « تبكين لانك احببت سعيداً . . . وهل الحب محرم ؟ » قالت « اما ابني لاني احببت رجلاً لاسبيل لي اليه وان كنت لم احبه بارادتي . ولكنني احسبني اخطأت خطيئة عظيمة لاني احبته وهو مسلم » ففهم القسيس سر اضطرابها فأنهضها وأجلسها على الكرسي بجانبه وهو يتسم فلما رآته يتسم خف اضطرابها ولبثت تنتظر ما يقوله فقال « وما الذي جعلك تحسبينه مسلماً ؟ »

قالت « لان اسمه سعيد ولم أعرف أحداً سمي به غير المسلمين وقد سمعت أنه يلقب بالفرغاني وهذا أيضاً من ألقاب المسلمين وزد على ذلك اني لم أره في هذه الكنيسة ورأيتُه مقبياً مع ابني الحسن كاحد أولاده . . » قال « اما اسمه فابو الحسن سباه سعيداً وليس ما يمنع تسميته به . وكذلك اللقب فانه لقب به نسبة الى أحد اساتذته المسلمين الذين أخذ الهندسة والرياضيات عنهم في بغداد مدينة العلم لانه سافر اليها مع ابني الحسن وتلقى العلم فيها . وأما الصلاة في الكنيسة فانه لم يتخلف عنها إلا وهو غائب عن القرية في عمل او سفر ولعله كان يأتي متأخراً فلا ترينه »

قالت والدهشة بادية في محياها « ليس هو مسلماً ؟ »

قال « كلا يا ابنتي انه مسيحي مثلك »

فلما سمعت قوله وثبت من مجلسها رغم ارادتها وحملت بالقسيس

وقالت « مسيحي نصراني مثلنا ! »

قال « نعم مسيحي يا ابنتي »

قالت « هل أنت مؤكّد ذلك ؟ »

قال « لا ريب عندي في نصرانيتها وقد جلس على هذا الكرسي واعترف لي مراراً »

قالت « جلس على كرسي الاعتراف ؟ واعترف لك ؟ . . وأطلعك على مكنونات قلبه ؟ .. آه . . هل اعترف لك انه ؟ . . » وهمت أن تسأله اذا كان اعترف بحبه لها ثم تراجع خجلاً وعلمت ان سؤالها يخالف قانون الاعتراف فاطرقت وسكتت

فقال « يكفي انك عرفت انه مسيحي »

فتهدت وقالت « نعم يكفي » ثم رفعت رأسها نحو السماء وقالت « اشكر الله على ذلك » وغلب عليها الفرح حتى ضحكت والدمع يقطر من عينيها وهي تردد قولها « هو مسيحي .. سعيد مسيحي » ثم انتهت الى ان مسيحيته لا تكفي وحدها لاضمئان قلبها في الحصول عليه . فسكتت وجعلت تتشاغل بمسح عينيها واصلاح نقابها ثم قالت « وهل يعد حي له خطيئة يا أبانا ؟ »

فاجابها القسيس « ان الحب الطاهر يا دميانة ليس خطيئة بل هو من الفضائل التي يثاب الناس عليها ونظراً لما اعلمه من تقواك وتعقلك لا أخاف تورطك وخروجك عن الحدود التي وضعها الكنيسة »

فقالت « معاذ الله ان أفعل ما يخالف تعاليم الكنيسة ولكن هل تظن والذي .. » قالت ذلك ومنعها الحياء عن الكلام

فادرك انها تسأل اذا كان والدها يمانع في زواجها به فقال « ان والدك صعب المراس ولا أدري اذا كان يرضى به بعلا لك .. »

فقالت « اذا كنت قدسك في مكان والذي هل ترى سعيداً لائقاً بي؟ » قال « اني أراه أهلاً لك لانه من خيرة الشبان تعقلاً وذكاء ومهارة ولاسيما الآن فانه قد أحرز ثقة صاحب مصر احمد بن طولون نظراً لمهارته في فن الهندسة ففضله على مهندسي مصر كافة أظنك تعلمين سبب ذلك » قالت « كلا . . وما هو ؟ »

قال « لما أفضت حكومة مصر الى ابن طولون هذا وهو تركي الاصل وجنده أتراك وسكان الفسطاط (قصبة المسلمين بمصر) عرب لا يرضون الرضوخ له لانهم هم أصحاب الدولة ومنهم ظهر النبي صاحب الشريعة الاسلامية وكانوا في أول الاسلام يعدون الأتراك والفرس وغيرهم من الامم الاخرى أقل منهم مرتبة وكانوا يسمونهم الموالي . فلما تغلب العنصر التركي في بغداد على أيام المعتصم انحط شأن العرب وخرجت مقاليد الدولة من أيديهم وتولاها الأتراك أو الفرس أو غيرهم فاصبح العرب ينظرون الى هؤلاء بعين الغدر والحسد . وعلم ابن طولون ذلك فلم يعد يأمن القيام بينهم فعزم على أن يبني لنفسه بلداً خاصاً يجعله معقلاً له ولجنده فابتنى بين الفسطاط والمقطم قطائع أنزل فيها رجاله وبنى قصرأ له فاعوزه الماء لان القطائع بعيدة عن النيل ومرتفعة عنه لا يسهل الاستقاء بها فاراد أن يجري الماء اليها فلم يجد من يستطيع ذلك الا سعيداً فانه تعهد له بجريه وقد وضع له رسماً هندسياً لم يستطعه سواه وبأشر العمل وأظنه فرغ منه الآن وجري الماء الى القطائع في جهة تعرف بالمغافر وعماقليل يحتفل ابن طولون بمشاهدة هذا الماء يجري فاذا رأى العمل متقناً كافأ سعيداً مكافأة يحسده عليها كثيرون »

فسرت لاول وهلة سرور المحب بما يناله حبيبه من الرقي ثم انقبضت نفسها مخافة أن يحول ذلك الرقي دون مرادها وهي الى تلك الساعة لم تعلم رأيه فيها وان كان قلبها يدها على تبادل المحبة بينهما. فأصبحت كثيرة الشوق الى مقابلته لترى ما يبدو منه ولا تعرف وسيلة للاجتماع به لانه كان يقضي معظم أيامه في الفسطاط أو القطائع

وعلم القسيس انها قد فرغت من الاعتراف فوقف ووقفت فرفع يده على رأسها وباركها وصلى ودعا لها فقبلت يده والصليب الذي يحمله وخرجت وانصرف هو الى غرفة يقطنها بلصق الكنيسة ولم يعرض عليها من يوصلها الى بيت أبيها وقد أمسى المساء لعلمه انها لا تخرج الا وخدامها العم زكريا معها . ولم يدر انها أتت وحدها خلصة في ذلك اليوم

الفصل الرابع

سعيد

ولما خرجت من الكنيسة كانت الشمس قد غربت وأخذت الاظلال تتكاثف ولكن القمر كان في ربهه الاول . ظلت بضع دقائق تتردد بين ان تطلب من القسيس من يوصلها الى بيت أبيها أو تسير وحدها وكانت وهي تفكر في ذلك تخطو بغير انتباه حتى تجاوزت تلك النخلة وأطلت على البساتين . وأشرفت على النيل وقد اكد لون مائه من ظل السماء لكن سطحه زاد لمعاناً لتكسر ضوء القمر على وجهه المتجمد كأن الزمان أثر فيه فتكش مثل تكمش وجوه الشيوخ . فعولت دميانة على المسير وحدها وهي تستعيث بأمر الاله صاحبة تلك الكنيسة وحامية تلك الناحية ان لا يراها أحد حتى تدخل غرفها

وهي في ذلك سمعت وقع حوافر جواد تمودت ان تسمع مثله ماراً بجانب منزل أبيها وسمعت صهيل الفرس نحفق قلبها لعلمها انه فرس سعيد ولانها سنتقي به منفردة في ذلك الليل هناك وهي لم تتعود هذه الحرية ولا سبق لها مخاطبة سعيد بغير التحية بين يدي والدها وزد على ذلك انها خارجة من ذلك الاعتراف وقد تنبته شعائرها فوقعت في حيرة بين ان تتواري عن الطريق حتى لا يراها أو تقف له وتعتم تلك الفرصة لمعرفة ما في نفسه منها وكلا الامرين شاق عليها

وهي تتردد وتعمل فكرتها رأت الفارس أصبح أمامها وحالما وقع بصره عليها عرفها فترجل بأسرع من البرق وتقدم وهو ممسك لجام الفرس يساره ووقف بين يدي دميانة وقفة احترام وتخشع وعليه لباس السفر وعلى رأسه بدل القلنسوة أو العمامة الكوفية والعقال وقد النف بعباءة من الحرير فوق

القباء والسراويل . وكان أسمر اللون بيضي الوجه عسلي العينين مع وداعة
وذكاء قصير الحاجبين صغير الفم خفيف الشاربين واللحية تلوح الصحة في
حياه ويتدفق الذكاء والحدة من عينيه - واتفق وقوفه مواجهاً للقمر
فظهرت تلك الملامح ظهوراً واضحاً وزادها ضوء القمر هية

أما هي فكان الضوء واقعاً على جانب رأسها فاكسب وجهها من تكسر
الاشعة واختلاف كثافتها على تقاطيعه رونقاً . وكانت عينها قد ذبلتا من
البكاء بين يدي القسيس فزادتا ذبولاً عند رؤية سعيد لما جاش في خاطرها
من لواعج الحب وما يتنازعها من عوامل الدهشة والرجاء والخوف فوقفت
كالصنم لا تتحرك . لكنك لو جسست يديها أو سمعت حركة قلبها لظننتها
بطارية كهربائية عليها مرجل يغلي ماؤه ويتدفق بخاره لما يبدو لك من
أدلة ذلك في ارتعاش أناملها وخفوق قلبها واصطكاك ركبتيها

أما هو فتقدم نحوها بنحسوع ووقار وكلها -- وظالما تمنى ان تسنح له
مثل هذه الفرصة إذ لا حرج عليه اذا خاطب الفتاة يعرض عليها خدمة
لانفرادها هناك في ذلك العشاء فقال « هل تأذن سيدتي دميانة بمخاطبتها »
فلم تجب بلسانها وانما أجابت بعينيها ولم تحركهما فقال « أراك وحدك
هنا ولعل خادمك أبطأ عليك فهل تأمرين ان أكون في خدمتك الى المنزل
أو حتى يأتي الخادم فأتشرف بهذه الخدمة »

فأطرقت وهي تصلح طرف نقابها وقالت بصوت تخامره بحجة « أشكرك
يا سيدي وأخشى ان يكون في ذلك تعب عليك »

قال « كلا . . وإذا خفت التعب لان الطريق طويل فاركي هذا الفرس
وأنا أقوده وأرعاه ولا بأس عليك منه »

فقالت وقد استأنست بتلفقه واستدلت منه على انه يضم لها مثل
ضميرها له « لقد بالغت في التلطف يا سيدي بل يكفيني حظاً ان أمشي الى
جانبك فأكون في ظلك لا أخشى بأساً ولا أخاف تعباً » قالت ذلك وهي
تكاد تشرق بريقها من شدة الاضطراب وتشاغلت بالمسير وهي تتعثر بثوبها
وركبناها ترتعدان

الفصل الخامس

المشاكاة

فتبعها سعيد وهو يقود جواده وقد رأى المقام ذا سعة ليشكو لها ما يكره ضميره فقال « اذا سرنا معاً فانا أكون في ظلك يا سيدتي لانك صاحبة هذه الارض ومالكة رقاب أهلها وقلوبهم وما أنا في شيء من مثل ذلك كما تعلمين »

فالتفت اليه ونظرت نظرة عتاب وقالت « لا تقل يا سيدتي »

فقال « وماذا أقول اذا ؟ »

قالت « قل يا دميانة وهذا يكفي »

فلما سمع قولها تهلل وجهه فرحاً وقال « هل تاذنين بذلك . . . هل

تأذنين أن أسميك باسمك فقط ؟ »

قالت « بشرط أن تأذن لي أن أدعوك سعيداً »

قال « أنت صاحبة الاذن الاول ويكفيني حظاً انك أذنت أن أكون

في خدمتك هذا المساء في أثناء الطريق .. على أني أرى مسافة هذه الخدمة

قصيرة فهل يتاح لي يا ترى أن تطول مدتها ؟ »

فراجعت ونظرت اليه نظرة تعني عن خطاب طويل وقالت « لا تقل

خدمة فانما هي رفقة »

فقال « وهل تأذنين أن تطول هذه الرفقة يادميانة » قال ذلك وفي

غنة صوته معنى لا يعبر عنه بالكتابة

فأدركت تلميحه وفهمت مراده فأخذ الهيام منها مأخذاً عظيماً وسرها

تصديه لهذا السؤال فنظرت الى وجهه على ضوء القمر وعيناها شاخصتان

بميسمه وقالت وصوتها يرتجف « طول الحياة . . . » وغلب عليها الحياء

وتوردت وجنتاها وأطرقت تنتظر جوابه فلما أبطأ خافت أن تكون قد

تسرعت بهذا التصريح فتباطأت في المسير فطاوعها سعيد في التباطؤ ولحظ استغرابها سكوته فقال « قد تستغر بين سكوتي يا دميانة بعد أن سمعت كلمتك الثمينة التي قلدت بها عتقي ... أما سكت من الدهشة والاكبار لاني شعرت بالانتقال فجأة من مصاف الاشقياء الى مراتب أهل السعادة . . . ان هذه الكلمة يا دميانة كتاب كبير ومجدد ضخيم ... بل هو وحي سماوي نزل على قلبي فأناره وأراني مستقبلاً مجيداً لم أكن أحلم به وفوق ما كنت أطمع بمنه . . . بل هي روح حلت في ميت آمالي فبعثته من القبر . . . مرت بي أحلام الصبا يا دميانة وحدثني نفسي بضروب من السعادة تحظر في اذنان الاحداث ويندر أن ينالوا عشر معشارها فلم يخطر ببالي سعادة كالسعادة التي اكتفتني عند سماع هذه الكلمة الثمينة... أنها أبلغ ما نطق به الشعراء وأسما ما خطر على بال بشر .. طول الحياة ..؟ أطال الله حياتك يا دميانة حتى تطول أسباب سعادتني ..» ثم تراجع وقد انتهى لتسرعه في تفسير قولها والتفت إليها وهي تنظر اليه وقد حدثت بصرها في وجهه كأنها تهتم أن تحتضنه باجفانها فأحس بسهم أصاب قلبه وانه غلب على رشده فقال «أخشي يا دميانة اني تسرعت في مرادك . هل تعنين ما فهمته ؟ . . أم غلب علي الوهم ففهمت ما آمنناه ؟ »

فتهدت نهداً عميقاً وقالت « أبعد ما تراني فيه من دلائل ال... تغالطني وتطلب مني زيادة الايضاح ... اشفق على عواطفني واكتف بما تراه من اضطرابي . . . وبعد ما ظهر لي من احتفائك بتلك الكلمة ومغالاتك في قيمتها . كيف لا أعني ما فهمته . . نعم انك قد فهمت مرادي كأنك تقرأ أفكارني .. ولا عجب فانك مقيم في قلبي

فلم يتالك أن صاح من الفرح والدهشة « مقيم في قلبك ؟ حبذا المقام ان لم يكن فيه تثقيل عليك . . ماذا أقول يا دميانة وقد غلبتني على أمري وضيق على أبواب الكلام .. فأعترف بعجزني عن الخوض في هذا البيان وأكتفي بعبارة بسيطة فأقول اني أحبك حباً يكفي للتوفيق بين الملكية واليعاقبة ونزع ما بينهما من الضغائن . أو التأليف بين الاقباط والمسلمين

حتى يصيروا أمة واحدة . ولا أطلب منك التصريح بما في قلبك فقد عرفته وأخشى ان اسمع كلمة أخرى تأخذ بلاغتها بعقلي . . »

وكانا يتشاكيان ويتكاشفان الاسرار وهما يسيران والفرس يسير في اثرها لا يسمع لحوافره وقع كأنه شعر باتقاد ذنك القليلين وأدرك حاجة صاحبيهما الى السكنية فشارك الطبيعة بالهدوء تهيأاً من سلطان الحب واكراماً لذنك الحبيبين في ذلك المساء المقمر . وأما الحبيبان فكانا ينقلان الخطى وهما لا يعلمان الى أين يسيران ولو مشيا على تلك الحالة اياماً حسبها لحظات قليلة فكانا في شاغل عن حفيف الورق وتنادي الفلاحين ونباح الكلاب وصهيل الخيل كأنهما في عالم آخر

الفصل السادس

العم زكريا

وهما في تلك النفلة رأيا شبحاً مقبلاً يعدو من جهة بيت مرقس . رآه .
أولا سعيد فقال « أرى شبحاً مقبلاً اظنه رجلا هل تعرفينه »
فالتفتت وتفرست فيه ثم قالت « انه خادمي العم زكريا . . وأظن
والذي استبطأني فبعث يتعجل مجيئي »
فعلم سعيد انه لا بد له من مفارقتها فقال « ان هذا العم سيأخذك مني .
او بالحري سيفصل بيننا »
فقطعت كلامه قائلة « موقناً ان شاء الله »

فردد قولها « موقناً ان شاء الله » مراراً ثم اجتذب اللجام حتى اقترب
الفرس منه وقال وهو يحك جبهة الفرس « والان انت ذاهبة الى بيت
ايك وستلهين عني بالخدم والجواري وبمعدات السعادة واما انا فلا انيس
لي الا خيالك »

قالت « لا يشغلني عنك شاغل بعد ما دار بيننا » وكأنها ارادت أمام

الحديث فمنعها الحياء فقاطعها قائلًا « لا تطول مدة الفراق ان شاء الله
 قالت « ذلك يتوقف على رأيك و . . . »

قال « أنا ذاهب في الغد الى القسطنطينية لارى ما يأمر به اميرنا ابن
 طولون بعد فراغي من بناء العين وجر المياه وسيعين يوماً يحتفل به بجرها
 وسأناك المكافأة وأرجو أن تسرك . وعند ذلك اتقدم الى الامر الذي
 جرتني عليه من فضلك . فاستودعك الله الان » ومد يده اليها فمدت يدها
 فصافحها وضغط على اناملها وأحس ببرودها فاجابته بمثل ذلك وأومات الى
 القمر وهي تنظر في عينيه ولم تقل شيئاً ففهم مرادها وقال « وانا استشهد
 عذا الكوكب السيار على عهدنا » والتفت فرأى العم زكريا يتباطأ بمشيه
 عمداً كأنه علم ما بينهما وأراد مساعدتهما عليه . فلما رآها يتصافحان تقدم
 اليهما وحيأها بتأدب وسكينة

وكان زكريا كهلاً اجروداً اصله خصي اسود ربي في صباه عند ملك
 الذريرة ثم تنوقل بالهدية حتى وهب لدميانة ليلة ولادتها على أن يكون في
 خدمتها الى آخر حياته . وقد أخذ لها الخدمة - وهؤلاء الحصيان إذا
 صدقوا في جهنم كانوا أقرب مودة لاسيادهم من الاخوة أو الوالدين وكانت
 دميانة تأس بزكريا وتكرمه وتناديه « ياعماء » وكان يعرف سعيداً معرفة
 جيدة ولم يفقه ما يمكنه لدميانة ولا ما في قلب دميانة مع انها لم تذكر له شيئاً
 من ذلك . وكان يرى بينهما تناسباً ويتم اقترانهما - فلما التفت بهما
 في تلك الخلوة بادرها قائلًا « لقد شغيت بالنا يا مولائي لغيابك ولو علمت
 انك التقيت بمولاي المهندس الماهر لما تحملت مشقة السعي اليك ولكن
 سيدي والدك قد أمر بالبحث عنك لتعجيل مجيئك »

قالت « يحق لكم استبطائي ولكنني شعرت بحاجة إلى الصلاة
 والاعتراف فجيئت الى الكنيسة وطل وقوفي امام صورة سيدتنا والدة
 الاله فعابت الشمس قبل خروجي واتفق مرور جارنا الشهم فترجل عن
 فرسه ومشى معي »

فابتدراها زكريا قائلًا « فوجب علينا شكره على هذه الاريحية »

والتفت الى سعيد وقال « أشكرك يا سيدي على تحملك هذه الثقلة فاذا شئت اركب فرسك الى منزلك وأنا أمشي في خدمة مولائي الى البيت فاننا على مغربة منه »

ف نظرت دميانة فاذا هي بجانب بيت أبيها ولم تكن تحسب نفسها قرينة بهذا المقدار فبغتت وجعلت تصاح من شأنها وتهديء روعها لثلا يبدو حالها لا بها. أما سعيد فودعها وركب فرسه وتحول الى منزل أبي الحسن وما زال ياتفت نحوها ويشير مودعاً حتى توارت عن بصره

أما دميانة فما مشت خطوات قليلة حتى رأت الانوار في حديقة بيت أبيها ووقع نظرها على ضفة النيل التي تايه فرأت أنواراً عديدة لم تعهد مثلها هناك فقالت « ما هذه الاضواء التي أراها في النيل ؟ »

قال « هذه سفينة المادرائي صاحب الخراج وأهلها أضياف عندهم ، فتذكرت انها شاهدها تخترق عباب الماء في أصيل ذلك اليوم فقالت « ما لنا وللمادرائي . لا أذكر انه يزورنا ولا أعرف وجهه فما الذي أتى به اليوم »

قال « هي سفينة المادرائي ولكن المادرائي لم يأت فيها »
قالت « من أتى بها اذاً ؟ »

قال « اسطفانوس ابن المعلم يوحنا كاتب المادرائي وهو صديق سيدي والدك .. قد جاء في هذه السفينة الفخيمة مبالغة في الابهة »

فلما سمعت اسم اسطفانوس تغير لونها ووقفت وقد جمد الدم في عروقها . ولم يجهل العم زكريا سبب تلك البغنة ولكن تجاهل وقال « هيا بنا ياسيدي فمد طال انتظار والدك قدومك »

قالت « طال انتظاره قدومي ؟ وهل يهمه امري ؟ وعنده من السراري والجواري ما يشغله عن هذه اليتيمة المسكينة التي ذهبت سعادتها بموت والدتها .. رحمك الله يا امامه » قالت ذلك وحرقت أسنانها وهي تقول « وما غرض هذا الشاب الجاهل من هذه الزيارة

يا ترى... أظنه جاء لمعاقرة الخمر مع والدي وعمضية الوقت بالمجون والحلاعة على جاري العادة»

فتأثر زكريا بما شاهده من حرقتها فاراد تشجيعها فقال « وما الذي يهكم من ذلك يا مولائي ؟ »

قالت « كيف لا يهمني أمر والدي يا عماء ؟ ألا يهمني أن يكون من معاقري الخمر وأهل المجون ؟ هل رأيتَه ذاهباً الى الكنيسة أم هل سمعته يصلي ؟ وما الذي أبقاه لا خرتَه وأنت تراه يقضي أوقاته في الحلاعة والمجون وهو لذلك لا يصاحب الا من كان على شاكلته . . ما قولك برجل يتخذ اسطفانوس هذا صديقاً حميماً له ينفق امواله عليه ؟ »

فقطع كلامها قائلاً « ألا تعلمين لماذا يصاحبه ويكرمه ؟ لا يخفى عليك سعة أملاك سيدي والدك وما يلحقها من الخراج الكثير وهذا الشاب ابن كاتب الخراج وله دالة على المادرائي بواسطة ابيه فيخدم اباك في تخفيف مبالغ الخراج وقد مضت عدة اعوام لم يدفع أبوك من الخراج شيئاً »

قالت « بئس الاقتصاد . . أراء ينفق عليه في المآدب والعزائم والهدايا فوق ما اقتصده من الخراج . . ثم ان الخراج حق للحكومة لا ينبغي امساكه عنها فكون قد سرقناها ان أهل الذمة والضمير لا يقبلون بذلك »

الفصل السابع

المائدة

وكان زكريا يمشي بين يديها وهما يسيران الهويناء لتمام الحديث قبل الوصول الى المنزل فاستغرب تعقلها وصدق نظرها لانه سمع منها قولاً لم يسمعه الا من كبار الرجال المتقنين في نصره الحق والعدل. ثم تذكر تقواها وتدينها فادرك ان ظنهما ناشئ عن قول المسيح « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » — وفكر في امرها وما يهجمها من أمر أبيها فاستوقفها وقال

« ان الذي يهكم من هذه الشكوى أمران الاول انك تخافين ان
يبدر والدك أمواله فيضيع حقتك من الارث و . . . »
فقطعت كلامه قائلة « ان المال لا يهمني كثيراً ولكن لدي امر آخر
أهم منه »

فقال « لو صبرت لأتم حديثي لاستغنيت عن هذا البيان . . . والامر
الثاني انك تكرهين اسطفانوس وتكرهين عشرته وتخافين أن تؤول صداقة
والدك الى تمكين عرى القرابة معه فتعود العائدة عليك وانا أعلم انك
تبغضين هذا الشاب كما تبغضين جهنم . . . »

فسرها ان العم زكريا فهم مرادها وعرف ما يمكنه ضميرها واحسن
التعبير عن مقدار بغضها اسطفانوس وبالْحَقِيقَةِ ان اباها لمح لها مرة انه يجب
اقترابها به فلم تجبه على أنها لا ترى كل ذلك شيئاً يستحق الذكر بالنسبة الى
حرمانها من سعيد ولا سيما بعد الذي سمعته في تلك الليلة . وهمت أن تبوح
بذلك لزكريا فتمنعها الحياء . وكان زكريا يمشى بجانبها والمصباح بيده فلما آانس
منها الاطراق والسكوت والتفكير رفع المصباح الى وجهها وتفرس فيه وهو
يبتسم وقال « وقد قرأت في وجهك شيئاً آخر » وتضحك وسعل وصبر
هنية ثم قال « ان سعيداً رجل شهم وهو وحده أهل لك . . . »

فلما سمعت قوله بهذه الصراحة زادت ضربات قلبها وتولاها الخجل
ولم تجب فابتدرها هو قائلاً « وهذا الامر على خطارته لا ينبغي ان يهكم
كثيراً . . . انك ستتالين كل ما تريدن باذن الله ونعمة يسوع المسيح .
(وكان العم زكريا نصرانياً مثل سائر أهل النوبة في ذلك العهد) — ستتالين
سعيداً وسيذهب اسطفانوس هذا مخذولاً وستكونين صاحبة هذه الثروة
وحدك أي وقت شئت . . . انما يجب علينا ان نتوخى التؤدة والحكمة والله
المستعان » قال ذلك وأمارات الجذب بادية في صوته ولو استطاعت دميانة
التفرس في وجهه لرأت في عينيه معاني لا يعبر عنها بالنطق على انها فهمت
قوة عزمه من لحن صوته كأنه يتكلم عن ثقة واطمان لكنها حملت قوله

حمل النخمس لها تخفيفاً عنها لانه يجبها ويريد راحتها
 فقالت « اني لا افتر عن الصلاة والدعاء مساء صباح اتوسل الى السيد
 المسيح أن يبعد عني هذه التجارب وأرجو أن يصغى لطلبتي » وقد سره
 تصدي العم زكريا للاخذ بناصرها فزادت استئناساً به واركانا اليه وهي
 تعتقد صدق ولائه واخلاصه . ومشيا حتى اقتربا من الدار ففتح لها البواب
 فدخلوا فاطلا على حديقة قد انبرت بمصاييح ملونة معلقة باغصان الشجر .
 وقد مدت المائدة تحت شجرة كبيرة تدلت المصاييح من أغصانها كالغناقيد
 وعلى المائدة الاقداح والباريق وفيها أصناف الخمر يتخللها أطباق الفاكهة
 والاطعمة وباقات الريحان . فتحولت دميانه نحو غرفتها وظل زكريا في
 طريقه حتى أقبل على سيده وكان جالساً على وسادة عالية بجانب المائدة
 وبجانبه صديقه اسطفانوس وقد لعبت الخمر في رأسيهما

الفصل الثامن

مرقس واسطفانوس

وكان مرقس كهلاً متصابياً يؤلمه التفكير في كهولته واذا خطر له انه
 قارب الستين من عمره غايط نفسه وزعم أن اباه أخطأ في تعيين عام ولادته .
 فكيف اذا سئل عن سنيه . على أنه كان شديد الغضب ممن يطرح عليه هذا
 السؤال ويعدده وقاحة أو اهانة مثل كثيرين من كهول هذا الزمان الذين
 يشق عليهم أن يعرف الناس مقادير أعمارهم واذا ظهرت سن أحدهم ظهوراً
 لاسبيل الى انكاره يسره أن تظهر استغرابك لما سمعته وتقول له « يظهر
 انك اصغر سناً من ذلك كثيراً » فيعد قولك تقريراً له فيثني على حسن
 ظنك فيه كأنك اطريت مناقبه فذكرت مآثره في المجتمع الانساني أو تفوقه
 في العلم على اقرانه أو ابلاءه في الدفاع عن وطنه . . !

وكان صاحبنا مرقس من أهل هذه الطبقة وقد زاده تمسكا بظواهر

الشباب انصرفه الى ارضاء سراريه واكتساب اعجابهن فكان لا يدخر وسعاً في اخفاء علامات الكهولة واصبح منذ انصراف الشباب اذا ابيضت شعرة في شاريه أولحيته أو رأسه نزعها. فلما تكاثرت الشيب عمد الى الحُضاب يسود به « وجهه » بدلا من أن يكون الشعر نظيفاً كما خلقه الله يطايبه بكنس أسود كما تظلي الجدران بالكلس الابيض أو يصبغه بالعقاقير كما تصبغ الجلود أو الانسجة فهو يخذع الناس لانه يريهم من حاله غير ما هو عاينه وذلك من قبيل الرياء لكنه مستحجن عند الاكثرين . واكثرهم لو توسم فيك مداجاة أو خداعاً لاحتقرك وتجنب عشرتك وفاته انه يداجي الناس بخضابه فيريهم من احواله غير الواقع - يوههم أنه شاب وهو كهل وانه اصغر سناً مما هو كانه سئل عن عمره فكذب مع انه يكره كل انواع الرياء والكذب الا الحُضاب فانهم يعدونه من قبيل المبالغة في اصلاح الهندام وأول شروط الهندام النظافة. . . وابتعد الحاضيين عن الهندام من يخضب شاريه ويترك شعر رأسه ابيض

على ان بعض الكهول لا يريد بالحُضاب ايهام الناس انه شاب وانما هو يكره الشعر الاشمط . أما مرقس فانما أراد بالحُضاب الاحتفاظ بمظاهر الشباب بين يدي اعلاه ولذلك كان اذا أحس بانحطاط في قواه لسبب من الاسباب عمد الى المنبهات فشرب الخمر واكثر في طعامه من اللحوم الحارة والافاويه وتنشق العطور ولازم الراحة والخمول وهما من بواعث السمن فانتفخ وجهه وجحظت عيناه وغلظت عنقه وتعالى صدره وبطنه فاصبح لعصر قامته اذا لبس السراويل والقباء يكاد يكون عرضه يساوي طوله. واذا تفرست في وجهه رأيتيه لا يبرح ضاحكا مسرورا كأن الطبيعة طوع ارادته لا يخاف مستقبلا ولا يرهب قادراً مخبأً . انما همه ان يتمتع بالحياة جهد طاقته فلا يسره الا مجالسة المهمكين على شاكته ويفتر من أحاديث الجد . بل هو لا يقوى على اعمال الفكرة برهة بغير أن يمل ويضيق صدره ولعل السبب في ذلك تعوده الابتعاد عن التعب بعد ان اتته تلك الثروة الهائلة فاصبح لا يفتقر الى العمل

وكان من جملة أدلة رغبته في المحافظة على الشباب أنه لا يصاحب الكهول لانهم يغلب فيهم الرزانة والبعد عن المجون والتهتك فكان يعاشر الشباب ويقلد هم في حركاتهم وسكناتهم فيجالسهم ويشاربهم ويؤاكلهم وكان حديثه طلياً فكها يتخلله كثير من النكات والمغازم اللطيفة فاذا سمع نكتة ضحك لها وقهقه طويلاً

وكان اسطفانوس من جملة عشرائه الشبان وهو في نحو الخامسة والعشرين من عمره وكان مرقس عشير أبيه من قبله - واما والد اسطفانوس فكان رجلاً عاقلاً وجيهاً اسمه المعلم حنا ترقى في مناصب الدولة حتى صار كاتباً للمادرائي صاحب الخراج ونال نفوذاً كبيراً وجمع ثروة حسنة وقد احسن كل عمل عمله الا تربية ابنه اسطفانوس لانه كان ضعيفاً من جهة أو لعل الذنب ليس له بل للفطرة لانك اذا تدبرت أحوال الناس في تربية بنائهم قلما رأيت للتربية تأثيراً في ذلك وما هي الا كالصقل للمعدن تجلو ظاهره ولا تغير جوهره . ومهما يكن السبب فقد شب اسطفانوس على الانهماك بالذات والاخلاد الى الرخاء ولم يكن مضطراً الى العمل ولا فيه ميل اليه فنشأ في عيش سهل لاهم له الا ماذا يأكل أو يشرب وكان وحيداً لا يبي له دالة عليه لا يطلب امراً الا ناله . وعرف مرقس ذلك فازداد رغبة في تقريب اسطفانوس منه فضلاً عن توافقهما في الطباع وقد استفاد من عشرته اغضاء حياة الخراج عن تحصيل خراج اطيانه عدة اعوام

وكان اسطفانوس يتقرب من مرقس لثروته وقد شاهد دميانه من صغرها فاحبها . وكان جميل الخلقه معجباً بشبابه وعنده ان الانسان انما تقاس منزلته بمقدار جماله - وقد يصح هذا الزعم في النظرة الاولى وربما تعداها الى ما بعدها فانك ترى اكثر الناس يأخذون الامور بظواهرها . وكم من غبي لولا جمال طلعه ونخامة شكله لمات جوعاً ولكنه يجد بين البسطاء مرتزقا ويلقي بينهم من يصغى الى قوله ويأتمر بامرهم . بل ترى الجماعات من النساء والرجال والاطفال يصغون ويأتمرون - كم بين سكان القرى من كهنة اغبياء اذا ذكر الرعية فضائلهم اسمعوك الاطناب بتلك القامة الطويلة والوجه الجميل

واللاحية الكبيرة والكف البيضاء السمينة والصوت الرخيم أو الجهوري . وقد يقتصرون على هذه الحسنات فلا يهمهم شيء من علمهم او ادارتهم أو تدينهم . فيبن هؤلاء وامثالهم من زعماء العامة جماعات لولا فخامة مظاهرهم لما تواجوا

واعتر ذلك في غير العامة ممن تأخذهم الظواهر فينخدعون بها ولا سيما في اختيار الازواج -- فكم من فتى غره الطرف الكحيل والحد الاسيل والقدر الشيق وكم من فتاة خدعها جمال الطلعة وفخامة المظهر وقد يكون وراء ذلك ما يبكي العيون ويذمي القلوب . ولم يخل عصر من شباب يعولون في الزوج على جاههم (فقط) وكان اسطفانوس من هؤلاء وقد طمع بدميانه لجمالها ومالها وهو يعتقد ان امرها راجع الى ابها فجعل يتزلف اليه بالخدمة أو باطراء ذكائه وطلاوة حديثه ويحاول التغلب على رايه من موضع الضعف فيه فيظن بما في وجهه من نضارة الشباب وان من يراه يحسبه لم تتجاوز سنه الثلاثين . وكان من الجهة الاخرى يحسب رضا الفتاة مضمونا ان لم يكن لجاه أبيه أو لحاطر أبيها فلجأه فكان اذا زارهم أصلح من شأنه وتطيب ولبس احسن ثيابه وأتمها وكانت دميانه تنفر من ذلك الهندام وتعد من قبيل التخث أو الخلاعة ولا سيما بعد ان عرفت انهمك الشاب في المسكر ولكنها لم تكن تظهر له احساسها فاذا لم يعجبها مجلسه دخلت غرفتها تصلي وتقرأ أو تجالس بعض جواري القصر ممن رينها من صفرها

الفصل التاسع

الدعوة

فلما أطل العم زكريا على مرقس واسطفانوس وهما على المائدة قال مرقس

« أين كانت دميانه .. وما الذي اعاقها ؟ »

قال « كانت في الكنيسة تصلي وتعترف وقد عادت »

قال « ادعها الى هنا لتتناول بعض الفاكهة »
 فاشار مطيعاً وذهب اليها فرآها واقفة أمام المرأة الفضية وهي تبذل
 ثيابها وتتأهب للرقاد فقال لها « ان سيدي يطلب حضورك »
 قالت « قل له اني ذهبت الى الفراش »
 قال « اذا قلت ذلك لا يصدقني لانه رأى داخله.. ولا أرى بأساً من
 جلوسك هنيهة معه ثم تعذرين بالنعاس وتذهبين »
 فاطاعته والتفت بمطرفها وخرجت الى الحديقة فاستقبلها أبوها ضاحكاً



دميانة بلباس البيت تقرأ في كتاب الصلاة

مازحاً وقال « لقد طال غيابك في الكنيسة يا دميانة . . ألا تشبعين من
 الصلاة ؟ »

قالت وهي تجلس على وسادة في طرف البساط المفروش هناك « ان
 الصلاة لذيدة يا أبي » قالت ذلك وابتسمت تلذذاً بذكر الصلاة
 فقال « فاذاً ستفرحين كثيراً اذا عرفت اننا ذاهبون غداً الى شبرا
 لحضور الاحتفال بعيد الشهيد » وضحك

فاطرت وقد علمت من غنة صوته انه يعبت بها ويعرض بما لغتها بالصلاة ولما سمعت ضحكك قالت « ان عيد الشهيد عيد مبارك وفيه فضل وبركة لا اله يبشر ببدء الفيضان إذ يلقون فيه التابوت وأصبح الشهيد وحلماً يحل في النيل يأخذ ماؤه بالفيضان (١) لكنني أعلم أن الاحتفال به أصبح بطريقة لا ترضي الله إذ يتخذ بعض الناس فرصة لاراقة الخمر والتمتع بالشهوات » فقال وقد تناول تفاحة جميلة ودفعها اليها « مالك وللناس نحن نذهب لحضور الصلاة والاحتفال باخراج التابوت و . . »

فتناولت التفاحة من يده وقطعت كلامه قائلة « ولكن مثل هذا الاحتفال تتزاحم فيه الاقدام وتتحاك المنكب ويختلط الحابل بالنابل فلا يجد المرء موطناً لقدميه »

فنظر اليها وهو يستخف بما تقوله وقال « كانك تحسيننا ذاهبين لنقف مع الرطاع والعامه ... اتنا ذاهبون مع صديقنا اسطفانوس في سفينة صاحب الخراج ... اظنك شاهدتها راسية على الشاطيء فتزكها وفيها الغرف والمطابخ للطعام والنوم ونحترق بها النيل فنقف حيث نشاء وتنظر الازدحام ونحن في سعة ونشاهد الاحتفال في راحة .. فيجب علينا ان نشكر صديقنا اسطفانوس على هذه الدعوة »

فلما سمعت دميانة قوله وعلمت أنها ذاهبة مع اسطفانوس استعادت بالله وتراجعت حتى بدا التردد في عينها . أما اسطفانوس فتذرع بشكر مرقس الى الكلام فقال « العفو يا مولاي انما يجب علي ان اقدم فرائض الشكر إذا تنازلت السيدة دميانة ورضيت بالذهاب معنا »

فلم يزدها هذا التلطف الا نفوراً ووقعت في حيرة بين أن تقبل الدعوة وتمضي بضعة أيام مع اسطفانوس وهو ثقيل على قلبها أو أن ترفضها ولا تأمن أن يلح عليها والدها فنضطر للذهاب مرغمة فظالت ساكته فقال أبوها « ما بالك لا تتكلمين يا دميانة الست مسرورة بهذه السياحة أو الزيارة »

فسبقها اسطفانوس الى الكلام وقد تناول الابريق بيده وأخذ يصب منه الخمر في قدح من الزجاج المنقوش وقال « لاحاجة إلى سؤاها فقد قالت انها لا تريد الذهب » وفرغ من الصب فادنى القدح من فيه وقد أرسل رأسه الى الورا فاسترق نظرة اليها بين القدح وكمه فرآها لا تزال مطرقة تتلاهى بالتفاحة بين اناملها وقد غلب الحياء عليها حتى توردت وجنتها

فتصدى مرقس للجواب عنها ويده اليمنى القدح يبعده عن فيه بعد أن شربه وأخذ يسمح باليسرى شاربيه وفمه وقال « كيف فهمت أنها لا تريد الذهب وهي أرغب الناس في الصلاة والاحتفالات الدينية .. وكانت تخاف الازدحام فبعد أن علمت بذهاننا على الدهية كما ذكرنا لأظنها ترى مانعاً... وفي كل حال فهي تذهب مع أبيها حيثما سار »

فأدركت دميانه أنه يعرض بسلطته الابوية وأنه سيأخذها رضيت أم لمترض فرأت الموافقة أليق فالتفت الى اسطفانوس وقالت « طننتني رفضت الذهب .. ولا رأي لي بوجود والدي فاذا أمر اطعت »

فنبش لها أبوها وقال « بورك فيك يا ولدي ولكنني لا أحب أن اضغط على فكرك .. فبناء على ذلك نحن ذاهبون غداً على الدهية .. كوني على استعداد »

الفصل العاشر

ابو الحسن البغدادي

أما اسطفانوس فآظهر الارتياح وبرقت عيناه وأخذ يتصدر ويعالج المجلس له ليستلقت انتباهها الى جمال عينيه وعظيم هيئته وهي لا تزداد بذلك الا نفوراً منه حتى ضاقت ذرعاً من تلك الجلسة وهمت بالنهوض وإذا بالعم زكريا اقبل مسرعاً وهو يقول « ان جارنا أبا الحسن بعث يستأذن في السهرة عندنا » فلما سمع مرقس ذلك بغت وقال دعه يدخل الى المنزل من الباب

الآخر ونحن قادمون لملاقاته وأوقد القاعة الكبرى بالشموع جيداً»
 قال ذلك ونهض وأخذ يمسح شاربيه ولحيته ويصلح هندامه ودعا
 اسطفانوس للدخول معه وتركاً دميانة لتذهب الى غرفتها من طريق آخر
 لئلا يراها الضيف أو الجار — ولم يكن الحجاب يومئذ شائعاً عند القبط أو
 لعله كان في أول شيوعه . وسببه على الغالب ان المسلمين كانوا يجربون
 نساءهم عن النصرارى كما يجربونهن عن سواهم . فلما كانت اقامتهم لا تزال في
 المدن لم يكن لذلك تأثير على القبط. فلما نزلوا القرى وجاوروا القبط اصبح
 القبطي اذا زار جاره المسلم رآه يحجب عنه امرأته وسائر نسائه فاصبح هو
 يفعل ذلك اذا زاره المسلم فيحجب اهله عنه . وتتوغل ذلك في الاعقاب
 بتوالي الاجيال حتى صار عادة شائعة

أما دميانة فلا تسل عن خفوق قلبها عند سماعها اسم أبي الحسن
 وعزمه على الزيارة في تلك الساعة وكانت زيارته نادرة قلما يأتي الا
 لغرض — وتذكرت مقابلتها سعيداً في ذلك المساء فحدثتها نفسها انه ربما أتى
 لشيء يتعلق بها وأصبحت شديدة الشوق لمعرفة ما اذا كان سعيد آتياً مع
 أبي الحسن . ووقفت هنيهة تفكر في ذلك بعد ذهاب والدها واسطفانوس
 ثم تحولت من جهة أخرى تطلب غرفتها وهي تتوقع أن يأتي زكريا ليطمئن
 بالها — فتشاغلت بتبديل ثيابها حتى أتى فسألته فقال « لم يأت غير أبي
 الحسن يا سيدتي وهذه الزيارة لاسطفانوس وليس لوالدك فقد سمعت أبا
 الحسن يقول انه لما علم بوجود اسطفانوس ابن المعلم حنا في القرية اغتم
 الفرصة للسلام عليه »

فاجابت دميانة بقلب شفتها السفلى وهي تظهر الاعجاب تهكمها واستخفافها
 ولسان حالها يقول « ما شاء الله . . . ابن المعلم حنا . . . شيء عظيم . . .
 وزيارته فخر كبير ! »

فلحظ زكريا ذلك منها فقال « لا تستخفي به يا مولاتي فان اباك يكاد
 يكون صاحب النفوذ الاول وليس اكثر نفوذاً منه الاماداراني صاحب الخراج »

فتشاغلت عن سماع كلامه وقطعت حديثه قائلة « هل جاء أبو الحسن

وحده ؟ »

فابتسم وقال « نعم وحده »

فقلت « اراني محتاجة الى الرقاد »

قال « الاتناولين العشاء ... هل أعده لك ؟ »

قلت « لا أشعر بالجوع »

فتركها وخرج

أما أبو الحسن فقد كان كهلاً جليلاً القدر مع انس ولطف جاء في ذلك المساء بإبباس البيت عليه جلاية من الحرير المخطط فوقها عباءة رقيقة وعلى رأسه طاقية حولها عمامة صغيرة . وكان مرقس واسطفانوس قد سبقاه الى القاعة وهي غرفة واسعة مفروشة بالبسط الثمينة والسجاد الجميل وعلى نوافذها ستائر من الديباج المطرز صنع تينيس مما يندر اقتناؤه في القرى . وعلى جدران القاعة صور دينية وفي الوسط مشعمة كبيرة قد انبرت شموعها وحول الابسطة وسائد مطرزة بقرب الجدران

فلما اقبل أبو الحسن خف مرقس لاستقباله والترحيب به فسلم أبو الحسن عليه ثم سلم على اسطفانوس وقال له « لقد آنت قرينتنا يا معلم اسطفانوس »

فقال « ان الانس بجوارك يا سيدي »

ودعاه مرقس الى الجلوس على وسادة قدمها له فقعدها عليها . وبعد ان تبادلوا التحية والسلام مراراً قال أبو الحسن « لماذا لا يأت المعلم حنا والدكم لقضاء بضعة ايام يستريح فيها من عناء الاعمال ويبعد عن غوغاء الفسطاط »

قال وهو يشمخ بانفه افتخاراً بوالده « ان الشواغل عنده كثيرة ياسيدي اذ لا يخفى عليكم أهمية مركزه وقد الف الشغل حتى غدا لا يرى راحة الا به وكثيراً ما اتوسل اليه ان يخرج للتزهد فلا يرضى »

قال ابو الحسن « وأظنه الآن مشتغلا على الخصوص بحسابات الخراج والعشور لهذا الفصل »

قال « نعم . . لا أدري متى يفرغ من العمل . . فان كل أيام السنة شغل عنده حتى اتنا لا نراه في منزله إلا نادراً واذا جاء المنزل تهافت عليه الوجهاء بين زائر يستشيريه أو صاحب حاجة يتوسل اليه أو متخاصمين يحكمونه . . . » قال ذلك بلحن التفاخر وبدا الاعجاب في وجهه - فهو يفاخر الناس بحكمة أبيه ووجهته ونسي انه غر خامل قد يكون سبباً في ذهاب تلك الوجهة - ذلك دأب كثيرين من أبناء الوجهاء لا يضيع احد عم فرصة يدخل فيها اسم والده في الحديث واذا سنحت له تلك الفرصة استأثر بالجلسة وأخذ يعدد مناقب الوالد ووجهته فيقص على سامعيه من نوادره ومعجزاته ما ينقل سمعه ويمسر تصديقه وقد يتلطف في الاستطراق الى التحدث بوالده على اسلوب يوهم به السامعين ان ذكر الوالد جاء عرضاً ثم يعمد الى القص والاطراء - ذلك هو شأن صغار الاحلام ضعاف الرأي واسطفانوس واحد منهم

الفصل الحادى عشر

العرب والقبط والترك

وكان ابو الحسن من كبار العقول واسعي الصدر يفضي عن هذه الصغار وينظر الى جوهر الحديث فقال « أظنكم تقيمون في الفسطاط الآن » قال « كنا نقيم هناك لكننا انتقلنا الى بابلون بجانب الفسطاط لان الفسطاط كثيرة الازدحام ووالدي يحب الراحة في ساعة الرقاد » قال « لا أظنه تركها من الازدحام فقط ولكنكم تفضلون الاقامة في بابلون لان سكانها من القبط فتكون على مقربة من أماكن العبادة » قال ذلك وتبسم

فأدرك اسطفانوس اشارته فقال « ان الانسان يقدر ان يعبد ربه حيثما كان والقبط الآن كما لا يخفى عليك في راحة وطمأنينة في أيام اميرنا الحالي » فتهد أبو الحسن وأطرق فابتدره مرقس قائلاً « احمد الله ان الاحوال تبدلت وأدرك حكامنا المسلمون ان محاسنة القبط أولى »

قال « أتحسب ما كان يرتكبه بعض الامراء المسلمين من ظلم القبط ونكايتهم كانوا يأتونه بأمر الخلفاء أو انه من قواعد الدين الاسلامي؟ كلا . ان الاسلام لا يأمر الا بالحسنى يدلك على ذلك ما كان من رفق المسلمين في صدر الاسلام على أيام الخلفاء الراشدين رحمهم الله وان النبي عليه الصلاة والسلام قد أوصى بالقبط خيراً . وأما هي مطامع بعض الولاة لا يريدون بها التعصب على دين بل هم يلتمسون من ورائها ابزاز الاموال . . ولو أرادوا بها غير ذلك لما أصابنا نحن الشيعة ما تعلمونه من الاضطهاد . . حتى منعونا ركوب الافراس والخروج من الفسطاط وحظروا علينا اتخاذ العبيد الا العبد الواحد واذا كان بيننا وبين احد الناس خصومة قبل قول خصمنا فينا بلايينة » وسكت أبو الحسن ريثما بلغ ريقه ثم استأنف الكلام قائلاً « حتى هذا الوالي احمد بن طولون فانه اما يريد بالمحاسنة مطمعاً لنفسه : : »

فاعترضه اسطفانوس قائلاً « وكيف ذلك يا سيدي ؟ . وقد أحسن جوار القبط ورفع عنهم كثيراً من المظالم فلو كان طامعاً لزاها او ابقاها على الاقل »

قال « ان ابن طولون داهية كبيرة النفس ومطمعه عن تعقل ودهاء . . ألا ترى انه لم ينزل في الفسطاط ؟ فلماذا . لماذا ترك قصر الامارة والمسجد فيها وابتنى لنفسه وجنده قطائع خارج الفسطاط بجوار المقطم فأنفق فيها الاموال الطائلة ؟ »

فأطرق اسطفانوس ولم يجر جواباً . فأجابه أبو الحسن قائلاً « اعلم يا بني ان ابن طولون هذا تركي الاصل وهذا العصر عصر الاتراك . وبعدان كانت الدولة للعرب وكان أمراؤها وقوادتها من العرب اخذت السيادة تتحول عنهم الى الاتراك حتى اصبحوا اهل النفوذ والسطوة في بغداد وسامراً ومنهم

اکبر الولاية والامراء والاطراف . . . وأظنکم لاحظتم انحطاط شأن العرب في مصالح الدولة في الفسطاط نفسها . ولذلك أصبح الولاية الاتراك يعدون العرب منافسيهم ويخافون انتقامهم فلا يأمنون القيام بينهم فاحذوا يبنون المنازل الحصينة لانفسهم خارج المدين التي يقيم فيها العرب . . . بدأ بذلك الخليفة المعتصم نخرج باتراکه من بغداد وابتنى لهم مدينة سامرا . . والفسطاط كما تعلمون بلدة عربية فلما استتب الحكم لابن طولون وعزم على الإقامة هنا ابتنى القطائع بين الفسطاط والمقطم مع بعد الماء عنها فاضطر لانفاق الاموال الطائلة في جر المياه . . وأظنکم تعلمون ان حبيبنا سعيداً قد أخذ على نفسه جر الماء الى القطائع واخبرني أن الامير انفق في ذلك مالا كثيراً»

فقال مرقس « صدقت ياجانار العزيز . . والذي لاحظته انا ايضاً أن اميرنا المشار اليه يطمع بما لم يطمع به سواه من الامراء السابقين . . يطمع بان يستقل بحكم مصر لنفسه»

فقطع ابو الحسن كلامه قائلاً « قد استقل بها وقضي الامر وغلب على ابن المدبر صاحب الخراج الذي كان يسوم الناس الحسف والذل ويأخذ الاموال بغير حساب سبحان من انقذكم منه . . »

قال مرقس « نشكر الله على ذلك وينبغي أن نشكره على شيء آخر ايضاً كان له دخل في تحسين احوالنا وتخفيف الضرائب عنا »

قال « اظنک تعني السکنز الذي عثر عليه ابن طولون في الجبل . . ان عثوره على السکنز سد كثيراً من حاجاته خفف المظالم عن الناس »

قال ابو الحسن « ان المال المذكور خفف الضرائب . . اما محاسنته القبط وتقريبهم اليه فسببها رغبته في اکتساب الاحزاب لما قدمته من سوء ظنه بالعرب فاتخذ القبط حزباً له وكذلك قل عن الشيعة فانه يرى في محاسنتهم سياسة ودهاء »

قال مرقس « فهو يبني القطائع اذاً خوفاً من مساكنة العرب بالفسطاط ؟ ماشاء الله . . شيء جميل »

فضحك أبو الحسن وقال « والقبط يسكنون بابلون خوفاً من العرب أيضاً . . حتى أصبحت قسبة هذه الديار الآن ثلاث مدن القسطاط للعرب المسلمين والقطائع للترك المسلمين وبابلون للقبط . . »

الفصل الثاني عشر

الخطبة

ثم سكتوا جميعاً لحظة فاراد مرقس من باب المسيرة والمجاملة ان يفتح الحديث فقال لابي الحسن « اظن سعيداً في القطائع يشتغل بجر المياه ولو كان هنا لزارنا معك »

فاستبشر ابو الحسن لفتح ذلك الحديث فقال « بل هو هنا وقد جاء بالامس واخبرني انه فرغ من بناء العين وسيعود قريباً للاحتفال بجر الماء اليها وهو يتوقع من نجاحه في ذلك تقديماً كثيراً »
فقال « ولماذا لم يزرنا معك »

فعمل ابو الحسن ومسح لحيته بكمه استعداداً للحديث وقال « لم يأت لابه وصل الساعة وهو تعب . . . وهناك سبب آخر اغتتم وجود حبيبتنا اسطفانوس واعرضه لديك . . »

فنتاول اترجلان نحوه لسماح ما يتلوه فقال ووجه خطابه لمرقس « لا تخفي عليك منزلة سعيد عندي فهو مع كونه نصرانياً قد اتخذته صديقاً لي واحبه أكثر مما يحب الوالد ولده وهو كما تعلم ماهر الهندسة ولم يوجد في مصر كلها من استطاع الاقدام على بناء تلك العين سواء »

فصادق مرقس واسطفانوس على قوله بجركات الرأس والعينين فقال أبو الحسن يخاطب مرقس « اظنك تعرف سعيداً . . كيف تراه ؟ »

قال « آراه شاباً جميلاً وهو ماهر في الهندسة ويحبه كل من عرفه »
قال « هل تحبه أنت ؟ »

فقال « كيف لا أحبه ؟ »

قال « بناء على ذلك وقد قلت لك اني بمنزلة والده وقد جئت بالتيابة عنه لأتمس منك امراً أرجو من الحبيب اسطفانوس أن يساعدني في الحصول عليه »

فخفق قلب اسطفانوس لانه أدرك الغرض المطلوب ولكنه تظاهر بالاجابة وقال « اني طوع أمرك يا سيدي »
فقال أبو الحسن « جئت أخطب اليك ابنتك دميانة الى حبيبي سعيد فهل تخذلني وترفض طلبي . . ؟ »

فوقع ذلك الطلب وقوع الماء الحار على بدنيهما واجفلا وسكت اسطفانوس أما مرقس فاجاب جواباً مضطرباً وهو يظهر المجاملة فادرك أبو الحسن اضطرابه وتردده ولم يهجمه ما سمعه من المجاملة لانه قرأ الانكار في عينيه واكتفى بما لحظه - واهل الاحساس يقرأون الفكر في خلال الانكار وبعضهم يدرك مرادك قبل ان تتكلم . وكان ابو الحسن من هؤلاء فأيقن بفشل مهمته لكنه تجاهل وقال « أنا أعلم ان الجواب على سؤالني يقتضي تروياً ونظراً فامهلك ربنا تبصر فيه »

فاحس مرقس عند هذا الاعتذار كأنه كان في سجن وافرغ عنه ولو كان فيه شجاعة اديبة لقال له « انها مخطوبة » اذ قد سبق ووعده اسطفانوس بها ولكنه استنقل التصريح وحسبه خشونة فلما سمع كلام أبي الحسن ابتسم وقال « طبعاً سأنظر في الامر والذي يقدره الله يكون »

واسرع أبو الحسن حالا الى تغيير الحديث فانتقل الى مواضيع مختلفة ثم وجه خطابه الى مرقس قائلاً « ارجو من فضلك يا جارنا العزيز أن تساعدني على الحبيب اسطفانوس فاني احب أن يؤانسني لزيارة وان تفضل أنت معه »

فتصدى اسطفانوس للجواب قائلاً « اشكرك يا سيدي . . . كنت أود ذلك من صميم قلبي لولا اني عائد غداً باكراً »

قال « الى اين . ! لقد تعجلت الرجوع وأنت لم تأتتنا الا الساعة »

قال « نعم جئت لآخذ المعلم مرقس معي وأعود . . »

قال « تأخذه ؟ الى أين ؟ »

فضحك مرقس وقال « لا تخف . . ليس الى السجن ولا الى

الصلاة . . »

فقطع اسطفانوس كلامه قائلاً « بلى الى الصلاة الست ذاهباً لحضور

عيد الشهيد ؟ »

قال « اتنا ذاهبون لحضور الاحتفال ولا بأس من حضور

الصلاة . . »

فقال ابو الحسن « اظنكم ذاهبين في هذه الدهية .. لمشاهدة الاحتفال

الآتي في سبيل النيل »

الفصل الثالث عشر

عيد الشهيد

فرأى اسطفانوس من اللياقة ان يدعو لمرافقتهم فقال « ان منظر

الاحتفال في النيل بهيج جداً فهل تفضل وترافقنا في هذا السفر ؟ وهذا

الاحتفال مع كونه نصرانياً فان المصريين على اختلاف اديانهم يشتركون فيه

لانه بالحقيقة احتفال وطني . . »

فاستغرب أبو الحسن قوله وقال « هل هو عيد شم النسيم أو الثيروز أو

فتح الخليج حتى يكون وطنياً . . ! »

قال « كلا ولكنه يعد وطنياً باعتبار ان الاحتفال به خلف احتفالا

وطنياً كان شائعاً في مصر قبل دخول العرب هذه البلاد . . اظنك تسمع

بضحية النيل الفتاة الجميلة التي كان أسلافنا يزفونها الى النيل ويلقونها فيه كل

سنة استدراراً لمائه . . »

فقاطعه أبو الحسن قائلاً « نعم سمعت حديثها ولكن المسلمين ابطلوا هذه العادة على ما أعلم » (١)

قال « نعم ابطلوها ولكن القبط ما زالوا يخافون غضب النيل اذا لم يزفوا اليه شيئاً فابدلوا الضحية المشار اليها باصبع من اصابع شهدائنا الاولين تلقى في النيل كل سنة قبيل فيضانه فيحتفلون بذلك في الثامن من بشنس ويضعون الاصبع في تابوت يلقونه في النيل فيأخذ بالزيادة من ذلك اليوم . . » (٢)

وكان أبو الحسن مطرقاً يسمع فلما فرغ اسطفانوس من وصفه أظهر السرور بما استفاده وأجابه أنه كان يود أن يجيب دعوته ويرافقه في تلك المشاهد الجميلة ولكنه يحب البقاء في المنزل اكراماً لسعيد لانه قادم من سفر وربما لحق بهم بعد حين الى أن قال « واذا لحقنا بكم نعرف دهيتكم من رايها . أليست هي راية المادرائي ؟ »

فخاف اسطفانوس اذا ألح في الدعوة ان يرافقه في الدهبية وربما جاء سعيد معه وقد أصبح لا يطيق رؤيته غيرته منه على دميانه فاكثف بقوله « نعم هي للمادرائي وأرجو ان تلحقوا بنا فيكون حظنا كبيراً » وسكت وانتبه أبو الحسن بغته انه اطال الجلوس قبل العشاء فاعتذر وانصرف . ولما خلا اسطفانوس بمرقس نظر اليه نظرة استعطاف واستفهام فضحك مرقس واتخذ هذه الفرصة وسيلة لاطهار تفضله على اسطفانوس وقال « لا تخف يا عزيزي ان دميانه لو طلبها ابن طولون وكان نصرانياً لما سمحت بها لسواك » فاثني اسطفانوس على تفضله وحسن رأيه فيه ووضع يده على كتفه وضع تحجب كأنه يحاول ضمه وقال « بارك الله فيك يا أبا الرجال . . . ان والدي طالما اثني على لطفك فضلا عن العلائق الودية القديمة بين عائلتنا » فاعتنم مرقس ذكر والد اسطفانوس فقال « ولكن والدك المعلم حنا ينسى القديم ولا يذكر غير الجديد . . قد سررنا كثيراً بتقدمه في ديوان

الخراج حتى أصبح كاتباً للمادرائي ولكن سرورنا قلما افاده ولا هو افادنا»
فعلم اسطفانوس أنه يعرض بأمر يريده من أبيه فقال « لا تظن والدي
ينسي اصحابه ولا أظنك نسيت تخليه عن البقايا التي كانت متأخرة على قريتك
من أيام الظلم

فقطع كلامه وقال « انه فعل ذلك بأمر ابن طولون كما تعلم... على اني
لا أشك بأن والدك لا يدخر وسيلة في التخفيف عنا . . . ولى عنده ملتئم
لا يكلفه تعباً سأقصه في وقت آخر »

وكانا يتكلمان وهما خارجان من القاعة بعد أن ودعا أبا الحسن عند بابها
الآخر وكان الخدم قد اعدوا الطعام فوضعه على المائدة حلما علموا بخروج
ابي الحسن من القاعة فقعد الصديقان ساعة أخرى على الطعام والشراب
وذهبا الى الفراش

الفصل الرابع عشر

الصعود في النيل

ونهب الخدم في صباح اليوم التالي يهيئون الفاكهة واللحوم والخضار
والحمور لتحمل الى الذهبية تنفق في أثناء السياحة في النيل - وصعود النيل
في ذلك الفصل (الربيع) جميل جداً لأن السفينة تجري فيه هادئة لا يزعجها
نوء ولا يكدر ركبها رائحة البحر المالح فلا يخافون خطراً ولا دواراً يقضون
نهارهم يتمتعون بمناظر الطبيعة . فاذا توسطوا النيل تمتعوا بمنظر الضفتين وما
وراءهما من السهول الملونة بين خضراء وحمراء وصفراء باختلاف حال الزرع
من درجات النمو أو النضج . واذا جاؤروا احدى الضفتين استأنسوا نارة
بأنين السواقي وخوار ثيرانها وطوراً بمعاء الماعز تسرح في بسايتها وآونة
بغناء الغلمان الذين يرفعون الماء بالشادوف يوقع كل منهم ألقانه على حركات
شادوفه . وترى هنا غلاماً راكباً حماراً يسوق أمامه بقرة وهناك رجلاً

قضى ركاب دهية المادرائي أياماً في طريقهم من قرية طاء النمل الى شبرا وقد تباطؤوا عمداً حتى يصلوا الى الاحتقال في ابانه . وكانوا يتمتعون بمناظر الضفتين على نحو ما ذكرنا الادميانة فقد كانت تقضي معظم نهارها منفردة تصلي أو تنذر وزكريا يؤانسها ويعزيها وقد ندمت على مجيئها وفضلت ان يغضب والدها يوماً أو يومين ولا تحمل نفسها ما لا طاقة لها به من تكلف اللطف والمسيرة على الطعام أو في غرفة الكلام . وكانوا قد نصبوا في الدهبية مظلة جميلة فرشوا أرضها بالطنافس وزينوا جوانبها باغراس الرياحين والازهار يجلسون فيها للحديث أو الشرب أو التفرجة أو غير ذلك فدميانة لم تجلس هناك أبداً ولم يظهر ذلك غريباً لدى أبها لانه تعود ان يراها منفردة في البيت تقضي أوقاتها بالصلاة أو القراءة أو تشغل نفسها بأمور بيتية لا تهتم . أما اسطفانوس فكان لا يدخر وسعاً في اجتذاب قلبها بتسقط ما يجول في خاطرها تارة بتقديم الفاكهة أو الزهور وآونة باستلقات انتباهها الى منظر جميل أو موقف غريب لعله يسمع منها تحبباً أو تلطفاً أو كلمة تدل على وقوعها في شرك جماله أو الافتتان بحديثه أو ذكائه

طاء النمل والفرغاني : بهنا رصيفنا جرجس أفندي فلتاؤوس صاحب المجلة القبطية في مقالة انتقادية نشرها في الجزء الثامن من السنة الثانية لمجلته - الى ان طاء النمل الوارد ذكرها في هذه الرواية بالصفحة الاولى السطر الاول هي طنامل الواحة في مديرية الدقهلية وقد قلنا انها في الغربية سهواً فنشكره على ذلك - أما ملاحظته عن تسمية الاباطغير الملكيين باليعاقبة فقد جاريناها مؤرخي العرب وغيرهم من الكتاب القدماء . وكذلك ملاحظته على اعتراف دميانة فقد ذكر ان الاعتراف منعه بعض البطاركة وانه كان نادراً في ذلك العصر فندوره لا يمنع وقوعه لدميانة بين يدي قسيس قرية أيها وخصوصاً في رواية غرامية لا يطلب فيها التحقيق . وقد ذكر ان ابن الكاتب الفرغاني سمي بذلك نسبة الى فرغانة احدى قرى مصر وليس نسبة الى أحد أساتذة المسلمين الذي أخذ الهندسة عنهم كما ظننا فاذا كان قوله مبيناً على نص تاريخي صريح عولنا عليه والا فلا تزال المسألة تحتل وجهين . وفي كل حال اننا نشكر لفلتاؤوس افندي عنايته في الانتقاد خدمة للعلم والادب ونزغ اليه ان يزيدنا انتقاداً فزيده شكراً وامتناناً اذ يظهر من عبارته وأسلوبه انه انما يلمس خدمة الحقيقة بلا لمز ولا وخز جزاء الله خيراً - والانتقاد لا يخلو من فائدة في كل حال

أو الإعجاب بمنصب أبيه ونفوذه ... وكان يحسب ركوبه في دهية المادرائي يكفي وحده لرفع منزلته في عيون الناس . ولو كان من أهل الشعور والاحساس لادرك من أول مقابلة أنها لا تطيق رؤيته ولا تريد عشرته . ولو أظهرت اللطف أحيانا عملا بأدب العشرة أو احتراماً لرأي أبيها . فقد كان عليه ان يشعر بنفورها ولكن احساسه كان قليلا

الفصل الخامس عشر

شبرا

أطل ركاب الدهية على شبرا في ظهر يوم صفا جوه فلم تقع ابصارهم الا على خيام مضروبة وأعلام منصوبة وبين ذلك شجر النخيل يناطح السحاب على ضفتي النيل وفي الجزر بينهما . فاعتنم اسطفانوس تلك الفرصة وتقدم الى دميانة وكانت مشتغلة بنفسها واقفة قرب السارية تتلاهي بما يقع عليه بصرها في الضفتين تحاذر ان تلتقي به أو يقابل وجهها وجهه فراراً من سماع حديثه فلما رآته يمشي اليها استعادت بالله وقد علا وجهها الاحمرار فتلاحت بصليب معلق في عنقها كانت شديدة الحرص عليه لانه هدية من بعض راهبات دير المعلقة كانت قد زارت طاء النمل لجمع النذور واهدته اليها وهي تعتقد فيه القداسة والكرامة . فلم يبال اسطفانوس بارتباكها أو لعله حسبها استحييت من مقابلته كما يستحي الخبيث من محبه . واعتنم انفرادها عن سائر أهل السفينة ليطارحها الغرام واحب أن يتدرج الى ذلك بأسلوب لطيف فقال « لا أدري أهنتك بهذا الصليب يادميانة أو أهنته بك »

ففهمت مراده واعتنمت خطأ لتوبخه فقالت « امثل هذا الكلام يتحدثون عن صليب السيد المسيح ؟ »

فظنها تداعبه وتطلب زيادة التصريح فقال « لأعني صليب المسيح وإنما

اعنى هذا الصليب فانه نال مقاما يتحسر عليه كثيرون « قال ذلك وتهد وقد ابرقت عيناه ووقف يتوقع جوابها
 أما هي فتوردت وجنتاها وشق عليها ما يجول في خاطره فارادت ان تغير الموضوع فقالت « بالحقيقة اني لم اشاهد احتفالا مثل هذا » ووجهت نظرها الى تلك المضارب

فلم يشعر بما ينطوي عليه هذا التغيير من الاحتقار وسر لانها فتحت بابا للكلام فقال « انه احتفال باهر ولذلك أحببت أن تحضريه فجئت في خدمتك بدهية صاحب الحراج وسنزل بعد قليل في فسطاط نصبوه لنا خاصة . . . الا ترينه بين يدي تلك الجميزة الكبيرة ؟ » وأشار بيده الى شجرة كبيرة أمامها صيوان ثمين نصب ببابه علم يشبه العلم المنسوب على السفينة

فعلمت دميانه انه صيوان المادراي وشق عليها النزول فيه مع اسطفانوس وهى تكره رفقته وتعلم فوق ذلك انها ستلاقي هناك ما تكرهه من موائد الدمام وباريق الراح فقالت وقد بدا في وجهها الاشمزاز « لا . . لا . . اسمح لي ان لا اذهب . . »

فابتدرها قائلا وفي صوته غنة العتاب « لا تخافي يادميانه لست ذاهبة اليه وحدك فان والدك ذاهب معنا »

فرفعت كتفها وهزت رأسها اشارة للرفض ولم تتكلم فلم يكتف الشاب بذلك فقال « وان كنت لاتصدقين فالساعة يأتى صديقي والدك ويقول لك ذلك »

فتراجعت والتفتت التفتات من سمع صوتاً استلقت انتباهه فرأت العم زكريا قادماً نحوها وهو يهم أن يكلمها فتوجهت اليه بكلماتها فاذا هو يقول لها « ألا ترالين عازمة على زيارة هذه الكنيسة يا مولائي ؟ » وأشار الى كنيسة في شبرا نفسها يحتفلون باخراج التابوت منها كل عام

فهمت انه ينتحل وسيلة لتخليصها من اسطفانوس فقالت « كثيراً اشتيت زيارتها والتبرك بها ولا سيما في مثل هذا الاحتفال »

فقال « ان السفينة لا تلبث ان ترسو عند الشاطئ وقد استأذنت والدك في الامر »

فقالت « لقد احسنت يا عماء » ومشت في اثره لتبديل ثيابها وتركت اسطفانوس على مثل الحجر وقد احس انها تعتمد احتقاره فكظم ما في نفسه وذهب الى مرقس فقص عليه ما قالته دميانة فقال « وهل ساءك ذلك ؟ . ان بعدها في مثل هذا اليوم نعمة لان وجودها معنا في الفسطاق لا يوافق هوانا . . اعلنا جئنا لحضور الصلاة ؟ وهي لا يلذ لها ان تحضر موائد الشراب - دعها تذهب لصلاتها ونحن نذهب الى مجلس أنسنا وسماع الغناء والضرب على العود والنفخ بالمزمار . . انه نادر المثال فلا ينبغي اضاعته »

فلم يحر اسطفانوس جواباً ولكن قلبه ما زال يتقد غيظاً . أما مرقس فتظاهر انه كان يود ان ترافقه دميانة فتحول اليها وقد ترملت بمطرفها ولفت رأسها بخمارها ووقفت تنتظر وقوف السفينة فلما رآته توجهت نحوه احتراماً له فابتدرها قائلاً « بلغني انك ذاهبة الى الكنيسة مع ان صاحبنا اسطفانوس قد أعد لنا فسطاساً خاصاً لجلوسنا »

قالت « اني افضل الذهاب الى الصلاة الآن وربما وافيتك في المكان الذي تعينه »

قال « لا أحب ان الجئك الى امر لا تحببني . . افعلي ما بدالك . . ولكن متى تفرغين من الزيارة ؟ »

قالت « لا ادري الآن ولعل آتيكم نحو الغروب »
فقال « حسناً . . وانا مطمئن عليك لوجود العم زكريا معك . . سيرى بسلام » قال ذلك وتحول الى صديقه

الفصل السادس عشر

كنيسة شبرا

ففرحت دميانة بالنجاة ووقفت تنظر الى ما هنالك من القوارب والحراقات السابحة في النيل على عرضه وفيها الناس زرافات ووحدانا وقد مدت فيها الموائد للطعام والشراب . وما من حراقة الا وفيها أوعية الخمر وأطباق الفاكهة . وقد تراحم الناس رجالا ونساء من اصحاب اللهو وارباب الملاعب والمخنين والخلعاء وعلت ضوضاؤهم وهم المغنون والمغنيات والراقصون والراقصات وقد خلع بعضهم العذار وهتكوا برقع الحياء . كانوا يرتكبون في ذلك الاحتفال انواع القصف ويجاهرون بما لا يحتمل من المنكرات حتى تتور الفتن وتقتل الناس ويبيع من الخمر خاصة في ذلك اليوم بما يئنف على مائة الف درهم أو خمسة آلاف دينار . وقد ذكروا ان واحداً باع في يوم واحد بائني عشر الف درهم فضة من الخمر . وكان اعتماد فلاحي شبرا دائماً في وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر في عيد الشهيد ^(١) فيجتمع في ذلك الاحتفال عالم عظيم برأً وبحجراً لا يحصيهم الا خالقهم بعضهم في القوارب والحراقات والبعض الآخر في الخيام

وما زال ربان الذهبية يزاحم القوارب والحراقات والناس يوسعون لها لانها حراقة صاحب الخراج حتى دنت من الشاطئ وقد مالت الشمس نحو الاصيل فتسارع البحارة الى انزال الركاب

وتأهبت دميانة للنزول واذا هي تسمع بعض الناس يقول « هذه سفينة الوالي . . . انظروا انظروا . . . انها سفينة ابن طولون ؟ »

فلماسمعت ذلك اجفأت والنفت فرأت بقرب الضفة الاخرى من النيل سفينة فخمة عرفت انها هي التي يعنونها لكنها لم تشاهد عليهم اية .

وتذكرت علاقة حبيبتها سعيد بان طولون فقالت في نفسها أعله على ظهر هذه السفينة؟ واطالت النظر اليها ترجو أن ترى مايدلها على ذلك فلم تستطع تمييز شيء ولكنها سمعت الناس يظهرون اسغرابهم بحجى هذه السفينة وهم بين مستصوب ومخطيء ولم تنتبه دميانه الا والعم زكريا يناديها أن تنزل فنزلت وتوجهت وهو معها ولم تنالك عن الالتفات الى تلك السفينة فرأتها تقرب نحو الشاطيء فوقفت تنظر اليها فرأت ذهبية المادرائى تنهقر الى الورا لتخلي مكاناً لتلك ترسو فيه فترجع لها أنها سفينة الوالى وان لم تشاهد العلم عليها واستطالت وقوفها فاستحيت ومشت نحو الكنيسة فشى زكريا أمامها وهو يوسع لها الطريق بين الباعة وأهل الشعوذة والغوغاء فقطعت مسافة طويلة بين الحيام وقد تصاعد الغبار وعلا الضجيج وهي مطرقة لا تلتفت يمينا ولا شمالا حتى وصلت الى الكنيسة وقد تراحم الناس في صحنها وقل بينهم من جاء للزيارة أو للصلاة . أما هي فإزالت سائرة حتى دخات الكنيسة فما لبثت أن تنسمت رائحة البخور المزوج بدخان الشموع حتى انتعشت وتحشعت فاستفهمت عن الصلاة متى تكون ف قيل لها انهم يبدأون بها نحو الغروب ويتولى رأسه القداى أسقف الفسطاط وكان من كبار الاساقفة وقد عهد اليه أن يترأس القداى هناك لقربه من شبرا ففرحت دميانه بذلك لان القداى سيكون نجا

وأحبت أن تغتم ساعة الانتظار لمشاهدة التابوت الذي فيه اصعب الشهيد ف قيل لها انه موضوع في حجرة مقفلة بجانب الكنيسة لا يخرجونه الا في حينه فاكتفت بالصلاة تشغل بها نفسها حتى يبدأ الاسقف بقداسه فتحولت الى ايقونة ولادة السيد المسيح وأخذت تصلي بحرارة وتطلب ما تشعر انها في حاجة اليه وهي لا تحتاج الى شيء أشد من حاجتها الى التخلص من الشرك التي نصبت لها فتوسلت الى الله أن ينقذها من اسطفانوس لانها ترى من نفور قلبها انه ليس النصيب الذي اعده الله لها

الفصل السابع عشر

الدهشة

كانت تصلي وتتضرع ولا يلتفت احد اليها لاشتغال كل واحد بشؤون نفسه والعم زكريا قاعد في بعض جوانب الكنيسة بحيث يرى دميانه ويشاركها باحساسها وان لم يسمع قولها فانه كان مطالعاً على مكنونات قلبها كما رأيت - وهي مستغرقة في تضرعاتها سمعت سعالاً أجفلها لانه وقع في اذنها وقوعاً نبه عواطفها واستلفت قلبها فحوت وجبها الى جهة السعال رغم ارادتها فرأت سعيداً مقبلاً نحوها فتسارعت دقات قلبها وتولتها الدهشة واصطكت ركبناها وتوهمت انها ترى ذلك في الحلم لانها لم تكن تتوقع قدوم سعيد في تلك الساعة . فلما وقع نظرها عليه ابتسمت ووقفت لا تدري ماذا تفعل

أما هو فشى نحوها وهو يتسم ويقول « اظننى ازعجتك يادميانه ...

ساحيني »

قالت « لم تزعجني ياسعيد ولكنك ادهشتني بهذا اللقاء على غير

انتظار . . ألعك أتيت لحضور قداس الاسقف ؟ »

قال « وأي اسقف ؟ . كلا وانما جئت لاراك »

قالت « جئت لتراني . ؟ . ومن انباك أني هنا ؟ »

فتهد وقال « علمت من وقوف سفينة المادرائي بجانب قريتك ومن

دعوة ذلك الشاب لحضور الاحتفال بعيد الشهيد »

فادركت أن ابا الحسن اخبره بذلك بعد قدومه الى بيت والدها في تلك

الليلة . وعلمت ان سعيداً لم يوافها الى هناك الا غيرة منه عليها فانبسطنت

نفسا واحست بزيادة ميلها اليه فقالت « وكيف اتيت ؟ . . هل تتوي البقاء

هنا الى صباح الغد؟ وأين انت مقيم . . . وكيف . . . » وتلعم لسانها من شدة الفرح

فقال « أتيت في سفينة الوالي احمد بن طولون »

قالت « ان قلبي دلني على ذلك منذ رأيت تلك السفينة . . . وهل ابن

طولون فيها ؟ »

فأطرق سعيد وسكت لحظة ثم قال همساً « هو فيها لكنه لا ينوي الظهور للناس وقد أوصاني ان اكنم بجيئه لانه جاء بناء على ترغبي . فقد دعاني في هذا الصباح ليكلمني بشأن العين والاحتفال بجر الماء اليها فذكرت له الاحتفال بعيد الشهيد وما يجري فيه من الفرائب ورغبته في مشاهدته ليلا فرضي وأركبني معه على ان يشاهد ذلك سراً فلما رست بنا السفينة استأذنته في زيارة الكنيسة ريثما يخيم الظلام ويبدأ الاحتفال فجئت ومررت بالفسطاط الذي كنت أحسبك فيه فرأيت والدك وصاحبه في زمرة من الشاربيين والمغنين فعلمت انك أتيت الكنيسة فجئت كما ترين . . . »

فقالت « انها منة لا أستحقها . . . فاذا أنت باق هنا الى الصباح ؟ »

قال « سأبقى في السفينة عن بعد . . . كيف انت الآن ؟ »

فهاج سؤاله أشجانها فأطرقت وتهدت وأرسلت دمعين رأها سعيد تتدحرجان على خديها فأحس كأنهما جذوتان وقعنا على قلبه فقال « ماذا أرى . ما بالك . . . ما الذي يخيفك يا دميانة ؟ » وأدرك سبب بكائها فاستأنف الكلام قائلاً « لا تخافي إذا كنت كما اعهدك لا تخافي . . . ان ذلك الغلام يرجع الفقهري كما رجعت سفينته امام سفينتي الليلة . ان المسكان الذي أضع قديمي فيه لا يستطيع هو ان يلثمه . . . » قال ذلك وبانت في حياء امارات الاربحية والافتة

فغلب عليها الاعجاب به ولكنها ما زالت تخاف اباهما فانقبضت نفسها . على انها أظهرت الاطمئنان وقالت « انت ذاهب الآن . . . راجع الى السفينة ؟ »

قال « لا بد من ذهابي قبل الغروب . . . الا اذا امرتني بالبقاء لامر

تخافينه فابق ولا يهمني رضي الوالي او غضب «
 قالت « أما بقاؤك معي فهو غاية مرادي كما تعلم » . وتوردت وجنتها
 وأتمت الحديث قائلة « ولكنني لا أريد ان تغضب ابن طولون وهو الذي
 قدمك ورفع منزلتك ولكنني . . » وسكنت

قال « أتحسبين بعدي عنك يطول ! اننا لا نلبث ان نحتفل احتفالنا
 بجز مياة العين هذين اليومين حتى نجتمع ويكون اجتماعنا دائماً ان شاء الله . .
 هذا اذا كنت تريدن ذلك من صميم فؤادك »

فنهتدت وقالت وهي تخفض صوتها لئلا يسمعها احد من الغوغاء
 « تسألني اذا كنت أريد ذلك ؟ هذا أمر لا أجاب عنه . . سل قلبك
 يدلك عليه ولكن ماذا افعل » وشرقت بدموعها

فأدرك غرضها فقال « قد علمت مرادك . . اما هذا المغرور الذي
 يتناول اليك فاذا كنت ثابتة على العهد رجع بخفي حنين ومهما توهم من
 طول باعه بواسطة صاحب الخراج فان صاحب مصر اطول باعاً وابعد
 نفوذاً . . وهذا يكني »

وهما في ذلك رايا الناس في هرج فالتفتت دميانة فرات العم زكريا
 مسرعاً نحوها وهو يقول « ان الرجل آت »

قالت « اي رجل »

قال همساً « اسطفانوس »

فلما سمعت اسمه تراجعت وامتقع لونها ونظرت فرأت اسطفانوس داخلا
 وهو يتمايل ويزيح الناس بيده ويمشي مشية الخيلاء فبغتت حتى كاد الدم
 يجمد في عروقها خوفاً من عاقبة ذلك اللقاء وسعيد حاضر

الفصل الثامن عشر

عواقب الذل

أما سعيد فاحفظ بعثتها واضطرابها فهبت فيه الحمية وعزم على التفاني في الدفاع عنها فتقدم حتى وقف حيث يعترض اسطفانوس اذا تحول نحو دميانة وقد ثارت الاريحية فيه حتى كاد الشرر يتطاير من عينيه . وبعد هنية وصل اسطفانوس وهو يترنخ من السكر ولما وقع نظره على سعيد في تلك الحال طار سكره وثار الغيرة فيه وأخذ العجب بمنصب ابيه بعد أن رأى الناس يوسعون له ويحترمونه فإشار الى سعيد ان يتحول من طريقه فلم يجبه فمد يده وهم ان يزججه من الطريق وهو يقول مخاطباً العم زكريا بانتهار « ما هذا الوقوف هنا الى هذه الساعة .؟ ان مولايك ينتظر كما وقد غربت الشمس » أما سعيد فلما رأى يد اسطفانوس ممدودة اليه دفعها عنه بعنف فتقهقر اسطفانوس حتى كاد يقع على الارض وعظم ذلك عليه في مشهد من الناس فعاد اليه وقد أشرع يده كأنه يهدده وقال « ما هذه الوقاحة ؟ . . اني لا اخاطبك . امش في سبيلك »

فدفع سعيد يد اسطفانوس عنه وقال « امش انت . عد الى مكانك حتى تفرغ من سكرك »

فأكبر اسطفانوس هذه الاهانة ومد يده الى جانبه كأنه يحاول أن يستل خنجرأ فابتدره سعيد بلطمة على خده فدار دورة وقلب على قفاه وسمع لوقوعه صوت استلفت انظار الجمهور فارتبكت دميانة بنسها وخافت وقوع الفتنة وامسكت سعيداً بيده وتوسلت اليه أن يتركه ويمضي لسبيله خوفاً من الفضيحة فقال « لا خوف عليك ان المسألة لا دخل لها معك » وتقدم الى اسطفانوس وهو يتعلم للقيام وأراد ان يدوسه بقدمه فتهاقت الناس ومنهم من يريد الدفاع عن اسطفانوس لوجهته ولا يعرفون سعيداً

فأراد بعضهم أن يرده فصاح سعيد « ارجعوا والله لولا حرمة هذا المعبد لارقت دماءكم على بلاطه »

فلما رأوا الشدة تراجعوا وعمدوا الى اللين وكان اسطفانوس قد نهض ورجع الى رشده وأدرك عجزه عن مناوأة سعيد فلجأ الى الحيلة فحول غضبه الى عتاب ووجه خطابه الى سعيد قائلاً « اني لم اكلمك فلماذا تتعدى علي . . ان والد هذه الفتاة استبطأ غيابها فكلفني ان استدعيها فكأنك ظننتني اريد بها سوءاً فأخذتكم الغيرة عليها لانك جار أبيها على ما اذكر فتعرضت لي ؟ . . »

فلما سمع سعيد تحيله ورأى جبنه ازداد احتقاراً له فقال « مهما يكن السبب فان مثلك لا يليق ان يأتي بهذه المهمة وهو متمتع من السكر . . . فاذا كان والد الفتاة يطلبها فليأت هو لاستدعائها وأنا واقف هنا في خدمتها حتى يصل »

فضحك اسطفانوس جبناً ورياء وقال « كأنك لم تصدق قولي • اسأل العم زكريا فانه يعرفني . . ثم اني لم أخطب السيدة نفسها وانما خاطبت خادمها »

فتقدم العم زكريا لفض المشكل بأسلوب لطيف وخاطب سعيداً قائلاً « اشكرك يا مولاي . . والمعلم اسطفانوس يشكرك أيضاً على غيرتك وتفضلك ولعلك لا تعرف علاقته بسيدي فاننا جميعاً في ضيافته اليوم » ثم وجه خطابه الى اسطفانوس قائلاً « وأظنك يا مولاي تعلم ان المهندس سعيداً من ابناء طائفتنا وهو جارنا في المنزل وعزيز على سيدي ولم يتصد لك الا لامر أنت ترغب فيه . . . »

فقطع اسطفانوس كلامه وعمد الى المداجاة والملاينة قائلاً « قد علمت أنه من طائفتنا وان كان مقيماً مع ابي الحسن . . ولكنك لم يمهني ربنا افهمه مرادي فنحن اذاً اصدقاء » وضحك

فأنتم العم زكريا كلامه قائلاً « وأما سيدي دميانة فانها ستبقى هنا لحضور قداس الاسقف الليلة وأنا معها ولا خوف عليها »

فقال « اذا كان الامر كذلك فقد انقضت مهمتي وها أنا راجع لاخبر صديقي المعلم مرقس بذلك » والنفت الى سعيد وقال « أنا ذاهب يا صاحب فهل أنت باق هنا ؟ »

فاستغرب سعيد ما رآه من جبن الرجل وذله وصغر نفسه وأجابه بلا اكتراث « نعم أنا باق »

فتحول اسطفانوس وخرج وهو يقول « استودعك الله »
فظل سعيد واقفاً حتى خرج اسطفانوس ثم هز رأسه والنفت الى دميانة وقال « انه لخلق غريب .. هذا هو منافسي فيك . وكنت أود البقاء في خدمتك الى آخر الليل لولا اضطراري للرجوع الى السفينة وقد غابت الشمس وأخاف ان يغضب الوالي وانت لا ترضين ان يغضب »
فوقعت دميانة في حيرة وقد زاد احتقارها اسطفانوس واحترامها سعيداً وقالت « لا أريد ان يغضب الوالي .. سر بحراسة الله »

قالت ذلك والنيبه يلحظ من لحن صوتها انها لم تتم قولها فأدرك سعيد ذلك فنظر اليها وعيناه تنكبان وهي تحببه بعينها وكلاهما يحاذر ان يلحظ الناس حاله . ولولا اشتغال الجمع بشؤونهم لم تتح لها فرصة للكلام . فلما رأته دميانة ينظر في عينيها أدركت انه يستفهمها عن مرادها فقالت ثانية « سر بحراسة المولى ورعاية السيد المسيح »

قال « فهمت ذلك من قبل ولكنني أحسبك تضررين شيئاً آخر »
قالت « لا أضمر شيئاً سوى اني . . . » ففهم مرادها وقال « لا تبالي بشيء فما هي الا بضعة أيام حتى يخلو لنا الجو فاذا فرغت من جر الماء وفزت برضاء الوالي فان صاحبنا هذا لا تبقى له جسارة للكلام بشأنك - ويظهر انه لم يعد يجسر على ذلك منذ الآن ألم تري جبنه وخوفه ؟. كوني مطمئنة لا تخافي . استودعك الله »

فمد يده وودعها وخرج

أما اسطفانوس فعاد وهو يتعثر بأذياله وأخذ يبيء الاعذار لما بدا من خذلانه ويضمر الاذى لسعيد بأية وسيلة كانت

أما دميانة فوافت بعد خروج سعيد جامدة وقد ندمت على مجيئها الى الكنيسة لعلها بأخلاق اسطفانوس . وادرك العم زكريا قلقها فأخذ يخفف عنها ويحقر أمر اسطفانوس في عينها ويهون عليها غضبه وانه لا يستطيع أمراً . ثم علت الضوضاء في الكنيسة وتصاعدت رائحة البخور وتعالصت أصوات الترتيل وصلصلة المباخر فتوجهت الانظار نحو الاسقف داخلاً باثوابه الكهنوتية تتلألأً وبين يديه الشماسة والمباخر بالشموع فاشتغلت بسماع القداس عن هواجسها لانها كانت تجد في سماعه لذة عظيمة

قضت في الصلاة وسماع القداس برهة وهي تفهم كل ما يقال لان الصلاة كانت لا تزال كلها في القبطية وهي تفهمها جيداً وكان الظلام قد أسدل نقابه فازدادت أنوار الشموع ظهوراً وكثر الزحام حتى تضايقت دميانة في موقفها ولحظ العم زكريا تضايقها فاستمهلها ريثما ذهب الى شماس يعرفه واستأذنه في كرسي تراح عليه السيدة دميانة بحيث تسمع الصلاة بعيدة عن الضوضاء فأجاب الشماس طلبه ودعاها الى كرسي بجانب الهيكل بعيد عن الناس فجلست عليه ووقف العم زكريا بين الحضور وهو يراعيها وينتظر اشارتها

فلما جاست هناك اشرفت على الجماهير واكثرهم من أهل القرى والعمال بين مصغ للقداس ومشتغل بالحديث وفيهم النساء والاطفال والضوضاء غالبية لشدة الازدحام ومع تلذذها بما تسمعه من التراتيل الروحية فان صورة سعيد ما زالت تعترض تصوراتها فاذا تذكرت ما دار بينهما اختلج قلبها وتذكر اسطفانوس فتنقبض نفسها . وهي في ذلك رأت الجماهير يتفرقون وقد فتحوا في وسطهم طريقاً دخله جماعة يحملون تابوتاً عليه رسوم كنائسية حتى اذا توسطوا الكنيسة وضعوه على منضدة قائمة هناك وتخضع الناس لرؤيته وتقدم الاسقف بالمباخر بين يديه وأخذ يتلو الصلوات والادعية ويتضرع الى الله أن يقبل احتفالهم ويبارك النيل اذا القوا التابوت فيه والناس يؤمنون على دعائه

الفصل التاسع عشر

الرجوع

ولما فرغ الاسقف من الصلاة وأخذ الناس ينفضون ويخرجون نظرت دميانة الى العم زكريا في المكان الذي عهدته فيه فلم تجده فارتبكت في أمرها وأجالت نظرها في الجميع لعلها تجده بينهم فلم يقع بصرها عليه فزاد قلقها وخافت أن يخرج الناس كلهم ولا تراه لكنها ما عمت أن رآته داخلا بسرعة فسري عنها ولما دنى منها سأته عن سبب غيابه فقال «فكرت فيما نعمله بعد انقضاء القداس وأنا أعلم انك لا تحيين الذهاب الى فسطاط اسطافانوس فذهبت الى والدك واستأذنته برجعنا للمبيت في الذهبية»
 ففرحت لهذه الفكرة وقالت «وهل اذن لك بذلك؟»
 قال « نعم . هيا بنا اذا شئت »

فنهضت ومشيت في أثره حتى خرجت من الكنيسة فرأت ما أدهشها من الانوار الكثيرة في الخيام على الضفتين وفي الجزر وفيها المصاييح والمشاعل وقد تراحم الناس وعات ضوضاؤهم بين غناء ونداء وعربدة وقهقهة واستلفت نظرها على الخصوص ماشاهدته من الانوار السابجة في النيل على الحراقات فانها كانت كثيرة وفي كل حراقة جماعة يشربون ويعربدون ويصيحون وقد اختلط حابلهم بنا بلهم رجالا ونساء

فأضاء العم زكريا مصباحه ومشى بين يدي دميانة في طريق قليل الزحام بعيد عن الشاطيء حتى اذا قابل الذهبية تحول نحوها وهي تقتني اثره وعيناها شائعتان في عرض النيل وتتفرس بالسفن لعلها تميز سفينة ابن طولون فلم تجدها . وما زال العم زكريا حتى صعد بها الى دهيتهم وما صدقت انها دخلت غرفتها وبدلت ثيابها وجلست للاستراحة فاناها زكريا بطعام تناولت

بعضه وهي لا تشعر بالنعاس فصعدت الى مجلسها في اعلى السفينة واعادت نظرها في الحراقات والسفن وهي تبحث عن سفينة ابن طولون وتظهر أنها تنفرج بمنظر الحراقات فتحققت غياب السفينة ولكن اذنها كانت تنفر مما سمعه من العريضة في السفن حولها ففضلت الذهاب الى سريرها وأفاقت في اليوم التالي عند الفجر على صراخ الناس عند خروج الاسقم والكهنة بالتأبوت . حملوه على قارب وحوله الازهار والرياحين وقد أخذ الكهنة بالترايل والادعية والقارب يخترق النيل حتى اذا وقف في مكان يعرفونه انزلوا التأبوت في الماء ثم أعادوه واخذت جماهير الناس تتفرق براً وبحراً

ولم تشرق الشمس حتى رأت والدها عائداً مع اسطفانوس في حالة تسمم منها النفس من السكر وهما يحاولان اخفاء حالهما حياء من دميانة وهي تتجاهل ما تراه وتتشاغل بشئونها

أما اسطفانوس فذهب تواً الى غرفته وبدل ثيابه ولبس ثوبا نظيفاً وبالغ في التطيب والتعطر ولكن رائحة الخمر المتصاعدة من فيه مازالت متغلبة على كل طيب واغتم اشتعال مرقس عنه واتي الى دميانة وكانت وحدها جالسة على وسادتها فلما رآته قادماً استعازت بالله ولكنها عزمت على التجلد . أما هو فلما أقبل عليها التي التحية وهو يتضحك واللؤم باد في وجهه وقال « بالحقيقة ان جاركم رجل شريف غيور »

فلم تجبه ولكنها تشاغلت باصلاح خمارها لعلمها انه يتذرع بما قاله الى الايقاع بسعيد وهي لا تطيق ذلك . فلما رآها ساكئة قال « لماذا لا تحييني يادميانة . . ؟ ألعنه أوصالك ان لا تكلميني . . ؟ »

ففظرت اليه شزراً وقد انكرت هذا التعريض وبان الانكار في عينها وعمدت الى تغيير الحديث فقالت « هل جاء والدي ؟ ان هو ؟ »

قال « نعم انه جاء وهل تريدن أن أقص عليه ما جرى بالامس في

الكنيسة ؟ »

قالت وقد غلبت عليها الانفة « كما تشاء . افعل ما بدا لك »

فضحك وقال « لا . لا أقول شيئاً لأنني لا احتاج الى نصرته في هذا الامر . ان اسطفانوس ابن المعلم يوحنا كاتب المادرائي لا يصبر على ما سمعه من ذلك الجار العزيز . . »
فلم تستطع صبراً على كذبه وريائه فقالت « ولماذا صبرت على ذلك بالامس ؟ »

قال اتريدين ان أبارزه في الكنيسة . . « وكأنه ادرك انه لا ينبغي له ان ييوح بما عزم عليه بين يديها فقال « ذلك حديث مضى . . وقد اعجبتني غيرته على جارته . ولكنه أظهر طيشاً وحمقاً في طريقة دفاعه عنها . . لا بأس . ساعه الله . . » ثم تظاهر بالتلطف بها والتودد اليها وقال وهو يجلس على الطنفسة بجانبها « اتنا الآن على أهبة الرحيل . . وقد قابلت الاسقف في هذه الكنيسة قبل مجيئي الى هنا » قال ذلك وابتسم فلم تفهم مراده ولا همها أن تستوضحه فسكنت فقال وهو يسحف نحوها « الاتزالين مستسلمة الى الحياء مني الم تفهمي حقيقة أمري . . »
فلما كلمها عن قرب فاحت رائحة الخمر من فيه فتباعدت عنه وأظهرت النفور فحسبها تداعبه فقال « ما بالك تهربين مني وأنا لم أزد على التكلم معك فكيف اذا فعلت غير ذلك »

فقالت « انما هربت من رائحة الخمر فاني لا احتلمها »

قال « ياللعجب . . لهذا المقدار تنفرين من رائحتها . . ينبغي لك ان تعودبها والا فيكون عيشنا منغصاً »

فلم ترد على هز كتفيها وهي تنظر الى البحرية وهم يشغلون برفع المرساة وحل الشراع وتدوير الذهبية للاقلاع . وسمع اسطفانوس خطوات مرقس فهض لاستقباله وهو يقول « احس بالدهية تدور بنا هل أقلع الربان ؟ »

قال « نعم اتنا ذاهبون الى الفسطاط » ثم حول خطابه الى دميانة فقال « أرجو ان تكوني سررت بهذا الاحتفال والفضل بذلك لصديقي

اسطفانوس فانه والحق يقال لم يدخر وسعاً في سبيل راحتنا . . قدرنا الله على مكافأته «

فسكتت هنيهة ثم قالت « ابن نحن مقلعون يا أبتاه »
قال « اتا ذاهبون الى مدينة الفسطاط نقضي فيها أياماً . اظنك لاتعرفينها »

قالت « كنت احسبك ترجع بنا الى بيتنا »
قال « ارايك شديدة الحرص على غرفتك وكتبك وايقوناتك . و انت الى هذا اليوم لم تخرجي من طاء النمل ولا شاهدت شيئاً من مدائن مصر ان الفسطاط مقر الوالي واجناده المسلمين وفيها من الابهة والزخارف مالا تجدين مثله في القرى »

قالت « مالي وللابهة والزخارف . ان هذا لا يهمني كثيراً »
قال « انا اعلم انه لا يهكم ولكني احببت أن اريك شيئاً جديداً »
قالت « افضل الرجوع الى البيت »
قال « سترجعين قريباً ولكن صديقي اسطفانوس دعانا لقضاء بضعة ايام في منزل والده بمحلة بابلون قرب الفسطاط فاذا كنت لاتحبين المرور بالفسطاط سرا تواء الى بابلون »
ولما سمعت قوله استعازت بالله وقالت « أين نحن من دير المعلقة الآن ؟ »

قال « هو في طريقنا بين الفسطاط وبابلون »
قالت « اذا لم يكن بد من الذهاب الى غير بيتنا فاني احب زيارة هذا الدير لاني نذرت ان ازوره متى سمحت لي الفرصة وفي عتقي صايب من صلبانه »
فسر مرقس لرغبتها في تلك الزيارة فقال « نزل في الدير اذا شئت »

الفصل العشرون

دير المعلقة

وكانت السفينة قد اقلعت ونشمرت اشرعها وأخذت تحترق عباب الماء ولم تمض بضع ساعات حتى اطلعوا على قصر الشمع ودير المعلقة جزء منه . فمرت السفينة بين الروضة وقصر الشمع حتى رست بباب القصر وهو يومئذ قريب من النيل فاشتعلت بالنظر اليه لانه أشبه بالحصون منه بالقصور ووقفت السفينة بجانب بابه الغربي وهو باب عظيم الارتفاع قائم بين برجين عظيمين مستديري الشكل وفوق الباب نقش عليه صورة النسر الروماني فاراد اسطفانوس مخاطبها فقال « ان دير المعلقة يا دميانة في احد هذين البرجين فسكنت ولم تجبه فلما رست السفينة هناك اشتعلت البحرية بوضع السلم للنزول فنزل مرقس ونزلت دميانة في أثره ودخل بها الباب ثم صعد الى الدير وفيه بعض الراهبات فلما علمن بقدوم الضيوف خرجن للقائهم وتقدم اسطفانوس الى الرئيسة أن ترحب بدميانة فخرجت لاستقبالها ورحبت بها وسارت معها الى الكنيسة وأرتها ما فيها من الاعمدة الرخامية على أشكالها والايقونات الثمينة فتخشعت دميانة من تلك المشاهد وظهر السرور في وجهها وبعكس ذلك والدها ولكنه أراد مسيرتها ليهون عليه استبقاؤها ريثما ينقلها الى بابلون

ولما استقر بدميانة هناك قال لها والدها « اني ذاهب لقضاء بعض المهام في القسطنطينية وربما بت الليلة هناك ثم اعود اليك في الصباح » فسررها ذلك وقالت « افعل ما بدا لك اني هنا في خير وطمأنينة ولو مكنت في هذا الدير أشهراً لا أبالي »

فودعها وخرج ومعه اسطفانوس وظلت دميانة وزكريا في الدير باتت تلك الليلة هناك على الرحب والسعة وقضت رداً من الليل وهي

تسمع ما يقصه عليها الراهبات من احاديث القديسين وعجائبهم واستأنست على الخصوص بالراهبة التي كانت اهدتها الصليب

ولما اصبحت في اليوم التالي أسرعرت الى الكنيسة للصلاة وبعد الفراغ منها اخذتها رئيسة الدير الى غرفتها وقد احبتها وتعلقت بها . وهما جالستان هناك جاءت راهبة وعلى وجهها امارات الدهشة والسرور معاً فابتدرتها الرئيسة بالسؤال قائلة « ما وراءك ؟ خيراً ان شاء الله ؟ »

قالت « الاسقف . . الاسقف آت لزيارتنا »

قالت « وأي اسقف تعنين ؟ »

قالت « أسقف القسطنطينية »

فبان البشر في وجه الرئيسة ونهضت للحال وأمرت ان يتأهب الراهبات لاستقبال الاسقف وقامت دميانة معهن وسألت راهبة كانت ماشية بجانبها « يظهر ان الاسقف لا يزور هذا الدير كثيراً »

قالت « يندر أن يزورنا الا لامر هام فعسى أن يكون قد جاءنا بيشارة خير على قدومك »

وما عثم ان رأت الاسقف داخلا والراهبات يرحبن به فدخل أولاً الكنيسة صلى فيها صلاة مختصرة على جاري العادة ثم تحول الى غرفة الرئيسة ولم يدخل معه اليها الا الرئيسة ودميانة واكبت دميانة على يده فقبتها والتمت بركته ودعاه فباركها وجلس على وسادة وأشار الى دميانة ان تجلس وهو يقول للرئيسة « أليست ضيفتكم دميانة بنت المعلم مرقس ؟ »

قالت الرئيسة « نعم يا سيدي يظهر أنك تعرفها »

ولما سمعت دميانة اسمها تعجبت واطرقت حياء واجلالاً فقال الاسقف قد عرفت بالامس مذ كانت في كنيسة شبرا بدعوة ولدنا اسطفانوس ابن المعلم يوحنا كاتب صاحب الخراج وقد أحسن الوصاية بها وبالغ في التناء على ابيها »

فلما سمعت ذكر اسطفانوس تحول سرورها الى كدر ولم تبد ملاحظة

فقال لها الاسقف « ألم تكوني مساء الامس في كنيسة شبرا يا ابنتي ؟ »

قالت وقد صبغ الحياء وجهها « نعم يا أبتى كنت هناك وحضرت
القداس وتبركت بدعائك »

قال « بدعاء القديسين والابرار يا ابنتي . . . اني لفرط ما سمعته من
الثناء على تعقلك وتقواك أصبحت مسروراً برؤيتك . وهل أنت عازمة على
طول البقاء هنا ؟ »

قالت لا أدري ولو خيرت لقصيت عمري هنا »

فتبسم الاسقف تبسماً ينطوي على معنى وقال « ان الديور افضل المنازل
للمسيحيين اذ يتفرغ فيها الانسان لعبادة الخالق والقيام بفروض الدين
ولكن لا أدري اذا كانوا يأذنون ببقائك هنا طويلاً »

فاشكك عليها مراده واستغربت تصديه لهذا البحث عند أول مقابلة
ولكنها تجاهلت وقالت « اذا كان أهل هذا الدير يخرجونى منه فلا
حيلة لى »

قال « لا أعني ذلك فان رئيسة هذا الدير وراهباته يرحبن بك كثيراً
ولكننى اعني والدك المعلم مرقس . . ما لنا ولهذا الآن دعينا من هذا
الحديث حتى يأتى والدك »

فادركت انه يشير الى الامر الذي ترتعد فرائصها من ذكره ولكنها
تجلدت وسكنت فحول الاسقف كلامه الى الرئيسة وقال « كيف الدير
وراهباته ارجو ان يكن فى راحة »

قالت « هن فى خير ببركة السيد المسيح ودعائكم »

قال « يظهر ان هذا الولى التركى أرفق بالاقباط من اسلافه العرب »

قالت « نعم ياسيدي انه منذ تولى مصر مشغول بشؤون دولته فلا ندرى

هل كان سكوته ناجماً عن اشتغاله عنا أو هو يريد بنا خيراً »

قال « اظنه يفعل ذلك عن رفق وحسن رأى ادام الله هذه النعمة علينا »

فقالت الرئيسة « آمين »

وهم فى ذلك أتت احدى الراهبات وقالت « ان المعلم مرقس يلتمس

الدخول »

فقالَت الرئيْسة « يدخل »

ولم تمض هنيهة حتى أقبل المعلم مرقس فكبب أولاً على يد الاسقف فقبلها وسلم على الرئيْسة وأقبل الى دميانة يسألها عن حالها فقالت « اني في غاية السرور في هذا الدير وقد غمرتني الرئيْسة بفضلها ولطفها »
فجلس مرقس وهو يكرر التحية على الاسقف ويطلب دعاءه. ودارت الاحاديث بينهم بالاحوال الجارية وذكروا الاحتفال بعيد الشهيد بالامس وأطرى مرقس نخامته وما يرجونه من البركة في ماء النيل على أثر القاء أصبع الشهيد فيه

الفصل الحادى والعشرون

الخلوة

ثم نهض الاسقف وتحول الى مرقس وطلب اليه الخلوة به فاطاعه ودخلا غرفة منفردة واقفلا الباب عليهما فاجست دميانة من تلك الخلوة وحدثها قلبها بشيء يخافه

أما الاسقف فلما خلا بمرقس خاطبه بشأن دميانة وخطبتها الى اسطفانوس وأثنى على الخطيب وأبيه لوجهتهما فأجابه مرقس انه يعلم منزلة المعلم حنا كاتب المادرائى وقد صادق ابنه اسطفانوس وعاشره وهو يستلطفه ولذلك فانه لا يرى مانعاً من اجابة الطلب الى ان قال « وفي كل حال ان أمراً دخل فيه سيادة الاسقف نافذ لا محالة وما دميانة الا ابنتكم المطيعة »

فأثنى الاسقف على تلطفه وقال « شكالى ولدنا اسطفانوس من جفاء الفتاة وتباعدها فاذا كنت تعلم انها تكره الزواج قل لى تفادياً من المشاكل بعد الزواج »

قال مرقس « تكره ؟ كيف تكره مثل هذا النصيب ؟ ولكنني

أحسبها تفعل ذلك حياء على عادة البنات في مثل هذه الحالة . . . وهب أنها ترددت في أول الامر فلا بد من قبولها «

قال « ألا تظن سبب تباعدها اختيارها شاباً آخر وقع في نفسها موقعاً جميلاً ؟ »

فهب مرقس رأسه استخفافاً بذلك الرأي ودفعاً لتلك التهمة وقال « اختيارها شاباً آخر ؟ ما أنا ممن ينجرون بناتهم وليس عندنا بنات تختار . . ان البنات العاقلة هي التي تعمل برأي ايها فكم بالحرى اذا أضيف اليه رأي سيدنا الاسقف ونحن كنا طوع ارادته «

فتبسم الاسقف واثني على لطف مرقس ونهض وهو يقول « متى تريد ان تضع عربون الخطبة »

قال « في الوقت الذي تعينه سيادتكم »

فشكر له ومشى نحف مرقس الى الباب فتحة له وكان أحد الشماسة ينتظر خروجه فتقدم اليه بالصولجان فتناوله وتلفت كما انه يبحث عن الرئيسة ليودعها فتقدمت وقبلت يده فباركها وقال لها « أوصيك خيراً بدميانية سمية القديسة الشهيرة . أين هي ؟ اني لا أراها «

قالت « في الصلاة . . فانها لا تفر عن العبادة . . . بالحقيقة انها من أهل التقوى »

قال « حقيقة . . . ولكن لا أظنها تتوي الترهب » وضحك

قالت « الا إذا اختارها السيد المسيح لخدمته » ولما رأت الاسقف يضحك أدركت أنه يمازحها ويشير الى قرب خطبتها فسكتت فأعاد الوداع وودع مرقس ومضى

أما دميانية فلم تعزل في الغرفة للصلاة فقط ولكنها أوجست من خلوة الاسقف بأبيها فخافت ان يستقدمها للامر الذي تخافه وتتفر منه فتشاغلت بالصلاة وهي لا تفهم ما تقرأه لقلقها واشتغال خاطرها . وكانت من الجهة الاخرى تراعي حركات أهل الدير لتعلم ساعة خروج الاسقف فلما علمت

بمخروجه وذهابه شكرت الله على مرور الخطر ولكنها تعودت في مثل هذه الحال ان تجد زكريا بين يديها فتسمع منه طمأنة او تهوينا فلم تجده وبعد قليل عاد زكريا ففرحت بقدمه ولا سيما لانها توسمت في وجهه خبراً مفرحاً رغم ما في حاله من أدلة العجالة والبغته فسألته عن سبب غيابه فقال « ذهبت في أمر سترين أمرته الآن »

فلم تفهم مراده فقالت « وأي أمر تعني ؟ . . ألم تشاهد الاسقف ؟ ألم تعلم بخلوته ؟ »

قال « كيف لا ؟ ولولا علمي بذلك ما ذهبت بهذه المهمة » فازدادت قلقاً وبان ذلك في عينها فابتدورها زكريا قائلاً « لا تقلقي يا سيدتي اسمعي قرع الباب . ألا تسمعيه ؟ »

قالت « بلى اسمعه . وما ذلك »

قال « ان القادم هو والد صاحبنا اسطفانوس »

قالت « والده ؟ المعلم حنا ؟ »

قال « نعم »

قالت « ما الذي جاء به ؟ »

قال « أنا استقدمته »

قالت « انت ذهبت اليه واستقدمته وكيف ؟ . قل »

قال « لما علمت بمقابلة الاسقف سيدي والدك أيقنت انه سيخاطبه بالامر الذي يريد اسطفانوس وأنا أعلم ان والده رجل عاقل يعرف حقيقة ابنه وانه ليس كفتناً لما يطلبه فذهبت وأسررت اليه الامر فرأيته كما كنت أظن ووعدني انه قادم ليخاطب والدك »

قالت والاستغراب باد في اسرتها « آت لماذا ؟ »

قال « ليرجع أباك عن هذا الامر ويرد ابنه خائباً »

فتبسمت والدهشة تمازج ابتسامها « يرجعه ؟ أنتظنه يستطيع ذلك »

الفصل الثاني و العشرون

المعلم حنا

وقطع كلامها خفق نعال المعلم حنا في صحن الدير فمشت دميانة حتى تشرف عليه من نافذة أو تراه منها ولا يراها هو فرأته رجلا جليل الطلعة وقوراً يظهر التعقل في نظراته وخطواته ورأت رئيسة الدير كثيرة الاحتفاء به وهو يقول لها « بلغني أن المعلم مرقس صاحب طاء النمل هنا »

قالت الرئيسة « نعم يا سيدي . . وقد كان الان في خلوة مع اسقف الفسطاط وخرج الاسقف وأظن المعلم مرقس لا يزال في الغرفة التي كانا فيها » قالت ذلك وهي تمشي بين يديه حتى دخلت تلك الغرفة فرأت مرقس فيها فتركتها ورجعت

أما دميانة فلا تسلم عن اضطرابها في الفترة التي كان أبوها والمعلم حنا مختلين واستطالت الخلوة وقلبا يحتاج ويدها ترعشان وقد اصبحنا باردتين كالثلج وهي في أثناء ذلك تتلاهي بالقراءة وتتجدد مخافة ان يظهر ذلك لاحد وكان أهل الدير في شاغل عنها بشؤونهم . أما زكريا فتركها وخرج لعله يستطلع خبراً يحمله اليها

طالت الخلوة ودميانة تتساءل في ماذا عسى أن تكون عاقبتها تارة تظن سوءاً وتارة خيراً وكلما سمعت حركة خطوة او فتح باب يخفق قلبها ، واذا هي تسمع صوت المعلم حنا نفسه يودع والدها بلحن لم يعجبها فالتفت فرأت وجه الرجل متغيراً ووالدها يتواضع لديه ويتقرب منه عند الوداع بصوت خافت كأنه يعتذر عن خطأ ارتكبه . فكثت هنيهة كالضائفة واذا بزكريا قد جاءها ووجهه يندربما وقع فابتدرته قائلة « لم يفلح الرجل على ما أظن »

قال « هكذا يظهر وعلمت بمن سمع حديثهما أن المعلم حنا نصح لايبك ان لا يزوج ابنه بك وأنه ليس أهلاً لمثلك فطاوله في الكلام ثم اعتذر بأنه

وعد الاسقف وأصبح الرجوع صعباً . . . وانه سيبدل جهده «
 فلما سمعت دميانة قوله وكانت في مكان لا يراها فيه أحد لم تتمالك عن
 أن لطمت خديها لطمة خفيفة وقالت « ويلاه ماهذه التجربة .. أبوه نفسه
 يقول إنه ليس أهلاً لي » وأخذت تبكي ثم تحولت نحو ايقونة للسيد المسيح
 معلقة هناك وقرعت صدرها وتهدت من اعماق قلبها وقالت « الهى نجني
 من هذه التجربة واذا كنت تعلم اني مخطئة في نفوري من هذا الشاب
 حبيه الي واجعلني ارى خطأي . . » واطلقت لنفسها عنان البكاء
 فقال لها زكريا « كفكفي دمعك يا مولاتي . . سيأتي والدك . . كفي
 عن البكاء واصبري . . ولا تبالي بشيء فقد قلت لك إن ذلك الغر لا يمكن
 ان ينال قلامه من ظفرك . . سايري والدك ولا تبدي له جفاء واتكلي
 على المسيح وعلي »

فاطمأن خاطرهما وتراجعت ومسحت عينيها ثم مشت الى غرفتها فلقبها
 أبوها ولعله رأى أثر الدمع في عينيها وتجاهل فقال لها « انى ذاهب وربما
 ابيت الليلة خارجاً .. أظن هذا يسرك يادميانة اذ تفرغين للعبادة » وضحك
 فسايرته في الابتسام فخرج وعادت الى همومها وزكريا يؤكد لها النجاة
 ويستعملها ريثما يتمكن مركز سعيد عند ابن طولون بعد جري الماء في العين
 وهو قريب

أما مرقس بعد مقابلة المعلم حنا وما عرفه من انكاره على ابنه الزواج
 بدميانة فاصبح وقد ذهب شيء من آماله في تلك المصاهرة لانه كان يرجو
 أن يستفيد من نفوذ كاتب الحراج فضلا عن صداقته مع اسطفانوس ولكنه
 مازال يرجو رجوعه الى الرضا لعلمه أنه يجب ابنه كثيراً . وكان مرقس
 يعتقد من الجهة الثانية ان اسطفانوس متى تزوج يظهر لدى والده مظهر
 الكمال ويسمو في عينيه فيقر به . ثم هو من الجهة الثانية تمسك بقوله تنفيذاً
 لكلمته وعملاً بسلطته المطلقة على أهل منزله

وفي اليوم التالي رأت دميانة أهل الدير في حركة يرتبون وينظفون
 كأنهم يتأهبون لاستقبال زائر كبير ورأت بعض الراهبات ينظرن اليها نظرة

خصوصية ولا سيما الرئيسة فقد كانت تراعيها وتبسم لها فتجاهلت وسألت الرئيسة عن سبب هذا الاستعداد فقالت « ان سيدنا الاسقف قادم لزيارتنا في أصيل هذا اليوم وبما أننا استقبلناه بالامس على غرة فرأينا أن نستعد لاستقباله اليوم استقبالا يليق بمقامه لانه أسقف مدينة القسطنطينية وله وجهة وكلمة نافذة فضلا عن مركزه الديني »

فلم يعجبها هذا الخبر وأرادت أن تعيد الاستفهام عن سبب مجيئه فخافت أن تسمع جواباً ينفر منه قلبها فسكتت فضحكت الرئيسة وقالت « لم تسأليني عن سبب قدومه »

قالت « رأيت ذلك ليس من شأني »

قالت « بل أنت صاحبة الشأن الوحيد فيه »

ففهمت مرادها وتحولت من بين يديها لئلا تسمع تصريحها فلقبها زكريا وقد علم ان الاسقف آت ليضع عربون الخطبة مع أيها فاخذ يشجعها ويؤكد لها مساعدته وان تمنعها لا يجديها نفعاً في تلك الحال الى ان قال لها « ان الخطبة عقد يمكن حله وسواء حل هذا العقد ام لا.. لا تخافي يا سيدتي . . أنت تعرفين خادمك زكريا وانه لا يقول جزافاً . . . ومع ذلك ما ادرانا ان يكون والدك قد اقتنع من كلام المعلم حنا فيؤجل الخطبة الى وقت آخر »

فقطعت كلامه قائلة « لا تدع نفسك خادماً فانك أحن من الاب فاذا شئت ادعني ابنتك . . واما ما تقوله فلا يدعو الى الطمأنينة ولو كان والدي غير عزمه لما كان دافعاً الى قدوم الاسقف »

قال « وعد الاسقف قبل مقابلة المعلم حنا فرجما غير عزمه ومع ذلك فاتركي الامر الي ربنا اقول كلمتي » وسكت كأنه ندم على هذا الوعد فقالت « ومتى تقول كلمتك ؟ .. وهل تظنها تنفع »

قال « اقولها عند اليأس واذا لم تنفع فغيرها ينفع » قال ذلك ومشى خوفاً من ان تستزيده ايضاحاً وهو حريص على الكتمان فأدركت هي غرضه فسكتت

الفصل الثالث والعشرون

الخطبة

وفي اصيل ذلك اليوم أتى مرقس وهو يبش لديمانة بشاشة خصوصية وقد لبس أحسن ثيابه استعداداً لملاقاة الاسقف . ثم أمسك بيد ديمانة واخذها الى غرفتها ومد يده الى جيبيه واستخرج عقداً من الجوهر يتلأأ كالشمس وقدمه اليها وهو يقول « ما أجل هذا العقد يا ديمانة » وتوقع أن تمد يدها لتتناوله فلما لم تفعل اظهر استغرابه وقال « لماذا لا تمدين يدك خذيه انه لك » وتقدم نحوها وعلقه في عنقها وهي لا تتحرك وحدثها نفسها ان تقطعه وترميه الى الارض ولكنها تمالكت عملاً بإشارة زكريا . فظنها أبوها رضيت فاكب على رأسها فقبلها وقال « اعلمي يا حبيبتي ان هذا العقد هدية من اسطفانوس وهو آت الآن مع سيادة الاسقف ولو تعلمين كم يحبه سيادته ويعتبره لانه كما لا يخفى عليك ابن المعلم حنا وهو لطيف العشرة . . . اتعلمين لماذا هو آت مع الاسقف »

فلما سمعت ذكر اسطفانوس لم تعد تملك ارادتها فقالت « لا حاجة بي الى معرفة سبب ذلك »

قال وهو يمازحها « كيف لا وانت صاحبة الشأن ولك النهي والامر

اليوم »

قالت وهي تنص بالكلام « لا امر لي ولانهي ولو كان لي امر لما البستي

هذا العقد ولا اتيت بي الى هذا الدير . . » وشرقت بدموعها

فقال وهو يظهر الاستخفاف بقولها « الاتراين تفضلين الاقامة

في طاء العمل على النسطاط قسبة الديار المصرية ومقر الاعيان ورجال

الدولة »

فتهدت وسكتت مخافة ان يبدو منها شيء تندم عليه

اما هو فجعل يغالطها ويفسر نفورها بغير الواقع فينسبه الى الحياء او الخوف على عادة البنات في مثل هذه الحال

ثم جاء الاسقف واهتم لمجيئه اهل الدير فاستقبلوه بالتراتيل والصلاة والزهور والبخور فدخل الكنيسة أولاً وصلى صلاة حضرتها دميانة في جملة الحضور وتخشعت كعادتها في أثناء الصلاة فجعلت تتوسل الى الله ان ياهمها ما فيه الخير لها وانه اذا كان قد جعل اسطفانوس نصيبها فيحببه اليها وبكت وتضرعت كثيراً وهي تحاذر ان يراها أحد . وهي في ذلك انقبت بغتة فرأت اسطفانوس داخلاً الكنيسة وقد لبس أحسن ما عنده واصلح هندامه ووقف بجانب أبيها فاجتمت عند رؤيته وكاد الدم يجمد في عروقها وجعلت تتاجي نفسها وتسال قلبها فلا تراه يزداد الا نفوراً وكلما تصورت اسطفانوس وسعيداً بجانبه احست باجتنابها نحو سعيد ونفورها من اسطفانوس . فقام في خاطرها ان الله لا يريد لها لكنها عادت فتذكرت ان الله يوصيها بطاعة الوالدين واكرامهما فوقعت في حيرة

قضت في ذلك اكثر مدة الصلاة والاسقف بثيابه الجميلة والبخور يتصاعد في فضاء الكنيسة مع اصوات الترتيل واذا هي تسمع الاسقف يقول « يا معلم مرقس »

فالتفت فرأت اباها يمشي نحو الاسقف عند الهيكل فأسر اليه قولا فعاد مرقس الى دميانة وطلب اليها ان ترافقه الى ما بين يدي الاسقف فمشت معه منقادة كما ينقاد الحمل الى الذبح ونادى الاسقف « اسطفانوس » فجاء ووقف هناك فرفع الاسقف يده وبارك وصلى ثم مدها الى اسطفانوس وتناول منه خاتماً صلى عليه والبسه لدميانة وهو يتلو ما جرت به العادة وصرح للحضور انه قد عقدت خطبة دميانة على اسطفانوس

كل ذلك ودميانة ساكنة والدمع يتساقط من على خديها وخافت ان تخونها قواها فتسقط على الارض فتجلدت وركبتها ترتعدان فلما وضع الخاتم بيدها لم تعد تملك قواها فوقعت على الارض فتراكضت الراهبات اليها ونضحها بالماء المقدس ونسبن ذلك الى تعبها او حياؤها او غير ذلك واثنين

بزيت من مصباح امام صورة مريم العذراء مسحوا به جبينها فأفاقت وحملها الى غرفتها للاستراحة ولما أتم الاسقف الصلاة ذهب مع والدها الى متوسدها وأخذ يخفف عنها تارة ويمارحها اخرى واسطفانوس يعلم انها انما اصابها ذلك من فرط تأثرها وقد غلبت على أمرها لانها تحب سعيداً . واختصروا الاحتفال بالخطبة بسبب الانزعاج الذي اصاب دميانة وترفقوا

الفصل الرابع والعشرون

التاميح

واما زكريا فقد كان أشد الحضور تألماً مما حدث وكان قد عزم ان يخاطب مرقس بالامر قبل عقد الخطبة ولكن الاسقف لم يترك له فرصة اذ بادر حالا الى وضعها . فلما رأى ما أصاب دميانة صبر حتى ذهب القوم وطلب مقابلة مرقس وكان هذا قد هم بالخروج مع اسطفانوس فودعه على أن يلتقيا بعدئذ ورجع الى زكريا وقال « ما الذي تريده »

قال « اذا أذن مولاي بخلوة قلت له ما اريد »

فاظهر تمللاً من هذا الطلب ولكنه مشى امامه الى غرفة دخلها

وجلس على وسادة وقال « ماذا تريد »

فقال زكريا وهو واقف بتأدب « لا بد ان ما أصاب سيدى دميانة قد

أثر في نفسك كثيراً .. »

فضحك بهكم وقال « لا لم يؤثر في بل اثر فيك انت فقط »

فشق هذا التهم على زكريا ولكنه تجلد وقال « لم اكن انتظر هذا

الجواب يا سيدي فان سؤالى هذا ليس ما اريد ان اقوله »

قال « قل ما تريد . . ان دميانة لم تأت ما آتته من العناد الا بسببك

ولولاك لكانت مطيعة راضية »

فأطرق زكريا وهو يعمل فكرته ويستشير نفسه في هل يجيب مرقس

بما يستحقه أم يبتقى على السكوت . واستبطاً مرقس جوابه فقال « هل عندك شيء آخر تقوله »

فقال « عندي أشياء كثيرة ولكنني لا أقولها وأنت تخاطبني بهذه اللهجة ولا انا ارى مسوغاً لهذا اللحن كان سيدي نسي حقيقة مركزي في منزله فانكر اختصاصي بخدمة دميانة واخلاصي لها »
فتذكر مرقس أن زكريا ليس من خدمته وإنما هو واقف لخدمة دميانة على الخصوص فقال « لم أنس ذلك ولكنك بالغت في اغرائها على أبيها حتى كادت تعصي كلمته »

قال « بماذا اغريتها ياسيدي ؟ .. أظنك تعني نفورها من خطيب اليوم . . اقسم لك بالسيد المسيح اني لم أؤثر على رأيها ولا غيرت شيئاً من عزمها ولكنني رأيته نافرة منه ولو استعانتني في التخلص منه فان ضميري وذمتي لا يساعداني على ردها . . . »

فقطع مرقس كلامه قائلاً « تقول بكل جسارة انك لم تغير عزمها ألم تكن راضية به يوم كنا في طاء النمل فما الذي جرى الان ؟ . . . ولكنها لن تزوج الا به رضيت ألم ترض » قال ذلك والغضب باد في عينيه فاجابه زكريا بصوت منخفض لكنه يرتجف من الغضب « اذا اصررت على ذلك ماتت كمدأ »

قال لا . . لا تموت كمدأ الا اذا ظلت على اغرائها فانك تقتلها . . دعها وشأنها دعها لا يبها فانه ولي امرها »

فادرك زكريا تلميحه فقال « انت تعلم ياسيدي اني لا اقدر أن أنخلي عنها عملاً بالوصية التي أوصيت بها يوم ولادتها وقدمضت كل هذه المدة وانت لا ترى مني مخالفة أما الآن فأنا على يقين انها تكره هذا الشاب ولو دقت لحمها ولحمه في وعاء واحد لما امتزجا وانا انما أريد الخير لها ولك . لانك اذا اصررت على إكراهها اما تقتلها أو تكرهها على أمور لا ترضيك »

فقال « لا تجسر على شيء وهل هي الا ابنتي ولا تقدر على مخالفة

ارادتي ؟ لم تجر العادة أن يترك البنات لارادتهن في الزواج يقبلن هذا ويرفض ذلك . . أم هي أعلم مني بما ينفعها أو يضرها ؟ »
 فقال زكريا بهدوء ورزانة « ولكنك تعلم أيضاً ان لدميانه مع أبيها شأناً يختلف عن شؤون سائر البنات مع والدهن »
 فوقع هذا القول في قلب مرقس كالصاعقة رغم ما اخفض زكريا من صوته ومع تلفظه في اسلوب التعبير فقال مرقس « لا اعرف لها شأناً آخر »

قال « اذا كنت لا تعرفه انت فانا اعرفه »

فوقف عند ذلك مرقس كله بهم بالخروج وقال لا يهمني ما تعرفه ولكنني انصح لك أن تخلي بيني وبين ابنتي ولا تعريها على مخالفتي »
 قال « لو كانت تخليتها في طابقي لخليتها ولكنني مؤمن على أمر تقضى على الذمة أن احافظ عليه الى آخر نسمة من حياتي »
 فقال مرقس « طيب ... افعل ما تشاء » وخرج وقد زاد عناداً ونقمة

الفصل الخامس والعشرون

المؤامرة

وسار مرقس تواء الى صديقه اسطفانوس فرآه جالساً الى المائدة وبين يديه آنية الشراب وقد تناول شيئاً منه. وتوسم في وجهه عبوساً كأنه يشرب ليذهب غضبه فلم يفقه سبب ذلك الغضب لكنه غالطه فبعد أن حياه وجلس اليه سأله عن سبب غضبه فانكر الغضب في بادىء الرأي فقال مرقس « لا تنكر على ذلك فاني اعرف السبب »

فقال « اذا كنت تعرفه فلماذا تسألني ؟ . . »

فقال « أسألك . . لاني أحب أن اعرف هل أصاب ظني . . »

فقال اسطفانوس « أنت مصيب اذا كنت تظني غضباً من تصرف

دميانة معي ولكن هل تعرف سبب هذا التصرف ؟ »

قال « اظني اعرفه . . ان سبب هذا العناد انما هو اغراء ذلك النوبي خادمها ولولاه لكانت اطوع لي من بناني . . . وقد وبخته اليوم واسمعته ما لا يرضيه »

فابتسم اسطفانوس رغم ما كان فيه من الغضب وقال « انك ظلمت زكريا بهذا الحكم . ليس هو سبب العناد .. انا اعرف السبب .. »
قال « وما هو »

قال اتذكر ليلة جاءنا ابو الحسن مساء وطب دميانة لذلك الشاب المهندس ! »

قال « اذكر ذلك ولكنتا رددناه وليس له عندنا ارب »
قا « هذا ما تقوله انت ولكن سعيداً مازال يتناول الى تلك الامنية »
وهز رأسه حقدأ عليه

فقال مرقس « بماذا يرجو ان ينالها ؟ . لا . . لا تصدق ذلك »
قال « لا اصدق ؟ وقد شاهدته يخاطبها ويدافع عنها وهي تلجأ اليه
وتتكلم عليه . . شاهدت ذلك بعيني »
قال « متى ؟ .. »

قال « يوم الاحتفال بعيد الشهيد . . » وقص عليه بعض الواقعة وغير
فيها وبدل اخفاء لحيته وسفالته

قال « ليتك قضيت عليه في تلك الساعة »

قال « لم اشأ ان ألوث يدي بدمه ولكنني سأدبر له تدبيراً يكفيننا شره ولا يحملنا وزره . . لست أنا من يرون مصادرة الاعداء بقوة البدن فان هذه المصادرة وجهاً لوجه لا تخلو من خطر على المهاجم . والعامل الحكيم من يأخذ عدوه بالحيلة والسياسة فيرديه وينتقم منه بدون ان يسأل عن شيء من ذلك - وأما الخناصة بالايدي او الارجل فهي من طباع البهائم واما يتحارب الرجال بالعقول .. وسوف يرى هذا الرجل الذي لا يعرف اباه ان اسطفانوس لا يستهان به » قال ذلك وهو يشمخ بانفه ويتصدر تصدر الفائز

ويعد أقواله حججاً دامغة . ولعل صديقه مرقس يوافقه عليها . وقد يوافقه عليها آخرون لان ظاهر المراد منها « ان يتحارب الناس بالعقول » ولكنه يخفي تحت هذا التعبير عزمه الايقاع بسعيد غدرأ وهو يعد ذلك من قبيل المحاربة العقلية وما هي الا خيانة ودناءة

فلما سمع مرقس قول اسطفانوس أظهر الاستخفاف بأمر سعيد وقال « ما لنا وله دعه وشأنه فانه أعجز من ان يصل الى دميانة طالما كنت حياً . . ولا أظنه متى صليت صلاة الاكليل وصارت دميانة زوجة لك الا قانطاً فيرجع على عقبيه خائباً »

ففكر اسطفانوس ساعة فرأى ان زواجه النهائي قد بسكت دميانة لكنه ما زال يخاف على نفسه من غضب سعيد وقد نال مثالا من شدته يوم الاحتفال فعزم في باطن سره على التخلص منه أولاً وكم ذلك عن مرقس لكنه قال « لا ريب عندي ان المبادرة الى الاكليل أحسن وسيلة لقطع السنة الحاسدين وكتب أنفاس المبغضين ولكنني أحب ان يكون ذلك برضا خطيبي . وبما ان سبب جفائها انما هو اغترارها بهذا الشاب لتقربه الآن من صاحب مصر لانه استخدمه لاستنباط المياه فاحب ان تعرف خطأها قبل اتمام الاقتران . . ان ما يرجوه هذا الشاب من وراء عمله الذي عمله لابن طولون انما هو أضغاث احلام ستظهر بعد الاحتفال بفتح تلك العين وترى ذلك عياناً »

قال « متى يكون هذا الاحتفال ؟ »

قال « بعد بضعة ايام وسأدعوكم لمشاهدة الموكب والاحتفال وتأتي دميانة أيضاً فاجلسكم في مكان مرتفع تشاهدون منه الاحتفال عن بعد وكأنه بين أيديكم . وستكون دميانة معكم طبعاً وترى مصير ذلك المغرور وهي عند ذلك ترجع الى صوابها وتذعن صاغرة ويرتاح بالها »

فاطمأن بال مرقس لهذا التدبير ولكنه لم يفهم نية اسطفانوس وتواعدا على الذهاب لمشاهدة موكب ابن طولون يوم الاحتفال فقال مرقس « ابن مجتمعنا ؟ »

قال سأسأذن صديقاً لى في الديوان ان يدخلنا قبة الهواء القائمة على سفح المقطم ويختصنا بمكان منها يشرف على كل ما هنالك من السهول ونشاهد الاحتفال كأنه بين يدينا بلا مشقة ولا تعب «
فوافق مرقس على ذلك وودعه وافتراقاً

الفصل السادس والعشرون

قبة الهواء والقطائع

قبة الهواء بناء اقامه امراء مصر على سفح المقطم في نحو محل القلعة اليوم . أول من ابتناها حاتم بن هرثمة في أواخر القرن الثاني للهجرة (١) وجعل الامراء بعده يتخذونه مصيفاً أو متنزها ولما جاء المأمون الى مصر سنة ٢١٧ هـ جلس فيها حتى اذا افضت إمارة مصر الى ابن طولون ابنتى قصره تحته وبنى القطائع وراء ذلك بينها وبين الفسطاط . وكان كثيراً ما يقيم في القبة المذكورة لأنها كانت تشرف على قصره . وكانت القبة عبارة عن عدة غرف مفروشة باحسن الرياش عليها الستور الجليلة ولها فرش لكل فصل . ولما ذهبت دولة بني طولون وخربت قصورهم كانت قبة الهواء في جملة ما خرب أما في يوم احتفال ابن طولون بجري الماء في العين فكانت تلك القبة في ابان عزاها . وفي صباح يوم الاحتفال ذهب اسطفانوس بنفسه الى دير المعلقة ودعا مرقس ودميانه لمشاهدة موكب ابن طولون من القبة فلم تبد دميانه معارضة لان ذلك بغيتها . فسارت راكبة على حمار من حمر الدير ومشى زكريا في ركابها واخذ زكريا يحدتها بامر الاحتفال ويمنيها بقرب الفرج حتى نسيت متاعها وهو اجسها وامتلا صدرها رجاء واوشكت ان تقبض على السعادة بيدها

التقى الكل عند سفح المقطم نحو الضحى فاسرع اسطفانوس بين ايديهم صاعداً حتى أتى قبة الهواء وكان قيمها واقفا بانتظاره ففتح له باباً دخل فيه

هو ورفاقه الى شرفة عليها اعمدة بينها الستور المزركشة أو المطرزة تشرف على ما تحت المقطم من الميادين أو الابنية أو غيرها. وأخذ اسطفانوس يساعد الفراش في تهيئة القاعة اللازمة لمقرس وابنته وله . على أن حديثه كان هذه المرة مختصراً ولم يتقرب من دميانة أو يتحرش بها كما عادت فظنته تأدب بالتجربة وأما هي فلم تخفه أو تنفر من رؤيته كالعادة ليس لأنها تعودته أو أخذت تميل اليه وإنما نظراً لقرب نجاتها منه بعد فوز سعيد فلم تعد تخافه . ناهيك بما كان يجول في خاطرها من الآمال الكبيرة بعد حصولها على حبيبها. على أن لهدفها لمشاهدة سعيد في ذلك الموكب بجانب ابن طولون صاحب مصر شغلها عن الاهتمام بشيء آخر

أما اسطفانوس فبعد أن استقر المقام بضيوفه اعتذر بشغل يدعو الى انصرافه على أن يعود بعد قليل فقال له مرقس « وأنا ايضاً احب الذهاب في مهمة إلى مكان قريب ثم أعود فهل تبقى دميانة وحدها؟
فقالت « اذهب يا ابني وهذا زكريا يمكث معي ولاخوف على.. لا تجعلني عثرة في طريق راحتك »

فاظهر مرقس انه ليس في خاطره شيء على زكريا وقال « حسناً . ها ابني ذاهب » والتفت الى زكريا وكان واقفاً بقرب الباب وقال له « لاحاجة بي أن أوصيك بدميانة »

فاشار زكريا مطيعاً وظل واقفاً حتى خرج مرقس ثم مشى نحو دميانة فرآها مشرقة الوجه على غير ما تعوده فيها في المدة الاخيرة فانها كانت لا تبرح منقبضة الصدر لا يحلو لها طعام ولا كلام . فوقف بين يديها وهي جالسة على مقعد ثمين يطل الجالس عليه على القطائع والفسطاط ف اشارت اليه أن يجلس وألحت تجلس على البساط بين يديها وهو يقول « قد آن الوقت الذي نتخلص فيه من هذا الغلام »

قالت « اتظن هذا اليوم آخر ايام الانتظار . ولكن كيف نجتمع

بسعيد ومتى . . آه »

قال « اني غير غافل عن شيء فقد لقيت سيدي سعيدبالامس وتواعدنا على امور سأقصها عليك »

قالت « متى يبدأ الاحتفال ؟ اني لا ارى احداً »

قال « لا يلبث ان يبدأ . . وستشاهدين عظمة ابن طولون ونخامة ملكه . . سترينه في موكبه . . انظري الى هذا البناء الذي هو أقرب سائر الابنية النا في سفح هذا الجبل . . تأمليه جيداً انه قصر ابن طولون . انه قصر فخم لم يسمع بمثله في هذه الديار الا ما خلفه الفراغنة من الهياكل . انظري الى هذا الميدان امام القصر وتأمل الجماهير المتزاحمة فيه بين راكب وماش رجالا ونساء انه الميدان يلعب فيه هو ورجاله على خيولهم ويضربون فيه بالصوالجة (الكرة والصولجان) وترين للميدان والقصر سوراً فخماً له عدة ابواب من جعلتها باب الجيش الذي ترين الجند يبابه عليهم الاسلحة . وباب آخر يقال له باب الجبل وآخر باب الخاصة وآخر باب الحرم لدخول نساء القصر أو الخدم . وهذا الباب الذي تشاهدين عليه تمثال سبعين هو باب السباع ومنه يخرج ابن طولون ويدخل^(١) واظن الموكب سيخرج منه الآن . لان هذا الباب كما ترينه مؤلف من ثلاثة ابواب يخرج الوالى من الباب الاوسط ويخرج رجاله من البابين الجانبين . وان امر هذا الوالى عجيب لعلو همته . انظري فوق هذا الباب تري مجلساً يشرف على سائر القطائع وهى الابنية التى تربتها وراء هذا القصر نحو الفسطاط . فيجلس ابن طولون في هذا المجلس في يوم عرض أو احتفال يراقب حركات رجاله وما يحتاجون اليه »

فقالت دميانة « واين يقيم المهندسون »

فضحك زكريا وقال « لا أعرف مكاناً خاصاً بهم . . ولكني اعرف

واحدا منهم فقط وأعرف اين يقيم . . هل أقول ؟ »

فقالت « لا » وبان الخجل في وجهها وغيرت الحديث فقالت « سمعتك

تذكر القطائع فما هو المراد بها ؟ »

قال «هي ياسيدي ابنية بناها ابن طولون لسكنى جنده ورجال خاصته ومتى تم لمولاي سعيد ما يريد واصبح من خاصته اعطاه قصرأ في القطيعة اللائقة بمقامه - وقد سمي هذا البلد القطائع لانه مؤلف من احياء يعرف كل منها باسم قطيعة . ويسكن كلا منها طائفة من الجند أو الرجال فللنوبة ابناء بلدي قطيعة مفردة تعرف بهم وللروم قطيعة وللفراسين قطيعة تعرف بهم ولكل صنف من الغلمان قطيعة . أما رجال الدولة كالقواد والخاصة فقد بنى لهم مواضع متفرقة أرجو أن يكون لسيدي قصر منها . وترين بين هذه القطائع الاسواق والازقة والطرق بنيت فيها المساجد والطواحين والحمامات والافران وسميت الاسواق بها فيقال سوق الجزارين والبقالين .. ولااطيل الكلام عليك ... »

فقطعت دميانة كلامه وقالت « ان بناء هذه القطائع يستغرق اموالا طائلة مع أن في الفسطاق قصوراً وأسواقاً فخمة فلماذا لم يقيم فيها . . »
قال « لم يقيم فيها لانه يخاف على نفسه من أهلها بعد أن غلبهم على مدينتهم وفيها احزاب خضعت له كرهاً فابتنى هذا البلد وهو اشبه بالحصون منه بالقصور ... اما الاموال وانفاقها فلا تسلي عنه . . ألا ترين هذا البناء الشاهق القائم في اطراف هذه القطائع ؟ تأمليه . . »

قالت « اني ارى قصرأ نخما هل هو من بناء ابن طولون أيضاً ؟ »
قال « نعم ولكنه ليس قصرأ وانما هو مارستان أتعرفين ما معنى هذه اللفظة . . ؟ »

قالت « كلا اني لم اسمعها قبل الآن »
قال « صدقت لان هذا البناء لم يسبق له مثيل في هذه الديار . هو يامولائي بيت المرضى يستشفون فيه من ادوائهم . . »
قالت « بناء لهذه الغاية ؟ »

قال « نعم وهو من حسناته في إعالة الفقراء »
فاستغربت دميانة قوله وقالت « ان تشييد هذا البناء يستغرق أموالا

طائفة وما برحنا نرى حكامنا يشكون الفقر ويحملون الرعايا الضرائب لسد عوزهم»

فقال: ان هذا المارستان ياسيدى لم بين من مال الرعية ولكن ابن طولون ظفر بكنز في هذه الصحراء فيه الف الف دينار بنى منها هذا المارستان شكراً لله . . على أن فضله ليس بالبناء وإنما هو تعهده اياه بالاصلاح والترتيب والدقة في المعالجة . فأقام فيه الاطباء وشرط أنه اذا جيء بالعليل تنزع ثيابه وتحفظ عند امين المارستان ثم يلبس ثياباً ويفرش له ويغدى عليه ويراح بالادوية والاعذية والاطباء حتى يبرأ . وكان ابن طولون يذهب بنفسه في كل جمعة يتفقد خزائن المارستان وما فيها من الاطباء وينظر الى المرضى وسائر الاعلاء والمحبوسين من المجانين ويعرض نفسه لخطر جنونهم وكثيراً ما تعرضوا له بالاذى حتى عدل عن الذهاب^(١)

الفصل السابع والعشرون

الموكب

وكانت دميانة تسمع ما يقوله زكريا وعيناها شائعتان الى ميدان القصر لعلها ترى الموكب يتأهب للخروج أو عساها ترى سعيداً واقفاً أو ماشياً فلم تره . ولكنها رأت الاعلام تخفق والرجال يجتمعون وفيهم الفرسان والمشاة على اختلاف الاجناس . وهما في ذلك سمعا قرع الطبول فصاح زكريا « هذا الموكب يرتب » وأشار اليها أن تنظر الى باب السباع . فرأت الناس يتزاحمون عنده والحرس يطردهم لتتفرغ الابواب لخروج ابن طولون وموكبه ونظرت دميانة الى ما حولها فرأت الناس في الطرق وعلى اسطحة المنازل يتزاحمون لمشاهدة ذلك الموكب . أما هي فلم يكن يهمها من ذلك كله الا أن ترى حبيبها راكباً بجانب ابن طولون ليفرح قلبها فاثبتت نظرها

(١) المقرئى ج ١

بالباب وبعد برهة سمعت أصوات الطبول والابواق تقترب حتى خرج اصحابها من باب السباع مشاة والناس يوسعون لهم الطريق . ثم أطلت أعلام ابن طولون وخرجت من البابين الجانبين يحماها رجال بألبسة خاصة . وظلت هي تحدد يبصرها في الباب الاوسط الذي تنتظر أن يخرج ابن طولون منه ثم رأت طائفة من الغلمان يخرجون من البابين الجانبين صفوفاً وعليهم انحر ما يكون من اللباس والعدة وفيهم جمال باهر وقامات طويلة وبأس شديد وعليهم اقبية ومناطق ثقيل عراض وبأيديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقعمة من فضة ولهم هيئة عظيمة . وكان زكريا يراقب ما يبدو من دميانه عند مشاهدة هؤلاء فلما رأى دهشها قال لها «أعرفين هؤلاء؟» قالت «كنت عازمة على أن أسألك . . ولكنني خفت أن أهو بسباع جوابك عن ممر الوالي »

قال « لا تخافي لم يثن خروجه بعد . واذا خرج فانه بين ايدينا . ان هؤلاء الغلمان كانوا لابن المدبر صاحب خراج مصر قبل مجيء ابن طولون ولهم حكاية لطيفة تدل على علو همة هذا الرجل . وذلك ان ابن طولون لما تولى ولاية مصر وجاء لاستلامها كان ابن المدبر صاحب الخراج عليها كما هو المادرائي الآن . . . ولكن ابن المدبر كان شديداً على الناس وفيه دهاء فأحب ان يكتسب ثقة ابن طولون أو يبتاع سكوته عن اعماله فلما علم بقدمه خرج للقائه . ثم بعث اليه هدايا قيمتها عشرة آلاف دينار فردها وكان قد شاهد هؤلاء الغلمان في خدمة ابن المدبر فطلب اليه أن يعوضه من الدنانير هؤلاء الغلمان فلم يسعه الا الطاعة فسلمهم اليه وأصبح من ذلك اليوم يخافه »

وكانت دميانه تسمع حديث زكريا وعيناها شاخصتان نحو الباب الاوسط واذا بالغلمان يتنافرون منه ثم أطل ابن طولون على فرسه وعليه لباس الامارة وقد تجلت الهيبة في حياها وبان التعقل في حركاته وهو مع ذلك يلتفت الى الناس ويتسمم وهم يتراكضون للتبرك بطلعته ولاسيما العامة وأهل الاسواق الذين يندر ان يشاهدوه

خرج ابن طولون من الباب وحده فاختلج قلب دميانة تطلعا الى من يكون بعده واذا بفارس صغير السن وعايه لباس فاخر وفي وجهه جمال باهر تتجلى عليه دلائل الصحة والقوة تحته فرس من حياض الخيل وفي ركابه غلامان عليهما ألبسة حمراء مزركشة قد شمرا سراويلهما عن سوقهما . وكانت دميانة تتوقع ان ترى سعيداً وراء ابن طولون فرأت هذا الفارس ولم تعرفه فسألت زكريا عنه فقال « هذا خمارويه بن احمد وهو احسن أبنائه وأعزهم اليه ولا يفرنك صغره فانه شديد البأس ولوع بالصيد ولا سيما صيد السباع . ولا يسمع بسبع الا خرج اليه ومعه رجال عليهم لبود فيدخلون الى الاسد ويتناولونه بأيديهم من غابه عنوة وهو سليم فيضعونه في اقفاص من خشب محكمة الصنع يسع الواحد منها السبع وهو قائم فاذا قدم خمارويه من الصيد سار الى الففص وفيه السبع بين يديه . وقد جمع في قصره عدة من السباع »^(١)

ولما باغ زكريا الى هنا لحظ ان دميانة لا تعيره التفاتها لان عينها شائعتان نحو الباب . ولا تسلم عن لطفها لما رأت سعيداً مقبلاً على فرس تعودت ان تراه مقبلاً عليه في طاء النمل وقد جاء بعد خمارويه بنحو مئتي ذراع فلم تمالك ان قالت « سعيد ! هذا هو سعيد . . » ثم انتبهت لنفسها والتفتت الى ما حولها فلم تجد أحداً غير زكريا فاطمأن خاطرها فقال لها زكريا « هذا هو سيدي البطل . . »

فقالت وعيناها تلمعان والفرح يطفح من قلبها « زكريا .. هل تجد بين هؤلاء الفرسان أجمل من سعيد أو أقرب منه الى القلب ؟ » ثم ندمت على هذه الحفة وتشاغات بالمشاهدة وتتبعت مسير الموكب نحو المغافر حيث بنيت العين . ولحظت بعد خروج الموكب من الميدان ومسيره في الصحراء ان ابن طولون أشار الى سعيد فاسرع اليه حتى حاذاه وأخذنا يتحدثان فكاد قلبها يطير من الفرح وأحسنت كأنها قبضت على السعادة بيدها

وكان زكريا يراقب ما يبدو منها ويفرح لفرحها وقلبه ينعطف اليها

ويتمنى لها السعادة ولو بذل نفسه في سبيل ذلك . فلما رأى فرحها شاركها فيه ولكنه لم يكن ممن يستسلمون لظواهر الامور وقد علمته الايام أن لا يفرح بالآمال الا بعد تحققها ولكنه ساير دميانه ووجه التفاته الى مسير الموكب نحو العين

ولم تكن دميانه ترى من ذلك الجمع غير سعيد تراعي حركاته وسكناته وتحسب الذين حوله اشباحاً لا أجسام لها . ولما تباعد الموكب عنها وقفت ووقف زكريا وأخذاً يتطاولان لمشاهدة مسير القوم فقالت دميانه « الى أين هم سائرون ؟ اني اراهم بعدوا كثيراً »

قال « الى العين يا سيدتي »

قالت « أين هي ؟ اني لا أراها ولا اعرف محلها »

قال « ألا ترين المغافر هناك ؟ »

قالت « أراها لكنني لا اتبناها لبهرجة أشعة الشمس على صخورها »

فتطاول بعنقه وتفرس في المكان وقال « ألا ترين تلك البقعة المرصفة بشكل مربع ان الاشعة تتلاعب عليها وتنعكس عنها »

قالت « نعم أرى البقعة وحوها الجماهير من الناس وقوف »

قال « هؤلاء جماهير العامة ينتظرون وصول الموكب ليروا الماء يجري ويفرحوا به أو للتفرج بمشاهدة الموكب وما معه من الاعلام او سماع الطبول والابواق »

الفصل الثامن والعشرون

الانقلاب

وكان الموكب في أثناء ذلك قد اقترب من المغافر حتى اذا دنا من المصطبة حول العين تراجع الناس وتقدم ابن طولون وحده وترجل عند ذلك سعيد ومشى بين يديه يريه هندسة البناء وكيف يجري فيه الماء . فشاعت

عينا دميانة لرؤيته وتعب بصرها من التحديق في اشعة الشمس . ولكنها كانت ترى ابن طولون يجول بفرسه على المسطبة وسعيد يظهر ويختفي وراء فرس ابن طولون

وهي في ذلك رأت ابن طولون هوى بجواده وسقط الى الارض فسقط قلبها معه وصاحت باعلى صوتها بغير انتباه « باسم المسيح . باسم العذراء » وخافت أن يقع الجواد على سعيد فيؤذيه على انها ما لبثت أن رأت ابن طولون نهض وقد وقعت قلسوته وتعفرت اثوابه . واذا هو أوماً الى الجند فتسارعوا الى سعيد وقبضوا عليه وشقوا ثيابه . وتناول أحدهم سوطاً وأخذ يضربه ضرباً متوالياً . فاحست دميانة كأن الضرب واقع على رأسها فلم تتمالك أن وقفت فجأة ولطمت وجهها بكفيها وهي تقول « ويلاه ماذا يفعلون . . يضربون سعيداً..؟ آه ويلاه » وأخذت فرائصها ترتعد ونسيت موقفها وتحقق زكريا انهم يضربون سعيداً ولا فائدة من التكذيب فاخذ يخفف عنها ويغالطها وهي تقول « اني اراهم يضربونه واشعر كأن ذلك الضرب واقع على قلبي .. ويل لهم لماذا يضربونه.. أهذا جزاء المهارة .. » فامسك زكريا بيدها وأجلسها وقال « تمهلي ياسيدي ريثما نرى الحقيقة ولا بد لذلك من سبب كوني عاقلة صبورة مثل عهدي بك . . اصبري »

ولما فرغوا من ضربه رأتهم يشدون وثاقه ثم ساقوه الى المطبخ وهي تنظر وقد جمد الدم في عروقها . على أنها لما رآته حياً يمشي هدأ روعها وكانت تخاف أن يموت من الضرب وتقدم زكريا اليها ان تصبر ريثما يبحث عن سبب هذه المعاملة . وأكد لها انه طالما كان حياً فالامل بانقاذه وطيد ثم استأذنها في الذهاب للبحث عن السبب فقالت « اذهب . . . نعم اذهب »

ثم تراجعت وقالت « لا . لا ابقى هنا وحدي فيأتي ذلك النذل . . لا .. خذني معك .. ارجعني الى الدير .. انه ابقى لي من سائر المساكن » قالت ذلك وشرقت بدموعها

فاحس زكريا كأن سهما اخترق أحشاءه ولكنه تظاهر بالاطمئنان وقال لها « لا ينبغي ان يغلب عليك اليأس الى هذا الحد . » وهو يقول ذلك وهم بفتح الباب للخروج بدميانه سماع وقع خطوات تقترب نحو ذلك الباب فاضطربت دميانه عند سماعها لعلمها انها خطوات اسطفانوس واجفلت ونحولت وهي تود أن تلتقي نفسها من نافذة تلك الغرفة ولانواجه اسطفانوس لكنها تجددت ووقفت جامدة كالصنم وهي تظهر انها تنظر الى السماء . وكان زكريا قد فتح الباب فدخل اسطفانوس وعلى وجهه دلائل السرعة والبغته لكن البشر كان يتجلى فوقها رغم ما حاول اظهاره من الاسف أو الاستغراب واحست دميانه عند رؤيته كأنك طعنها في صدرها وقرأت الشهامة والانتقام في عينيه وحول شفقيه فحولت وجهها نحو النافذة واسندت رأسها على احدى الاساطين وجعلت تملتي دموعها بمنديلها وتكتم البكاء

الفصل التاسع والعشرون

الشهامة

أما زكريا فاستقبل اسطفانوس بالتحية يريد أن يطلع منه على شيء جديد لعله يعلم أسباب مشاهدته من الغرائب. فتقدم اسطفانوس الى دميانه وهو يظهر التلطف ودار حتى يقابلها وجهاً لوجه فلما رآها تبكى أظهر استغرابه وقال ما بال دميانه تبكى ؟ خيرا إن شاء الله . . هل تشعرين بألم ؟ هل تشكين من شيء ! . قولي فاني طوع امرك ومهما اردت من علاج أو ملطف فانه يحمل اليك .. »

فلم تردد بهذا التلطف الا بكاء وحرقة لانها عدته نكايه وتشفياً . فظلت ساكته فتحول اسطفانوس نحو زكريا وقال « ما بالها ؟ قل لي

يا زكريا لان امرها يهني كما تعلم . . . اين المعلم مرقس . . . ما هو سبب بكائها ؟ »

قال زكريا « لا أعلم السبب . . . وانما أعلم اننا ونحن نشاهد الموكب وجمهير الناس رأيتها أطلقت دموعها وسالتها عن السبب فلم تجبني . . . وكنا عازمين على الذهاب الى الدير لترتاح لعلها تعبت من طول الجلوس . . . »
فالتفت اليها وهو يحك عشونه وقال « اخشى أن تكوني شاهدت ما اساب جارك المسكين فتكدرت عملا بحق الجوار . . . »

فلما سمعت دميانة عبارته المملوءة بالشهامة واللؤم همت بانتهاره وتوبيخه ولكن رغبتها في الاطلاع على السبب حملتها على السكوت فنظارت انها لم تسمع شيئاً فقال زكريا « أي مسكين تعني يا سيدي ؟ »
قال « أعني جارك سعيداً المهندس . . . ألم تشاهدوا ما فعلوا به »
قال « ما ذا فعلوا »

فضحك وهو يختلس النظر الى دميانة يراعي ما يبدو منها وهي تتشاغل بمسح دموعها واصلاح ثيابها فقال « بعد ان كان الوالى عازماً على مكافأته بالجوائز والهبات أمر بجلده خمسمائة سوط وساقوه الى المطبق مقيداً بالاغلال »

فاظهر زكريا انه لم ير شيئاً من ذلك وقال « ولماذا ؟ . ما هو سبب هذا الغضب »

قال السبب أنهم اكتشفوا على مكيدة دبرها لقتل ابن طولون . . . »
قال زكريا « مكيدة ! وأي مكيدة ؟ »

قال « بينما كان ابن طولون راكباً لمشاهدة بناء العين وصل جواده الى مكان يوم الناظر انه مرصف فاقبل اليه ووقف عليه فاذا هو قصرية جير فرطوبة الحير غاصت يد الفرس فيه فكبا وسقط راكبه في الحير فعلموا انه تعمد ذلك ليقتل ابن طولون فأمر به فشقوا ثيابه وضربوه خمسمائة سوط ثم ساقوه مغلولاً الى المطبق ولا ندري ما يكون من امره في القيد »

فلما سمعت قوله بما فيه من لحن الشهامة لم تتالك عن ان نظرت الى

اسطفانوس وقالت « ان سعيداً لا يرتكب مثل هذه الخيانة ولا بد في الامر من خطأ »

فهر اسطفانوس كتفه نحو العلو وقال « خطأ لا أعلم وانما أعلم ان ذلك المسكين السيء الحظ قد ضرب ٥٠٠ سوط وسيق الى المطبخ وأصبح الامل بحياته ضعيفاً . . . بالحقيقة ان حالته تدمي القلب . . . واذا كنت تبكين لحاله فلا ألومك . . . مسكين . . . » قال ذلك وهو يهز رأسه ويظهر الاسف

ولما علمت دميانة انه يتعمد الحظ من قدر سعيد ويوهما انه مسكين حزين تحول حزنها عليه الى تحمس له وهمت بانكار ذلك عليه فقالت « لا أراه في حاجة الى هذا التأسف فانه لا يلبث ان تظهر براءته فيعود الى الحظوى عند صاحب مصر . ولم يفعل ابن طولون ما فعله الا لفضبه الموقت »

قالت ذلك وهي ترتعد ولم تعد تستطيع صبراً على الوقوف لسماع ذلك الحديث فتحوط نحو الباب وتحول زكريا معها فقال اسطفانوس « هل أذهب لا يصالك الى الدير؟ ألا ترين الافضل ان تأتي معي الى منزلي وهو اقرب من الدير؟ »

فلم تجبه وظلت ماشية ومشى زكريا في اثرها واسطفانوس يتبعها ويقول أظن دميانة تستطيل الطريق الى بيتنا وان كان قصيراً . ولكنني ارجو ان يقصر في عينها وذلك خير لها من ان يكون طويلاً فتتعب في سلوكه اذ لا بد لها من الذهاب اليه » قال ذلك وضحك استخفافاً بفضبها ونفورها . فادركت انه يشير الى قرب زواجه بها فظلت ساكنة وهي تمشي وزكريا معها حتى خرجت من قبة الهواء فلقيت أباهاً عائداً فلما رآها تبكي علم سبب بكاءها فاستوقفها فوقفت فسهلت عاينه وهي تتظاهر بصداع في رأسها وانها تحتاج الى الراحة فقال « لا بأس عليك . . تعالي نزل في بيت المعلم حنا انه أقرب من دير المعلقة . . »

فقال زكريا « يظهر انها ترتاح في ذلك الدير لاستئناسها بالراهبات »

فوافقها مرقس فانصرفا ودخل هو لملاقاة اسطفانوس فقص عليه ما دره .
ودسه وان قصرية الحير انما وضعت هناك بمساعيه حتى وصل الى هذه النتيجة
بالقبض على مناظره وزجه في السجن . فهناه مرقس بالفوز وأخذاً يفكران
في تعيين وقت الاكليل لان دميانة لا بد من رجوعها الى رأي أبيها بعد أن
يئست من سعيد

الفصل الثلاثون

الصلاة

وصلت دميانة الى الدير وسارت الى غرفتها لتبديل ثيابها ومكث زكريا
ينتظر خروجها ليخفف عنها ويتواطأ معها على وسيلة للنجاة من الفخ .
فما لبث أن رآها خرجت وسارت تواء الى الكنيسة - مشت الى الصلاة
ماجاً الحزاني وتعزية المتكويين . اذا لم يكن في الصلاة غير هذه التعزية
لكفى بها متسعاً لآمال المؤمنين في ساعة ضيقه وحزنه . وقد صدق
جمال الدين الافغاني اذ قال « ان الذين يسلبون العامة ايمانهم انما يجرمونهم
من أكبر أسباب سعادتهم »

دخلت دميانة الكنيسة وجثت امام ايقونة العذراء وقلها يتلوع حرقه
مما قاسته في ذلك اليوم من النوائب . وأخذت تصلي بايمان وثيق وتتضرع
إلى صاحبة الايقونة أن تأخذ يدها وتنجيها من الحبائل التي نصبوها لها .
كانت تصلي ودموعها تتساقط على خديها فقرعت صدرها وتوسلت الى الله
أن يحمي حبيبها وينقذه من مكائد الدسائين . وطلبت ان يلهم أباه الصواب
لعله يعدل عن اكرامها على التزوج باسطفانوس الى أن قالت « اللهم اني
ضعيفة وهم اقوياء . . اللهم ألهمني ما فيه مرضاتك . . . اني لا احب
اسطفانوس . . . فهل في ذلك معصية ؟ اذا كنت تراني مخطئة حبيبه الى
وارني خطيئي . ان سعيداً رجل صالح فان كنت مخطئة أرنيه كما هو . . .

أبعده عن قلبي . . » وكانت تقول ذلك بحرارة وهي تشرق بدموعها وليس في الكنيسة أحد يسمعها

وسكنت هنيئة وهي تتفحص ضميرها ثم قالت « ربي والهي أني لا ازال أرى سعيداً هو النصيب الذي اعدته لي . فان كان الامر كذلك انقذه مما وقع فيه . . اللهم كما انقذت مختاريك . . غير قلب ابن طولون حتى ينصفه . . اتوسل اليك بدم ابنك الوحيد الذي تجسدمن اجلنا . . اني فتاة مسكينة مظلومة مقصوفة الجناحين . . خذ بيدي . . ألهمني ماذا أعمل . . كيف انصرف . انز طريقني اني لا أريد معصيتك ولا ابتغي الارضاك . . » وسكنت وتشاغلتمسح دموعها

ثم أحست بارتياح عظيم كأنها تنفأ في داخلها يقول لها « لا تخافي يا دميانة ان الله لا يتركك » فهضت ومسحت دموعها ونحوحت عن الايقونة تطلب الخروج من الكنيسة فرأت زكريا واقفاً بالباب وقد أطرق وبان الحزن في وجهه فلما وقع نظرها عليه ابتسمت وأشرق محياها وقد اطمان بالها وذهبت أحزانها

فادرك زكريا ان ذلك كله من ثمار الصلاة فتقدم اليها وهو يبتسم وقال لها « اتكلي على الله ياسيدي وهو نصير المظلومين » فمشت وهي تقول « وعلى من اتكل اذاً ؟ انه لا يتركني ولا يتخلى عني » ثم سايرها زكريا في طريقها وهو يقول لها « أتريدن ان تصغي الى كلمة أقولها لك على انفراد ؟ »

قالت « نعم » ومشت الى غرفتها وكان اهل الدير شعروا بوجود تخايتها فلم تعرض لها واحدة من الراهبات ولا الرئيسة . فلما وصات غرفتها ادخلت زكريا وقالت « ماذا تريد »

قال « لا اريد شيئاً لا تعلمينه . . هل لك ثقة بي ؟ »

قالت « كيف لا . . وهل لي احد سواك يا زكريا ؟ أنت في مقام الوالد والوالدة والاخ والاخت . . ان ما اشاهده من حنوك ومحبتك لي في هذا الضيق شاهد صريح على ان الله لم يتخذ عني . . قل ما تشاء »

قال « ان اباك لا يلبث ان يأتي واظنه سيستعجل الزواج فاذا أظهرت له النفور والمقاومة . . . »

فقطعت كلامه قائلة « وهل تريد أن اطاعه »

قال « كلا . ليس هذا ما أريده ولكنني اريد أن لاتصديه بعنف وانما خذيه باللين فاذا اطاعك والا اسكتي وعلي تدير الباقي »
قالت « سأفعل ذلك طاقتي »

وهم أن يتكلم وأمسك نفسه كأنه تذكر شيئاً يمنع التصريح بما في ضميره . وكانت هي تراعي حركاته فادركت تردده فاشتقت الى الاطلاع على ما خطر له فقالت « ما بالك توقفت عن الكلام ؟ »

قال « لم اتوقف . . ولكن لكل أمر وقتاً »

قالت « لاصبر لي على الانتظار اخبرني عما خطر لك اعلمه يخفف عني »

قال « نعم .. اني لم اطلب اليك السكوت والمأطلة الا ريثما يصلنا النصير »

قالت « وأي نصير . من ينصرنا على هؤلاء ؟ »

قال « ينصرنا عليهم أبونا البطيريك . . أليس كذلك ؟ »

ففرحت بهذه الفكرة وقالت « وانى لنا الوصول اليه وهو بعيد ؟ »

قال « لانعدم رسولا اليه وقد فعلت ولم آخذ الجواب . . . وسأخذه

فريباً . . . والمراد أنه لا ينبغي لك أن تياسى »

فاشرق وجهها واطمأن بالها وقالت « سأفعل بما أشرت »

قال « هل تطيعيني بكل ما اقوله وتذهبين معي الى حيث اريد ؟ »

قالت « نعم »

وهما في ذلك سمعا وقع اقدام عرفت دميانه أنها أقدام والدها وتأكدت ذلك من صوت نمنحته فاجفلت فتركها زكريا في الغرفة وحدها وانصرف وهو يشجعها ويخفف عنها

الفصل الحادي والثلاثون

الاكليل

أما هي فجلست تنتظر وصول والدها فطال انتظارها ولم تعد تسمع صوته فهمت بالنهوض وإذا هي بالريسة قادمة نحوها فوقفت لها وحيثها فقالت الريسة « ان المعلم مرقس وسيدنا الاسقف اتيا وسألاني عنك . . هنيئاً لك ما اكبر حظك من سيدنا فانه يحبك ويرعاك »

ولما سمعت ذلك احست بقشعريرة ارتعدت لها فرائصها وظهرت البغته في وجهها وحدثتها نفسها ان ترفض المقابلة ولكنها تذكرت نصيحة زكريا فسكتت ولم تجب فعادت الريسة الى الكلام قائلة « أراك لم تعجبك بشارتي كانك لا تريد ان تقابلي أحداً منهما واستميتك عذراً في كلمة أقولها هل تأذنين لي ؟ »

قالت « قولي »

قالت « لحظت أمراً فيك لم يعجبني لعلمي انك فتاة عاقلة تقيّة قد تفهمت كتاب الله وعرفت واجبات المسيحيين »

فاستغربت دميانة ما تسمعه منها ولم تفهم مرادها فقالت « ارشديني يا أماء الى الصواب »

قالت « الصواب يا دميانة ان لا تنفضي اباك لان الله يوصينا باكرام الوالدين »

فوقع قولها في نفسها وقوع النبل في الصدر لانها كانت كثيرة التقوى فأثر توبيخ الريسة فيها ثم تذكرت صلاتها في ذلك اليوم واقتناعها ان الله لا يريد أن تسلم نفسها لابيها فقالت « اني لم أغضب والدي وبماذا أغضبتة ؟ »

قالت « قد علمت ذلك من قرائن الاحوال . . علمت أن والدك يريد زواجك باحد ابناء الخاصة وانت ترفضين »

قالت « أمحسين الفتاة التي ترفض الزواج عاصية ؟ »
فادركت الرئيسة انها تشير الى الرهينة فقالت « الا اذا كانت تريد ان
تذرع العفة وتنقطع عن العالم »
قالت « وما ادراك اني لانوي ذلك .. لا يبعد ان انويه عن قريب »
ثم تذكرت قول زكريا فاستدركت وقالت « ومع ذلك ان هذه الامور لا
تكون الا باهام من الله والسيد المسيح فاذا اراد الله امرأ لامفر من
ارادته »

فتمت الرئيسة من كلامها اللين فاكبت عليها وقبلتها وهي تقول
« بارك الله فيك هذا عهدي بتقواك وطيب عنصرك .. فالآن قد أنى والدك
ومعه سيدنا الاسقف وهما في انتظارك بغرفتي . . قومي معي . قبل يدي
الاسقف ويد والدك . . قومي »

قالت ذلك وأمسكتها بيدها فاطاعتها ومشت والرئيسة تحسب نفسها
قد اقنعتها

فلما دخلت عليها تقدمت تواء الى يد الاسقف وقبلتها ثم قبلت يد
والدها وقبلها مرقس وقد اطمان خاطره ورحب بها وبالغ في اكرامها
ودعاها الى جانبه وقال « اقعدني هنا يادميانة يا ولدي »

فعمدت على الطنفسة بجانبه وهي مطرقة وقد صنع الحياء وجهها فضلا
عن احمرار عينيها من البكاء ولذلك كانت تحجبها بالاطراق . ولما جلست
خاطبها الاسقف قائلاً « لقد سرني يا ولدي ما عقدتم النية عليه . . وفي
صباح الغد نأتي ان شاء الله لعقد الاكليل »

فاجفلت دميانة لهذه المفاجأة ولم تكن تتوقع ان تسمع هذه العبارة حالا
فبالغت في الاطراق وبان فيها الحياء ولم تحب فاستأف الاسقف الكلام
قائلاً « اني تعودت هذا السكوت في العرائس فانهم لا يجين على كلامنا
بغيره . على اني لم اكن اتوقع منك غير الايجاب ولو بالسكوت فان من كانت
في مثل ما انت فيه من التقوى وحسن التربية لا تستشار في امر يريد
والدها ويتوسط به رئيس كنيسة . ولكنني اجل قدرك واحب ان تكوني

مسرورة من النصب الذي اخترناه لك . . . ويكفي أن تظهرى رضاك
بالسكوت »

وكانت دميانة تسمع كلامه وهي تكاد تتميز من الغيظ وأرادت أن
تستهمل الاكليل كما أشار عليها زكريا فلم تجسر على التكلم حياء وخوفا
وحدثتها نفسها أن ترفض بناتاً وتكاشف أباهاً بذلك صريحاً فغلب عليها
الخوف والحياء لانه لم يكن يشجعها على مثل ذلك من قبل ورأت من قرائن
الاحوال ان كلامها لا يفيد شيئاً فتماسكت وظلت ساكته فآخذ والدها
سكوتها دليلاً على القبول واعتقد قبولها لما علمه من مصير سعيد فتوهم انها لما
قطعت الامل منه رضيت باسطة انوس فقال مخاطباً الاسقف « لم أكن أشك
بطاعة دميانة لو الدها ولحضرة الاسقف ولكن بعض الناس كان يزين لها
الباطل والظاهر انها رجعت الى الصواب . . . وكل ذلك من تدبير العناية »
فقال الاسقف « ربما كانت دميانة تفضل أن تقام الافراح في بيت
والدها ولكنها ستقام هناك ايضاً وانما اردنا عقد الاكليل هنا في هذه
الكنيسة لما لها من الكرامة الخصوصية واحب أن اتولى عقد ذلك بنفسى
اكراماً لمقام العريس . فغداً ان شاء الله نأى وأرجو ان يكون عملنا مباركا »
قال ذلك ووقف فوق مرقس احتفاء به ووقفت دميانة فقال لها أبوها
قبلي يد الاسقف واشكره على تعبه وعنايته في هذا الامر »

فقبات يده فقبل رأسها وخرج وخرجت الرئيسة لوداعه مع مرقس
ثم عادت وهي تضحك ضحك الفوز بما كانت تتمناه وضمت دميانة الى صدرها
وقالت « يظهر ان كلامى اثمر فيك »

وكان والدها قد رجع من وداع الاسقف فقال لدميانة « بورك فيك
يابنية . . . ذلك كان عهدي بك من أول الامر فانا الآن ذاهب لاعداد ما
يلزم للاحتفال وفي صباح الغد أعود اليك ونفرح معاً » قال ذلك وخرج

الفصل الثاني والثلاثون

أبن دميانة

فلما خلت بنفسها أخذت تفكر بما سمعته وكانت تتوقع أن ترى
زكريا بين يديها لتقص عليه ما جرى فلم تجده فقضت بقية ذلك اليوم في
انتظاره

أما مرقس فانه سار تواء الى اسطفانوس وأخبره بقبول دميانة.. فاعتقد
انها لم تقبل به إلا بعد يأسها من سعيد فعزم على الانتقام منها لاستخفافها
به وهو يرى ذلك هيناً بعد أن تصبح في عصمته ولم يكن يثنيه عن آتيانه
مروءة أو أريحية فان هذه السجايا لا معنى لها في اعتباره لكنه اشترك
مع مرقس في اعداد معدات الفرحة من الشموع والزهور وغيرها وارسلوها
الى الدير

وأخذت رئيسة الدير في هيئة ما يلزم لتزيين العروس في الصباح
وبات أهل الدير على أن يصبحوا في اليوم التالي لحضور الاكليل وسماع
الترايم

وكان اكثرهن رغبة في ذلك الرئيسة لانها كانت تحب دميانة وتعتبر
نفسها بمنزلة والدتها وخصوصاً بعد أن نصحتها تلك النصيحة وتصورت انها
أصغت لقولها وعدت ذلك احتراماً لها . فلما طلع النهار مشت الى غرفة
دميانة لتدعوها الى الاستعداد وتريها ما حملوه اليها من مواد الزينة فرأت
باب الغرفة لا يزال مغلقاً فقرعته فلم يجب أحد فظنها لا تزال نائمة
فرجعت وفكرت في هل تتركها حتى تستيقظ من نفسها ثم رأت
الوقت لا يأذن بذلك . فعادت وقرعت الباب ثانية فلم تسمع جواباً
فوقفت تفكر واذا بالمعلم مرقس قادم فسألها عن دميانة فقالت « لا
تزال نائمة »

فتقدم الى الباب وفتحه ودخل فدخات الرئيسة معه فلم يجدا في الغرفة

أحداً ولم يجدوا في الفراش ما يدل انها نامت فيه تلك الليلة فقال مرقس
« يظهر انها لم تم هنا . . فلعلها نامت في غرفة اخرى »

فقالت الرئيسة « هذه غرفتها تمام فيها منذ آنسنا وربما غيرتها الليلة »
قالت ذلك ومشت الى غرفة اخرى كانت تجلس فيها في بعض النهار فلم
تجدها. فأخذت تسأل عنها الراهبات وهن يفتشن معها حتى ضج اهل الدير
وهم يفتشون ويسألون فلم يقفوا لها على أثر وسألوا الخدم عن زكريا فقالوا
اهم لم يروه من مساء الامس فاستقدموا البواب وسألوه فقال « ان السيدة
دميانة خرجت في مساء الامس الى كنيسة أبي سرجة لان عليها نذراً لها
قد آن وفاؤه - خرجت ومعها خادمها »

فصدقت الرئيسة ذلك لسلامة نيتها وظنت النذر يتعلق بزواجها ولم
تبق فرصة لتأجيل وفائه . أما مرقس فلما سمع ذلك رجع الى الغرفة
وفتش في ثياب ابنته وأشياؤها فرآها قد أخذت ما خض حمله وتركت ما
تستغني عنه فقال « انها قد هربت مع ذلك النوبي اللعين انه عاد فأغراها
على الفرار . . ولكن الى أين يفران ان القسطنطين وبابلون والقطائع في
قبضة اسطفانوس وايه »

فقالت الرئيسة « لا تتعجل يا سيدي لعلها ذهبت الى كنيسة ابي سرجة
حقيقة ان الكنيسة على مسافة قصيرة من هنا »

قال « اسألني اذا شئت . . ولكنني على يقين من فرارها . . واذا
كانت ذهبت لزيارة ووفاء نذر فهل تأخذ معها ثيابها ومصاعها وهل تبنت
هناك وتبقى حتى الآن وقد دخلنا في الضحى ؟ . ان ذلك النوبي اللعين
اغراها على الفرار . . ولكن . . » قال ذلك وهو يهز رأسه ويتوعد وخرج
تواً يلتمس اسطفانوس فالتقيا بالبواب وكان قادماً للاشتراك في معدات العرس
فقص عليه ما جرى وختم قوله بالنقمة على زكريا لانه اغراها . فأجاب
اسطفانوس « لا نحمل الذنب لذلك النوبي . . انها ما زالت كما اعدها .
ولكنني سأعلم من هو اسطفانوس وسأعلم خادمها الاسود أيضاً - دعني
أذهب لتدبير ذلك . . » وخرج

وخرج مرقس معه فساروا نواً الى القطائع واشتكيالى صاحب الشرطة ان خادماً سرق ابنة المعلم اسطفانوس وفر بها وطلبها من يفتش عنها في الديور أو المنازل أو الكنائس . ونظراً لمقام حنا والد اسطفانوس في الدولة أجاب صاحب الشرطة طلبه فبت الرجال في انحاء الفسطاط ولاسيما في أحياء النصارى لاعتقادهم ان الفارين لا يجدان ملجأ في غير الديور أو الكنائس أو بعض مساكن القبط من الاهل أو الاصدقاء

فاصبح الاقباط في ذلك اليوم وهم يرون الجند وغير الجند يدخلون منازلهم للتفتيش عن الهاربين واكثرهم يتخذون تلك الحججة ذريعة لدخول المنازل أو الكنائس أو الديور وينهبون ما تصل اليه ايديهم من المال أو غيره . فضج الناس وعلا الصياح وأخذ القوم يتساءلون هل عاد زمن الظلم والاضطهاد زمن النهب والقتل وكانوا يحسبون ابن طولون كفاهم مؤونة ذلك ونشر الراحة والطمانينة في ربوعهم وأمنهم على أرواحهم واموالهم ولم يقنعهم ما كان يقوله الشرطة من أنهم يفتشون عن سارق هرب واختبأ فانهم كثيراً ما كانوا يقاسون الاضطهاد والنهب بهذه الحججة

وكان مرقس واسطفانوس يرافقان الشرطة الى بعض الاماكن القريبة التي يرجحان التجاء دميانة اليها ويحرضان الجند على التفتيش وهؤلاء لا يبالون بغير النهب فقاسى الاقباط في الفسطاط وبابلون وضواحيها من العذاب والاضطهاد والخوف مالم يقاسوه منذ عهد بعيد . فوقع الرعب في قلوب الناس وركب بعض وجوههم الى ابن طولون يشكون اليه ما اصابهم ففضب وبعث الى صاحب الشرطة ان يرجع رجاله عن التعدي ففعل ولكن بعد ان نالوا ما يريدون ولم يقفوا للهاربين على أثر

الفصل الثالث و الثلاثون

حلوان

أما دميانة فكانت قد فرت مع زكريا إلى مكان اعده لها في أثناء غيابها عنها في أصيل الامس . وذلك أنه لما رأى والدها والاسقف قد أخذوا في مخاطبتها علم انهما أتيا لأتمام أمر الاكليل فسار الى صديق له من أهل بلده كان قد اعتنق الاسلام وأقام بجوار المسجد الذي كان قد بناه ابن طولون على المقطم قبل بناء مسجده المشهور وكان يثق به وإنما اختار ذلك المكان لبعده ولعلمه أن الشرطة لا تبحث عنهما في المسجد . وعاد الى دميانة في المساء وأخبرها أن الفرار لا بد منه فاستخرجت أعز مالهيا وخرجت في العشاء من الدير بحجة زيارة كنيسة ابي سرجة كما تقدم وكان قد أعد فرسا لدميانة وركب هو على حمار حتى اذا خرجا من الحلة البسها عباءة وجعل على رأسها شبه عمامة مما يجعلها تظهر بمظهر الرجال وساق حماره أمامها حتى نزلوا المكان المعهود فلاقهما صاحبه بالترحاب

وباتا هناك وفي الصباح لبنا ينتظران ما يكون فثا عثم أن سمعا بقيامه الجند على البلد وان المسلمين دخلوا منازل النصارى بحجة التفتيش عن ضائع أو هارب وإنما يريدون النهب ومنهم من صدق دعوى الجند ومنهم من ظنها ذريعة للنهب . وأطل زكريا من بعض الاماكن على الطرق فرأى الجند يدخلون البيوت بالقوة فخاف ان يصل أحد الى مقره فرأى من الحكمة ابداله

وكان له صديق عربي في حلوان اسمه قعدان اصله من أهل البادية يقيم في منزل وهبه عبد العزيز بن مروان لاجداده منذ وجه عنايته الى تعمير تلك البلدة في أثناء امارته على مصر . وانتقل ذلك المنزل في اعقابها الى رجل عرفه زكريا من سنين عديدة وله معه صداقة وثيقة العرى فرأى

ان يلجأ اليه ولا سيما لانه يقيم مع عائلة فيها امه وامراته فستأنس دميانة بهما واذا غاب عنها في مهمة كان مطمئن الخاطر عليها. وفي صباح اليوم التالي ودع صاحبه وركب مع دميانة الى حلوان بطريق الصحراء وهما في الطريق قالت دميانة « تراني يا زكريا قد سلمت لك قيادي اذهب معك الى حيث تريد لا أسألك عن السبب .. »

قال « كوني على ثقة يا سيدتي اني اتفانى في سبيل راحتك ولا تجزعي فاني ساع في كل ما يرضيك »

قالت « الى أين نحن ذاهبون الآن ؟ »

قال « الى حلوان . . . وهو بلد طيب الهواء بعيد عن مظان الباحثين وسترين هناك عائلة تستأنسين بها وترتاحين اليها فانها عربية بدوية »

قالت « وبعد ذلك »

قال « بعد ذلك . . . ؟ » وأطرق ثم قال « ان الفرج سيأتينا ولا بد من انتظاره . ولا بد لي في كل حال من الغياب عنك يوماً أو يومين لامر لا بد لي من قضائه ثم أعود اليك وعساي ان ابشرك بالفرح بعد قليل »

قالت « تتركني . . . وتغيب عني يومين ؟ »

قال « لا مندوحة لي عن ذلك لاني ذاهب في مهمة يتوقف عليها نجاحنا وبها تتغلب على أعدائنا ولا بأس عليك ان كنت عند اصحابنا في حلوان . . . »

فسكنت وبعد قليل أطلوا على حلوان ولم يكن فيها إلا بيوت قليلة فيما مضربا على أكمة حوله حديقة فترجل زكريا ومشى نحو الخيمة وقبل وصوله كان صاحبه قد شعر بقدمه من نباح السكلاب فخرج اليه ولما تبينه بالغ في الترحيب به . فقال له « نحن مسافرون الى الصعيد واحببنا التعرّيج عليكم لاني اشتقت لرؤيتك ومعى سيدة أنا ذاهب في خدمتها فنبئت عنكم الليلة ثم نصرف »

فصاح الرجل باولاده ان ينزلوا الضيفين وقال « بل تقيمان عندنا أياماً »

وزلت دميانة فرحبت بها امرأة الرجل وحيثها واستأنست بها ولا تسلم عن ضيافة العرب وحسن وفادتهم . وكانوا يكلمونها بالعربية وتكلمهم بها على ضعف . وفي اليوم التالي أظهر زكريا انه عازم على الذهاب في مهمة مستعجلة وتقدم الى صاحب المنزل واوصاه بدميانة فقال نفديها بأرواحنا فهي الآن صاحبة المنزل ونحن اضيافها . . . »

وقبل ذهابه اختلى بدميانة وأخبرها انه ذاهب في مهمة لا بد منها ويعود بعد يومين او ثلاثة وسألها هل استأنست باهل المنزل فقالت « لم أكن اظن العرب على هذه الاخلاق اذ لم أكن اسمع الا انتقاد أعمالهم معنا بالهيب والسلب فاذا هم أهل كرم ولطف »

فقال « ان العربي يا مولاتي اذا نزلت داره أصبح مجبوراً بحكم العادة المتبعة عندهم ان يدافع عنك بنفسه وأهله ويفديك بروحه وهو ما يسمونه في اصطلاحهم حق الجوار . وهل تظنين اذا أتى جند ابن طولون كلهم يقدرون أن يأخذوك أو يأخذوني من عنده وهو حي ؟ . . انه لا يزال يقاتل عنا حتى يموت أو ينقذنا . . اقول ذلك لازيدك طمأنينة فانت في هذا الجباء أمن منك في حصن حصين فاسمحي لي بالذهاب وسأعود قريباً »

ورغم ما سمعته من بواعث الطمأنينة فحالما تحققت عزمه على الذهاب انقبضت نفسها فأخذ يشجعها ويعتذر عن اضطراره الى الذهاب الى أن قال « وعلى غيابي هذا تتوقف سعادتك في المستقبل وبه نغلب أعداءنا »

فقالت « اذا لم يكن بد من ذلك فافعل . . اطلب الى الله أن يكون

معك والسيد المسيح يحرسك ويوفقك »

الفصل الرابع والثلاثون

السر المهم

فودعها وخرج وأحست بعد خروجه بانفرادها هناك وتذكرت والدها وبيتها وكيف أصبحت طريفة شريفة بعد ان كانت ربة منزلها في طاء النمل وحوها للخدم والحشم . . وأصبحت لا تعلم هل تعود الى الدار أم لا . على أن قعدان وأهل بيته لم يتركوا لها فرصة للاستيحاش فكانوا يبذلون وسعهم في سبيل راحتها صغيرهم وكبيرهم

اما زكريا فانه تنكر وركب حماراً حتى اذا بعد عن الفسطاط ركب زورقاً وسار يلتمس طاء النمل وفضل ركوب الزورق لسرعة جريه مع تيار النيل . فلما اشرف على القرية لبس ثيابه ونزل يلتمس بيت المعلم مرقس كانه قادم من قبله في مهمة خصوصية وكان اذا دخل المنزل لا يجسر احد من أهله أن يسأله عما يريد لانطلاق يده في شؤون البيت . فلقبه الخدم والنساء فسألوه عن المعلم مرقس فاخبرهم انه مقيم في الفسطاط يقضي مع دميانة اياماً ثم دخل غرفة خصوصية يعرفها واقفل بابها وفتح صندوقاً واستخرج منه انبوبة من الفضة محتوماً هزه حتى تحقق ما يعهده في داخله لا يزال فيه ثم خبأه في جيبه وخرج

وهو خارج مر بيت ابى الحسن فوجده خارجاً من منزله ليتمشى في الحديقة على جاري عادته وأنس في وجهه انقباضاً فلم سبب انقباضه ولم يكن يشك انه كان في جملة الذين شهدوا الاحتفال بالامس وانه شاهد ما اصاب سعيداً وهو يعلم انه بمنزلة ولده فتقدم نحوه فحلمما رآه ابو الحسن تحول اليه فتقدم زكريا وهم بتقبيل يده فمنعه ورحب به وسأله اذا كان مولاه انى معه فقال كلا يا سيدي انه لا يزال في الفسطاط اظنك كنت

« هناك »

فهب ابو الحسن رأسه بمرارة وقال « نعم كنت هناك وقد رجعت
البارحة »

قال « فاذا شاهدت ما أصاب سعيداً »

قال « نعم شاهدت ذلك المنظر المؤلم . . ولكنهم سوف يندمون »
ففرح زكريا بتلك البشارة لعلمه أن ابا الحسن لا يقول جزافاً فقال

« صحيح؟ بشرك الله بالخير »

قال « نعم انهم سيندمون لانهم لا يجدون من يغنيهم عن سعيد ٠٠ اذ

ليس في هذه البلاد من يعرف معرفته بالهندسة »

قال « ولكنهم ساقوه الى السجن »

قال « ليس السجن عاراً على الرجال انهم لا يلبثون ان يخرجوه

معززا مكرماً »

قال « وكيف ذلك ومتى »

فتقدم نحوه وهو يقول « ان ابن طولون عازم على بناء جامع كبير في

القطائع ولم يجد من يحسن هندسته غير سعيد »

فقال « وهل يعرف ابن طولون ذلك »

قال « لا يلبث أن يعرفه متى احتاج اليه »

فاطرق زكريا كانه فتح عليه باب الفرج ثم ودع ابو الحسن وانصرف

الى فرس من افراس مرقس ركبته وطلب القسطاط فلما اطل عليها ترك

الفرس في خان وحدثته نفسه ان يسير تواء الى حلوان لمشاهدة

دميانة لكنه احب ان يتم ما جال في خاطره اولاً ثم يعود اليها

بالبشارة

الفصل الخامس والثلاثون

صدقات ابن طولون

تكر زكريا بلباس الفقراء المتسولين ومشى الى القطائع وانفق وصوله الى قصر ابن طولون في ساعة تفريق الصدقات

وكان لابن طولون في الاحسان يوم مشهور يعرف بيوم الصدقة تفتح به ابواب القصر كلها لا يمنع داخل ولا يرد سائل . وكانت صدقاته على أهل الستر وعلى الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة . وكان راتبه لذلك في كل شهر الف دينار سوى ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر على تحديد النعم . وسوى مطابخه التي اقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها يذبح فيها البقر والكباش ويعرف للناس في القدور من الفخار والقصاع . على كل قدر أو قسعة لكل مسكين أربعة ارغفة في اثنين منها فالوزج والاثنان الاخران على القدر . وكانت تعمل في داره وينادى من أحب ان يحضر دار الامير فليحضر وتفتح الابواب فتدخل الناس الميدان وابن طولون في مجلسه الذي يشرف منه على الناس فينظر الى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون أو يحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته . ولقد قال له مرة ابراهيم بن قراطغان وكان على صدقاته « ايدالله الامير انا نقف في المواضع التي تفرق فيها الصدقة فتخرج لنا الكف الناعمة المحضوبة نقشاً والمعصم الرائع فيه الحديدة والكف فيها الخاتم » فقال « يا هذا كل من مد يده اليك فاعطه فهذه هي اللطيفة المستورة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه فقال « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » فاحذر ان ترد يدأ امتدت اليك واعط كل من يطلب منك »^(١)

فلما وصل زكريا الى ذلك المكان رأى ابن طولون جالساً في المقعد

المشار اليه بقلنسوته وقبائه على وسادة وقد تهل وجبه سروراً بما يشاهده من آثار نعمته على الناس . وكان زكريا عازماً على أن يطلب مقابلته ويخاطبه رأساً فعمل ان لا سبيل الى مقابلته في تلك الساعة فاجل ذلك الى الغد . وخوفاً من وقوع الشبهة عليه تقدم في جملة طلاب الصدقة فمد يده فقال حظه فاكل وهو كيفما تحرك يفتقد الانبوبة وكان قد علقها بجبل في عنقه ودسها داخل اثوابه تحت ذراعه

وهو في ذلك رأى الناس يومثون الى مجلس الوالي فنظر فاذا هم يشيرون الى رجل دخل عليه عرف من لباسه وقيامته أنه المعلم حنا كاتب الماداراني ورآه يحمل بيده درجاً ملفوفاً بمنديل من الحرير فاهتم ابن طولون لدخوله وانصرف بكليته اليه وأمره ان يقعد على وسادة بجانبه فقعد متأدباً واستأذنه في اطلاعه على الدرج فرضي . فحله وبسطه وأخذاً يتجادنان ويتناقشان على ما يحويه الدرج ولحظ زكريا ان الكاتب يحاول اقناع ابن طولون بشيء مخطوط في الدرج وهو لا يقتنع . وأخيراً حول احمد وجهه عن الكاتب وانصرف الى مشاهدة الجماهير ولسان حاله يقول « هذا لا يعجبني والسلام »

ولم يستطع زكريا مشاهدة ما على الدرج لانحجابه عن بصره فاصبح في شوق الى استطلاع ذلك واذا بالناس يوسعون لقدام يطلب الخروج من القصر فتنحى والتفت فرأى المعلم حنا خارجاً وبجانبه ابنه اسطفانوس قد تأبط اللقافة ومشيا فبغت زكريا لرؤية اسطفانوس ولكنه بالغ في التسكر واقتص اثرها خلسة لعله يسمع كلمة . حتى اذا اتيا مفرقاً من الطريق افترقا والكاتب يقول لابنه « ماذا نعمل له ؟ لا أظن في الدنيا أحداً يستطيع اجابة طلبه - جامع بلا اعمدة ؟ هذا أمر غريب »

فقال اسطفانوس « هو يريد أن يبني جامعاً بلا اساطين ؟ »

قال « نعم وقد استشرت امهر المهندسين الموجودين في القسطنطينية ومنهم من تعلم في القسطنطينية أو تخرج في بغداد وقد شهد الناس لهم بالمهارة .

وهذه الخريطة عليها رسم جامع من أجل ما بلغ اليه امكانهم فلم يعجبه فانه يريد ان يكون جامعه بلا أساطين «
فقال اسطفانوس « ولماذا ؟ . لماذا لم يفعل كما فعل عمرو بن العاص ببناء جامعه ؟ . . »

فقطع حنا كلامه قائلاً « ان والينا عمد الى هذه الطريقة حتى يتجنب ما وقع فيه عمرو »

فهز اسطفانوس رأسه وظل ماشياً في طريقه ورجع زكريا الى موقفه وقد فتح عليه باب الفرج وأدرك الطريق الذي يمكن الوصول به الى انقاذ سعيد وعادت اليه هو واجسه وعاد الى الامر الهام الذي جاء من اجله وتذكر دميانة ولهفتها الى رجوعه فافتقد الانبوب فوجده في مكانه فاطمأن باله لعلمه ان دميانة مهما بلغ من قلقها واضطرابها ففي هذا الانبوب ما يخفف عنها. وشغل خاطره من الجهة الاخرى بمن كان يزاحمه من وفود المتسولين وأهل العوز على تفاوت طبقاتهم

الفصل السادس والثلاثون

النظر في المظالم

حتى اذا انقضى وقت الصدقة وقد آذنت الشمس بالمغيب أقفلت الابواب وتحول ابن طولون عن مجلسه فانصرف زكريا الى الحان بات فيه وبكر في الصباح التالي . وخوفاً من ان يراه اسطفانوس مرة ثانية بلباس الغد فيعرفه تنكر بلباس نوبي قادم من سفره ويشكو من فكه الاسفل فربطه رباطاً كالخمار يحجب معظم رأسه والتف بشملة من نسيج القطن الابيض المعروف عندهم بالدمور ومشى حافياً مشية غريبة يدهشه كل شيء حتى أتى باب القصر فسأل الحراس الوقوف به عن الوالي أين يكون فقال له احدهم

« انه لا يتعاطى اليوم غير النظر في المظالم »

ولم يكن زكريا يعرف تلك العادة لان ابن طولون أول من نظر في المظالم من امراء مصر^(١) ولم يكن زكريا يفهم المراد من المظالم والنظر فيها فاستفهم الحرسي قائلا « ومعنى هذا العمل عنكم »

فقال الحرسي « يظهر من لباسك وقيافتك انك غريب الديار فلا عجب اذا كنت لاتعرف هذا العمل . . اعلم يا صاحبي أن مولانا الامير نظر الرغبته في المحافظة على حقوق رعيته وخوفا من أن يتعدى أحد من عماله أو كتابه أو رجال حكومته على أحد الناس فيظلمه أو يؤذيه قد خصص حفظه الله يومين في الاسبوع لسماع شكوى المتظلمين بنفسه وانصافهم »

فدهش زكريا لسماع ذلك ولم يكن سماع بمثله في مصر ولا غيرها وكان الحرسي يخاطبه وينظر اليه وهو يتوقع استغرابه واعجابه فلما رأى دهشه استطرد الكلام قائلا « اراك تستغرب هذه المنقبة في أميرنا ولا عجب في استغرابك لانكم لاتعرفون مثلها في بلادكم فانها من حسنات الاسلام حتى لا يظلم احد استظل به »

ففظن زكريا لاسطفانوس وما اتاه من الاذى لدميانه فقال في نفسه « هل اشتكيه لابن طولون ؟ » لكنه خاف وتردد ورجع الى الغرض الذي جاء به ولم يعد يرى تأجيل مقابلة ابن طولون فعزم على أن يدخل عليه في جملة المتظلمين ثم يحتمل في مخاطبته بشأن سعيد وبناء الجامع

فسأل الحرسي عن المكان الذي يجلس فيه الوالى للنظر في المظالم فاوماً الى باب عنده الحجاب وقد تكاثرا الناس حولهم وهم يدخلونهم بالتدريج فتقدم زكريا ووقف في جملة الواقفين وصبر حتى انصرف اكثر الناس فطلب الدخول فأذن له فدخل وعليه قيافة البداوة فاطل على مجلس ابن طولون في قاعة مفروشة بالطنافس في صدرها كرسي كبير قد جلس عليه ابن طولون وبجانبه قاضيه بكار بن قتيبة وبين يديه قصص المتظلمين (العرائض) وقد تصفحها ابن طولون ودفعها الى قاضيه ليحكم فيها أو ينفذها

فلما دخل زكريا سأله الحاجب عن قصته ليدفعها الى الوالي ينظر فيها فقال « لم أكتب شيئاً وإنما أريد أن اعرض ظلامتي شفهاً للوالي رأساً بعد فراغه من النظر في قصص سائر المتظلمين »

فرفع الحاجب ذلك الى ابن طولون فقال « اجلسه ريثما نفرغ من عملنا »

فقعد زكريا وهو ينظر في ذلك العمل ويمجّب بما فيه من العدل والانصاف حتى اذا فرغ ابن طولون من تصفح القصص صاح بزكريا « ما هي ظلامتك يا أخا النوبة ؟ »

فوقف زكريا وقال لا أقول ظلامتي الا في خلوة مع مولاي « وكان زكريا في تنكره يظهر انه لا يعرف العريية الا قليلاً . ولو تكلمها جيداً لما صدقوا انه آت من النوبة لان المسلمين لم يكونوا قد انتشروا في النوبة ولا دخلها الاسلام فكان يدخل كلامه بعض الالفاظ من لغة النوبة (البربري) ولكنه كان يحسن التعبير بحيث يفهم ابن طولون مراده

فلما سمعه يطلب الخلوة أشار الى القاضي وكان قد فرغ من عمله فخرج ولبت ابن طولون وحده فقدم زكريا ووقف بين يديه متأدباً فإشار اليه أن يقعد فقعد وأزاح الحمار عن رأسه فلم يظهر فيه عاهة كما كان يظن من يراه مخمراً وابن طولون ينظر اليه وينتظر ما يقوله . واستبطأه فقال له « ممن تنظّم يا رجل ؟ »

فقال « اقول ولا بأس عليّ ؟ »

قال « قل . . انك على بساط الوالي ولي أمير المؤمنين ومهما يكن من ظلامتك فانك تنصف . قل ممن تنظّم ؟ »

قال « من احمد بن طولون ولي أمير المؤمنين ونائبه على مصر »

فبغت ابن طولون وقال « مني ؟ »

قال « نعم يا مولاي .. فاذا كنت قد تجاوزت حدي بالتظلم منك فانا

بين يديك افعل بي ما تشاء »

قال « كلا فان لك الحرية ان تتظلم من شئت . . . ولكنني استعربت
تظلمك مني وأنا واثق ببراءتي »

قال « رب ذنب لا يعرفه صاحبه »

قال « قل . . . افصح ما هي ظلامتك فاني لا اعرفك ولا اذكر اني
رأيتك قبل الآن »

قال « ولا أنا اتظلم لنفسي ياسيدي وإنما جئت لمولاي الامير ارفع اليه
ظلامه رجل لم يكلفني أن اتظلم عنه ولكنني فعلت ذلك رغبة في مصالحة
صاحب هذا البلد »

قال « لم أفهم مرادك فافصح . من تعني ؟ »

قال « أعني الرجل الذي حكمت عليه بالجلد والحبس بعد ان بنى لك
العين وأجرى فيها الماء . . . »

قال « الفرغاني ؟ الذي أوشك ان يقتلني بجهالته ؟ »

قال « وهل تعني انه يجهل هندسة البناء ؟ »

قال « طبعاً . . . ان سقوطي عن جوادي إنما كان من الخلل الذي
سببه جهله في فن الهندسة . . . »

قال « ليس في هذا البلد من يقاربه في هذا الفن يا مولاي . ولكن
قصرية الحير التي تعس بها جوادك إنما تركت هناك لتعاسة حظه أو لعل لها
سبباً آخر . وقد يكون بعض اعدائه وشوابه اليك فاغروك على أذاه . وإنما
اتكلم عن مهارته في الهندسة . . ليس في هذا البلد من يقاربه فيها ولا الروم
الآتون من القسطنطينية ولا الفرس ولا غيرهم »

فاستغرب ابن طولون دفاع هذا النوبي عن ذلك القبطي ولم يعتمد به
فقال « وما الذي حملك على رفع هذه الظلامة الينا وأنت تقول ان صاحبها لم
يكلفك ؟ »

قال « حماني على ذلك رغبتني في انقاذ مولانا من مشكل وقع فيه
ولم يستطع احد أن ينقذه منه وان كان كلامي ثقيلاً عليه فاني انصرف
حالا »

فانتبه ابن طولون الى انه يعني الجامع الذي يريد بناءه واسكنه تجاهل وقال
 « وأي مشكل تعني؟ »
 قال « أعني البناء الذي أنت عازم على انشائه ولم تجد من يستطيع رسمه
 لك على الشكل الذي تريده »

قال « وهل يستطيع صاحبك أن يفعل ذلك؟ . انه لا يستطيعه »

قال « لا أظنه يعجز عنه وما هو طلبك يا مولاي؟ »

قال « اني اريد ان ابني جامعاً بلا اساطين . . . هل يستطيع ذلك؟ »

قال « لم أسأله ولكني احسبه يقدر » واستدرك زكريا قوله مخافة

أن لا يكون سعيد قادراً فيعود الغضب على كليهما فاراد ان يثني ابن طولون

عن عزمه من حيث الاساطين فاستأنف الكلام قائلاً « وهل خلوه من

الاساطين شرط لازم - كأن مولاي لا يرى في الاساطين جمالا على الاشكال

التي وضعوها بهافي جامع عمرو . فاذا كان هذا سبب عدوله عن الاساطين

انا اضمن ان سعيداً يجعل وضعها على شكل بديع .. »

فاشار ابن طولون بسبابته اشارة الانكار وهو يهز رأسه وقال « ليس

هذا هو السبب في رغبتني عن الاساطين . . . وقد رأيت فيك نباهة وغيره

فأخبرك أن سبب ذلك انما هو رفقي بأهل الذمة من سكان هذا البلد لاني

لما عزمت على بنائه سألت المهندسين عما يحتاج اليه من الاعمدة فقدروا له

٣٠٠ عمود فهذه لا اقدر اجدها في غير الكنائس . . فاذا فعلت فاني

استنفدت اعمدة الكنائس في الارياض والضيعاع^(١) وهذا ظلم لا ارضاه

واحسبه لا يرضي الله . وأنا احب ان ابني مسجداً لا يشوب بناءه ظلم ..

وقد تعذب قلبي في هذا الامر فلم أجد وسيلة الا أن اجعل هذا الجامع بدون

أعمدة فلم أجد في مصر من يقدر على بنائه بدونها .. »

فتبسم زكريا وقال « هل سألت سعيداً السجين في المطبق؟ »

قال « كلا . . . انه ذهب من فكري .. هل تظنه يقدر على

هذا الامر؟ »

قال « اظنه يقدر .. ومع ذلك فما على مولاي الا ان يأمر باحضاره
ويسأله ويرى ما يقول »

فصفق ابن طولون فدخل غلام فقال له « قل لصاحب المطبق أن يأتيني
بالنصراني المهندس انه مسجون عنده .. ادخلوه علي الساعة »

الفصل السابع والثلاثون

جامع ابن طولون

فاشار الغلام مطيعاً ومضى ووقع زكريا في حيرة وهو يخاف ان يخيب
ظنه في سعيد ولكنه قال في نفسه انه اذا فشل بانقاذه من هذا الطريق عاد
الى التظلم من سجنه بلا حق على أن يتهم اسطفانوس بانه هو الذي وضع
قصرية الحير »

وكان ابن طولون في اثناء الانتظار مطرقاً يفكر بما سمعه ويتمنى ان
يصح قول الثوبى في سعيد لانه كان شديد القلق من هذا الامر وما عم ان
دخل الحاجب يقول « ان السجين النصراني في الباب »

قال « ادخلوه »

فدخل سعيد وقد تغيرت سحنته وطال شعره على غير هندام اذ لم يمسه
المشط ولا رأى وجهه الشمس منذ مدة طويلة^(١) فلما رآه زكريا انكره
وتأثر من حاله وأصبح لشدة قلقه عليه وخوفه أن لا يستطيع العمل يرتعش
وهو يتجلد . أما سعيد فدخل ولم ينتبه لزكريا وإنما كان همه ان يجيب

(١) في التاريخ ان بين بناء الجامع وبناء العين اطول ممن اقتضاه سياق
الرواية . وذكر المقرئ ان النصراني هذا سمع وهو في السجن ان ابن طولون يريد
بناء الجامع ولم يجد من يبنيه له بلا عمد فكتب اليه يقول انا ابنه لك كما تحب فاستقدمه
وقد طال شعره حتى نزل على وجهه - ذكرنا هذا حتى لا يشوه التاريخ

دعوة ابن طولون فوقف متأدباً فقال له ابن طولون « كيف ترى نفسك؟ »
قال « أراني كما كنت »

قال « ألم تشعر بالخطأ الذي ارتكبته في بناء العين »

قال « لا يسلم أحد من الخطأ .. ولكنني لم أسأل عن خطأي لآتحققه

أو أتبرأ منه وإنما تعجل سيدي في عقابي بلا سؤال »

قال « ألا تعد ترك قصيرة الجير ووقوعي عن فرسي بسببها ذنباً . . .

ولكن مالنا ولهذا فنحن الآن عارضون عليك عملاً آخر فاذا زعمت انك

ماهر في الهندسة أخرجنا لنا فنعترف لك ما مضى »

قال « ما هو ياسيدي »

قال « عزمت على بناء جامع كبير على جبل يشكر في أطراف القطائع-

انما اشترط أن لا يكون فيه أعمدة فهل تستطيع رسمه على هذا الشرط؟ »

فأطرق سعيد وأخذ يفكر وقلب زكريا يخفق خوفاً من الفشل وابن

طولون يراعي حركات سعيد ثم تناول هذا خيزرانة كانت ملقاة بجانب

الحائط وأخذ يمرها على البساط كأنه يرسم بها خطوطاً ومربعات وابن

طولون يراعيه. وأخيراً رفع سعيد رأسه وقال « اني افعل ما أمر به مولاي

ولكنني أستاذنه أن يكون في الجامع عمودان فقط هما عمودا القبلة »

قال « عمودان فقط؟ »

قال « نعم فقط اثنان »

فقال ابن طولون وقد بان البشر في حياء « هل تقدر أن تبني الجامع

على أن لا يكون فيه غير عمودي القبلة؟ »

قال « نعم »

قال « أخاف ان يكون شكله مشوهاً أو منظره قبيحاً »

قال « كلا سيكون من أجمل الجوامع - ليس مثله الا المسجد الذي بناه

أمير المؤمنين المعتصم في سامرا »^(١)

« قال قبلت به . . . أرني صورته »

قال اثنوني بالجلود فأصوره لكم كما يكون بعد الفراغ من بنائه «
فكاد قلب زكريا يطير من الفرح ولكنه ظل ساكناً ليتحقق الامر

بعد الرسم

وأمر ابن طولون بالجلود فاتوه بها فأخذ سعيد يصور عليها رسم الجامع
بجدرانته وقبلته وصحنه ومآذنته وميضته . فلما فرغ من الرسم دفعه الى
ابن طولون ففرح به كثيراً وأمر ان يطلق سراحه وان يخلع عليه وقال
له « سأطلق يدك في النفقة على البناء . . ومتى فرغت منه كافأتك أحسن
مكافأة »

فأحنى سعيد رأسه شاكراً

أما زكريا فلم يعد يستطيع كتمان فرحه فتقدم حتى وقف بجانب سعيد
فاستلقت انتباه ابن طولون وظنه يتصدر لينال الجائزة فقال له « والفضل
في حل هذه المشكل لهذا النوبي الشيخ بارك الله فيه »

فالتفت سعيد الى زكريا فرآه ينظر اليه ويضحك فعرفه وخفق قلبه
لتذكر دميانة وبانت البغته في محياه وخاف أن يلحظ ابن طولون بغتته
فاستأذنه في الخروج فقال له « تخرج الى دار الاضياف وسنأمر لك بقصر
تقيم فيه ولا يؤذن بخروجك من القطائع لان وجودك أصبح يهنا كثيراً
وإذا شئت أن تأتي باهلك فيقيمون معك في القصر فلا بأس » والنفت الى
زكريا وقال « انك صاحب فضل يا عم . . بورك فيك . . سل ما تشاء »
قال « لا أسأل الا أن يكون مولاي موفقاً . . . وقد انشرح صدري
لظهور الحق ويكفيني ذلك »

فقال احمد « ولكنه لا يكفيننا نحن . » وصدق فجاء الغلام فأمر له
بجائزة فدعاه وخرج وهو يعلم ان سعيداً يود مقابلته قبل الانصراف
فترصده عند خروجه

فلما رآه سعيد أسرع اليه وسأله عن حال دميانة فقص عليه ما جرى
لها وما قاسته من عناد أبيها وما كان من أمر اسطفانوس وانها الآن في
حلوان تنتظر رجوعه ولا يقدر يتصور سرورها لما يرجع اليها بهذه البشارة

وكان سعيد يسمع حديثه وهو يكاد يتميز من الغيظ فلما فرغ من كلامه قال له « تباً لذلك الحائن النذل . . كأنه ينتقم بهذا العمل عن اللطمة التي ذاقها ليلة عيد الشهيد . . وكان يحسن به أن يبين نفسه ولكنه لئيم جبان . وقد واطأه مرقس على ابنته وهو جاهل لا يعرف ما ينفعه ولا ما يضره والحمد لله على رد كيدهم في نحورهم . . فاذهب الى دميانة بشرها بالفرج وقل لها ان ذلك الغر سينال جزاء فعلته قريباً وكم أود أن اذهب معك لاراها ولكن ابن طولون لا يأذن بخروحي من قصره كما سمعت على اني سأسعى في زيارتها في وقت آخر وآتي بها تقيم معي في القصر الذي وهبه لي الوالي بعد أن اهيبه لاستقبالها وتقيم فروض الاكليل

فودعه زكريا واراد الانصراف فرأى غلام ابن طولون واقفاً ينتظره ليحمله الى السكاتب يدفع اليه الجائزة . ولم يخط خطوتين نحو باب القصر اذا هو باسطفانوس قد برز من وراء الباب ووقف وجعل ينظر الى زكريا ويتفرس فيه ولسان حاله يقول له « قد عرفتك » ولو لم يشاهده مع سعيد بعد أن علم برضا ابن طولون عنه واكرامه اياه لاسرع الى القبض عليه بحجة السرقة لكنه خاف سعيداً وتذكر ليلة عيد الشهيد فكظم

الفصل الثامن والثلاثون

البجة

وأما زكريا فنظر اليه نظر الفائز ومشى وهو لا يبالي ولولا رغبته في الاسراع الى دميانة لشكاه الى ابن طولون وان كان لا يضمن فوزه عليه نظراً لنفوذ والده فاكتفى بان نظر اليه شزراً نظر تهديد واحتقار ومشى حتى قبض الجائزة وتحول يطلب حلوان وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة ولا يشعر بما تقع قدماء عليه من شدة شوقه لملاقاة دميانة وتبشيرها بما أتاه من اسباب التعزية والفوز

ولم يكذب بتوسط الطريق الى طرا حتى رأى الناس يترا كضون نحو القطائع وفيهم النساء والاطفال على غير نظام كأنهم هاربون من معركة وعرف من جهة مسيرهم انهم قادمون من حلوان فسأل بعضهم عن ذلك الفرار فأجابوه « ان البجة سطوا على حلوان ونهبوها .. » فقال « ومتى كان ذلك ؟ »

قالوا « نزلوا عليها في هذا الصباح وفتكوا باهاها ونهبوا بيوتها » فاجفل زكريا وخفق قلبه ووقف لحظة وقد جمد الدم في عروقه خوفاً على دميانة فرآه الرا كضون واقفاً فقالوا له « ارجع ياعماء والا فانك تذهب فريسة البجة لعنهم الله انهم كالابالسة ووجوههم كوجوه الشياطين » فلم يبال بما سمعه ولم يزد ذلك التحذير الا رغبة في المسير الى حلوان ليرى ماتم لدميانة وظل ماشياً ولو تنبأ بشيء من ذلك لذهب الى الفسطاط أولاً وركب الفرس ولكنه وجد نفسه اقرب الى حلوان مما الى الفسطاط فظل مسرعاً يعدو وهو لا يزال يرى الناس يترا كضون فراراً من القتل والنهب وقد سبق الى ذهنه ان دميانة لا بأس عليها لانها في جوار صديقه قعدان العربي

فلما أطل على حلوان طاب منزل الرجل فاشرف عليه عن بعد فرأى الحباء منصوباً فاطمأن بانه ولكنه لم ير احداً حوله ولم يدن منه حتى رأى الخراب مخيماً عليه . وأول شيء استلفت انتباهه شبح ملقى على الارض بياب الحديدية عرف انه غلام صاحبه فتقدم نحوه فرأى الدم يجري منه وقد مات فاضطربت جوارحه وخاف ولكن لهفته على دميانة شغلته عن الخوف فشى في الحديدية وهو يتلفت فرأى آثار حوافر الخيول بين الاغراس وقد تكسرت وتخربت . ولم يزل ماشياً وقلبه يخفق حتى أقبل على الحباء فسمع اينبأاً وتقدم فرأى رجلاً مطروحاً كالميت ولم يقع نظره عليه حتى عرف انه صاحبه قعدان فاجفل وصاح « قعدان ! قعدان ! » واكب عليه وامسك بيده ليجلسه ويفحص حاله

فادار قعدان وجهه اليه والدم يسيل من كتفه على اثر طعنة مميتة فلما رأى

زكريا حاله علم أنه في حال النزح فقال له « لا بأس عليك يا أخي ما الذي اصابك »

قال بصوت مرتعش وهو يقطع كلامه من شدة الضعف « عفواً يا زكريا اني لم ... استطع الاحتفاظ بدميانية ... فقد أخذوها مني ... أخذها لصوص البجة ... ويعلم الله اني بذلت جهدي في حمايتها حتى قتل ولدي ورجالي وها أنا كما ترى .. فالعفو اني لم استطع القيام بحق الجوار » وكان يقول ذلك وهو يقطع كلامه وزكريا ينظر اليه وقلبه يكاد ينفطر لما آنسه من آلامه . ولما سمع اعتذاره وكيف أنه ضحى أهله ونفسه في حماية جاره اكبر انفة العرب ونخوتهم واسف لذهاب صديقه قتيلا بلا فائدة لانه فهم من خلال حديثه انه لم يستطع حماية دميانية فاحب أن يستنهم عما جرى لها فقال « لا بأس عليك يا أبا العرب . . انك والله قد وفيت حق الجوار واحيت سنة العرب ... وهل للانسان من شيء يبذله في سبيل جاره أعز من أهله ونفسه فارجو أن يشفيك الله .. » وكان زكريا لا يزال قابضاً على يد قعدان فهم بانهاضه وهو يقول « انهض . اجلس . هل آتيك بماء تشربه .. قم لاغسل جراحك . . »

فاجتذب يده منه وقال لا فائدة من الغسل ولا من الشرب فاني ميت لاحالة .. واعلم يا أبا النوبة ان دميانية لا تزال حية ولكن البجة اخذوها سبية وأظهم أخذوا أيضاً ابنتي وسائر أهلي . . قال ذلك وتلملم وبان التالم في وجهه وصرخ « آه .. لو كنت استطيع القيام للحقت بهم » واختليج وشهق واسلم الروح

فلم يتالك زكريا عن البكاء رغم اشتغال خاطره بدميانية واسف لموت هذا الصديق الذي ينذر مثاله ولكنه لم يجد حيلة ينفعه بها وقد قضى نحبه سوى أن يواريه التراب ولم يجد أحداً يستعينه لان أهل حلوان كانوا قد هجروها في ذلك اليوم وهجرها أيضاً البجة بعد أن نهوها و فروا خوفاً من رجال الحكومة أن تدركهم فاحترف حفرة التي قعدان فيها ودفنه وصلى على قبره . ورجع الى نفسه وأخذ يفكر في الذي يجب أن يفعله للحصول على دميانية

فراجع الكلام الذي سمعه من قعدان ففهم من جملة أن البجة سطوا على حلوان فهبوا وسبوا نساءها . وكان زكريا قد عرف البجة وعاشر بعضهم وهم يقيمون في الصحراء الشرقية يعيشون على الغزو والنهب وهم أشداء اهل بادية وخشونة فلما تصور دميانة معهم اقشعر بدنه لعلمه أنهم لا يعافون محرماً ولا دين لهم يردعهم من اكبر الجرائم وهم يومئذ لا يزالون على الوثنية

الفصل التاسع والثلاثون

الحيرة

وكان زكريا يفكر في ذلك وهو يمشي على غير هدى نحو الجهة التي حسب البجة نزلوا منها أو عادوا اليها لعله يقف على أثر لهم أو يرى من يرشده اليهم حتى صعد الى اكمة اشرف منها على الصحراء عن بعد فلم ير أحداً ولكنه عرف من آثار الحوافر ان القوم كانوا هناك وذهبوا فحدثته نفسه لهفته ان يقتص اثرهم وحده للبحث عن دميانة ثم رجع الى رشده لتيقنه عجزه عن ادراكهم ولا هو يعرف مقرهم . وهب انه ادركهم فكيف يقدر على تخليص دميانة منهم . فوقف برهة وهو في تلك الحيرة ثم انتبه بفته الى الانبوب فافتقده فاذا هو لا يزال تحت ذراعه فتذكر دميانة وما قاسته من البلاء والعذاب . ولما دنت سعادتها واسرع بتبشيرها بالفوز سببت فقال في نفسه « ليكن اسم الرب مباركا ان هذه الفتاة مع تقواها وطيب عنصرها ومع أسباب السعادة التي تحيط بها كأنها خلقت لتسقى .. اين انت الآن يادميانة ؟ ماذا أقول لخطيبك اذا سألتني عنك أقول له سبها البجة؟ . وهم قوم لا يحفظون حرمة ولا يوفرون عرضاً . . » ولما قال ذلك غلب عليه الحزن واليأس فبكى واغرب في البكاء ولم يكن حوله احد يسمعه فاطلق لحنه العنان

وكانت الشمس قد مالت الى المغرب فلما رأى الاظلال تستطيل انتبه لنفسه واستوحش فعاد الى صوابه فقال في نفسه « لا يفيد الندب في مثل هذه

الحال.. يجب أن تعمل عملاً يجب أن اسمى في انقاذ دميانة.. كيف انقذها. أذهب الى سعيد أخبره بما أصابها واستجده ؟ . وماذا ينفع استنجاهه انه لا يستطيع عملاً حتى ابن طولون نفسه لو اراد ان ينجدي ولو جرد جيشاً على البجة لا يفيد شيئاً فان هؤلاء مبرحوا عصاة على رجال الحكومة من عهد بعيد فلم تخضعهم دولة لقيامهم في الصحراء التي لا يستطيع سلوكها سواهم . . فلا ثمة في استجداء سعيد سوى تكديره واقلاق راحته .. ماذا افعل اذا ؟ » وتذكر للحال ايام صوته يوم كان في بلده بالنوبة وتذكر مالمك النوبة من السطوة والهيبة في قلوب البجة فقال « لا ينجدي في هذا السبيل الا ملك النوبة . . ولكن اين هو واين نحن ان بيننا مراحل عديدة . ثم هو لا يعرفني ولا ينجدي . . »

وكان يناحي نفسه وهو راجع عن تلك الالكمة نحو حلوان فام يجد خيراً من أن يعود الى الفسطاط فينزل الخان وفيه ثيابه وفرسه ثم يرى ماذا يعمل ومشى وهو لا يبالي بالتعب وقد اظلمت الدنيا فجعل طريقه على ضفة النيل واخذ يعمل فكرته في طريقه لانقاذ دميانة من مخالب أولئك اللصوص

خرج من حلوان وقد غربت الشمس وهو في لباس بدو النوبة كما كان عند خروجه من القطائع ومشى وهو مرتبك الافكار فوقع بصره نحو العشاء على انوار عند سفح المقطم علم انها في قبة الهواء فتذكر موقفه مع دميانة وتذكر للحال صديقه في المسجد القائم هناك وكان قد مر به قبل ذهابه الى حلوان وهو يعرف فيه الاطلاع على احوال البجة وسائر أهل الصحراء لقيامه في أوائلها فخطر له ان يذهب اليه ويستشيره في الامر له وسيلة قريبة لنيل المطلوب . فخرج نحو المقطم فما عثم أن صعد حتى أتى المسجد فلاقه صديقه وانكره لاول وهلة ثم تعارفا فدعاه الى الجلوس فجلسا بين يدي الباب خارج المسجد على الارض فسأله عن حاله فاخبره انه ترك دميانة عند صديقه العربي في حلوان وجاء الفسطاط في مهمة ولما رجع رأى البجة قد سطوا على البلد وقتلوا من قتلوه وفر الباقون . وانهم أخذوا

دميانة سبية الى ابن قال « وهل تعرف شيئاً عن أوامك البجة وابن
يقيمون ومن هو زعيمهم ! »

قال « ان زعيمهم اليوم يقال له ابو حرملة »

فصرخ زكريا « ابو حرملة ؟ فرج النوبي ابن بلدنا ؟ »

قال « كلا . . ليس الرجل الذي تعنيه ولكنه تسمى باسمه تشبهاً

بالشجمان ولف حوله عصا به من قومه وجعل ديدنه السطو على اطراف

مصر يهيب ويقتل ولم يسبق انه سطا على حلوان قبل الآن »

فتهدزكريا وقال « لعله فعل ذلك لسوء طالع تلك الفتاة التقية . . وابن

تظن اولئك البجة يقيمون الآن ؟ »

قال « يقيمون ؟ لا اعرف لهم مقاما لانهم قوم رحل يعيشون على

الغزو والسطو »

قال « وما رأيك الآن . كيف العمل يا صاحبي ؟ انى اراني في حيرة . .

كيف يمكنى انقاذ هذه الفتاة فقد اؤتمت عليها وعاهدت نفسي ان أقوم

بخدمتها ورعايتها . وقد أخذت منى في اثناء غيابى وباليتمنى كنت حاضراً

ساعة السطو فكنت اما انقذها أو اقتل في سبيل ذلك فاذهب مرتاح

الضمير . . » قال ذلك وغص بريقة ولم يبالك عن البكاء

الفصل الرابعون

الاستنجاد

فلما رآه صاحبه يبكي مع شيخوخته شاركه في احساسه واخذته الارجحية

فقال « خفف عنك يا زكريا . . واشكر الله لانك لم تكن . . حاضراً في

تلك الساعة لانك كنت مقتولا لاحالة ولا تبني حيلة لانقاذ الفتاة اما وانت

حي فلا تعدم وسيلة لانقاذها »

قال « ما هي الوسيلة ! ارشدني . هل تعلم مقر هؤلاء فاذهب اليهم

بنفسي وأكلم أبا حرملة واستعطفه لعله يشفق على الفتاة واقتديها بما يريد
من المال »

قال « أما مقر هؤلاء فلا سبيل الى معرفته والاستعطف لا فائدة منه
وأما الفداء فلو كان الاسير رجلاً أو غلاماً أو امرأة طاعنة في السن فربما
أفاد أما وهي فتاة جميلة فلا أظنهم يقبلون عنها فدية والغالب أن يجعلها ابو
حرملة في جملة نسائه فقد سمعت انه رغب في النساء .. »

فقطع زكريا كلامه قائلاً « تعني انه يتزوجها ؟ »

قال « يتزوجها أو يتسراها لا أدري .. »

صاح زكريا « أعود بالله من ذلك .. » وأطرق هنيئة ثم قال « لا اخاف
عليها منه وان كان جباراً ما دامت حية ولكن .. » وبلع ريقه وأخذ ينكت
الارض باصبعه ويعمل فكرته

فابتدره صاحبه قائلاً « لا فائدة من طول التفكير اتنا لانعرف مقرهم
واذا عرفناه لا قدرة لنا على مناواتهم »

فتذكر زكريا سعيداً ومنزلته عند ابن طولون فقال « وما قولك اذا
استجدنا امير مصر ؟ هل ينجدنا بجند »

فابتدره قائلاً « ولا فائدة من نجدة الامير فانه لا يبرض رجاله للموت
في الصحراء ولو كان في امكانه ردهم لفعل ذلك من قبل فان اولئك
البعجاويين لم ينفكوا عن السطو على حدود هذه البلاد من ازمان متطوالة
والحكومة عاجزة عن ردهم فكيف يتعقبهم الى منازلهم ومنازلهم على
ظهورهم .. »

فعلم زكريا ان لا فائدة من استنصاره سعيداً فعزم على كتمان هذا الامر
عنه وعاد الى التفكير وهو مطرق فقال له صاحبه « ما بالك لا تفكر بمولانا
ملك النوبة وانت تعلم نفوذه على البجاة فانهم لا يخافون سطوة سواه كما تعلم
أو هم يكرمونه على الاقل »

قال « اعلم ذلك وقد خطر ببالى ان استنجده ولكنه لا يعرفنى وبلده
بعيد وأخاف أن اضيع الوقت بالسفر اليه في أطراف النوبة ثم اعود بالفشل

ويذهب سعي عبثاً

فقال « أما أنت نصراني ؟ »

قال « نعم »

قال « ألا تعلم تمسك ملكنا بالنصرانية وغيرته عليها ؟ »

قال « أعلم . . » وانته لرأي اشرق وجهه له وقال « قد فطنت

لوسيلة تضمن النجاح . فطنت لما تريد ان تقوله . . ستقول لي ان استنجد
أحد اساقفتنا ليتوسط لي لدى ملك النوبة ولكنني اقدر ان اوسط البطريرك
نفسه »

فصاح الرجل عند ذلك قائلاً « بورك فيك هذا احسن رأي واذا اتبعته

فانك نائل ما تريد . . اذا استطعت ان تأخذ كتاباً من البطريرك الى ملك
النوبة يوصيه بك فانه فاعل ما تريد . . »

فلم يتالك زكريا عن القيام للحال ومد يده فودع صديقه وقال

« اعذرني على سرعة الذهاب فقد استصوبت رأيك وانا عامل به والوقت
ثمين »

قال « الا تنام هنا الليلة وتسافر في الصباح »

قال « دعني اذهب لاعداد ما يلزم . . » قال ذلك وتحول قاصداً

الفسطاط من جهة الشاطيء .

ولما اطل على حصن بابل ووقع بصره على دير المعلقة عرفه من نور

معلق بياب الحصن فتذكر دميانة والاسقف ومرقس وتذكر البطريرك

مخائيل وهو يعلم انه في دير ابي مقار بالصحراء الغربية في وادي النظرون

والطريق اليه شاق ولا بد من التأهب للمسير فيه

ووصل الفسطاط وقد اغلقت ابوابها فبات في مكان خارجها ولما

فتحت الابواب دخلها متكرراً حتى اتى الخان واخذ يتأهب للسفر الى دير

ابي مقار وقد علم ان المسافة اليه بعيدة سيقطع في اثناها النيل والصحراء

الغربية

ورأى لتمام الحيلة ان يتنكر بلباس الرهبان وحدثته نفسه ان يركب

فرس مرقس الذي أتى به من طاء النمل ولكنه خاف ان يتم عليه فيذهب
تسكره عبثاً فباعه لصاحب الخان واشترى هجيناً خفيفاً وضع عليه رحلا
ونزل السوق فاشترى ثياب الرهينة واهمها الرداء الاسود الخاص بالرهبان
والقبعة الخاصة برهبان دير أبي مقار . قضى في ذلك يوماً كاملاً وفي المساء
أعد كل شيء على أن يسافر في صباح الغد

ولما عزم على السفر تذكر سعيداً وقال في نفسه « كيف اتركه واسافر
بدون أن يعلم مصيري ولا ماتم لدميانه فربما ذهب الى حلوان فلا يقف
على خبرها فيظنني خدعته أو ربما تولاه اليأس أو غير ذلك »

قضى ليلته وهو يفكر في سعيد ولم يتم الا قليلاً وتعاضم الامر عليه في
أثناء رقاذه - لان الانسان اذا فكر في أمر يهجمه وكان تفكيره في الظلام وهو
راقد مغمض الاجفان تعاضم عليه الوهم . فتصور زكريا أنه اذا لم يطلع سعيداً
على ماجرى يرتكب ذنباً عظيماً فلما اصبح تنكر بغير لباس البادية الذي جاء
به يوم مقابلة سعيد وخرج الى القطائع وأخذ يسأل عن المهندس النصراني
لانه كان معروفاً هناك بهذا الاسم فلم يهتد اليه . ولكنه اهتدى الى
القصر الذي أعدوه له وسأل حاجبه فقال له « خرج في مساء الامس
ولم يعد بعد »

فأخذ يفكر في ماذا عسى ان يكون حاله وكيف يخرج والى أين مع ان
ابن طولون انكر عليه الخروج وخاف ان يكثر من السؤال لئلا يشتبه
الحاجب به فرجع وخطر له في اثناء رجوعه ان سعيداً ربما ذهب الى حلوان
بعد أن بلغه سطو البجة عليها لان خبر تلك الغزاة ذاع في أنحاء المدينة .
فترجح لديه أنه ذهب الى هناك . فتوجه زكريا في ذلك الطريق لعله يلاقي
سعيداً وما مشى طويلاً حتى شاهد فارساً قادماً من طريق حلوان وتنبأ من
قيافته أنه سعيد وما عتم ان وصل الفارس فاذا هو بعينه فناداه زكريا فوقف
ولما عرفه أسرع اليه وترجل وهو يقول « اين دميانه .. ذهبت الى حلوان
فلم اجدها ولا وقفت لها على خبر . هل كنت تقول غير الواقع ؟ »

قال « كلا يا سيدي انما قلت الصدق .. ولكن . . . ألم تسمع بما أصاب حلوان ؟ »

قال « سمعت ان بعض البجاة سطوا عليها ونهبوها . فهل أخذوا دميانة في جملة السبي ؟ » قال ذلك وهو يتلعم وقد جف حلقه
قال يظهر انهم أخذوها .. وكنت ذاهباً للتفتيش عنها بدون ان أخبرك
لثلا اكدرك بلا فائدة لانك مقيد في منصبك ولا سببا الآن . ثم رجعت
امس الى رشدي ورأيت الافضل ان أراك قبل سفري »
قال « وماذا جرى ؟ اخبرني . . قل »

فقص عليه حديثه منذ فارقه بالامس وسار الى حلوان وكيف وجد
قعدان العربي وانه لم يجد وسيلة لانقاذ دميانة غير توسيط البطريرك لدى ملك
النوبة . وانه ذاهب في الغد الى دير أبي مقار »

وكان سعيد يسمع كلامه ويكاد يتميز من الغيظ فلما فرغ من السماع قال
له « لماذا لا نطلب البجاة رأساً فنحمل عليهم رجالنا ونأخذ دميانة قهراً ..
اني لا أرجع عنهم حتى آخذها . . » قال ذلك والغضب يرقصه
فقال زكريا « لا يعلم أحد مقرهم في هذه الصحراء يا سيدي وقد
فكرت في ذلك . . ثم انك اذا كلفت ابن طولون ان ينجذك بالرجال فانه
لا يجب طلبك . وهو مصيب اذا لم يفعل »

قال « مالي ولا بن طولون .. اذهب بنفسي . . . » قال ذلك مدفوعاً
بالحماس والغيرة ولو اراد مباشرة العمل لرجع عن عزمه
اما زكريا فقال له « اذا كنت ترى وسيلة لاسترداد دميانة بالقوة كما
تقول فافعل واما انا فلا امل لي في ذلك الا على الطريق الذي ذكرته
لك . . . دعني اذهب بهذه المهمة ولا أضيع الوقت سدى . . هل تأذن
بذهابي ؟ »

فتهد سعيد والدموع تكاد تترقق في عينيه لتصوره حال دميانة في
قبضة اناس وثنيين لا آداب لهم ولا دين لهم ولا شفقة في قلوبهم . . وقال
« اذهب انت وانا سأبحث عن طريقة قريبة فاذا وفقت اليها والا فانت سائر »

في عملك واذا جسد لديك شيء أخبرني . . . وأنا مقيم في القطائع هل عرفت منزلي ؟ »

قال « نعم عرفته . . . أستودعك الله اني راجع الساعة والانتكال على السيد المسيح وارجو ببركة سيدتنا مريم العذراء أن تتوصل الى الغرض المطلوب »

فدعا له سعيد بالتوفيق وافترقا

الفصل الحادي والاربعون

صحراء ليبيا

سار زكريا تَوَّأ الى الحان وقد أعد كل شيء لسفره فركب هجينه وخرج من الفسطاط فقطع النيل على جسر جزيرة الروضة وقطع جسراً آخر الى بر الحيزة . فلما صار في البر الغربي من النيل اغتم خلوة بدل فيها ثيابه ولبث ثياب الرهينة وهو نوبي اللون والملامح فأصبح كأنه راهب من رهبان النوبة . وأول شيء وجه انتباهه اليه تلك الاسطوانة التي وضع فيها آماله وآمال دميانة فانه جعلها في كيس علقه بعنقه تحت ابطه بحيث لا تظهر ولا ينتبه لها أحد . وبات تلك الليلة وبكر في الصباح فركب هجينه وسار شمالا يطلب بعض المحطات التي يمكن السفر منها الى وادي النظرون الذي فيه دير أبي مقار

والوادي المشار اليه في صحراء ليبيا غربي الدلتا على مسافة ثلاثة ايام منها يقطعها المسافر في رمال وصخور لا أثر للعارة فيها ولا يلتقى أنيساً الا القوافل الذاهبة الى ذلك الوادي لتحمل الملح أو النظرون الى الدلتا أو الراجعة بالمؤن والاطعمة للرهبان المقيمين في الاديوار المبنية في تلك البادية الموحشة

ذكر بعضهم انه كان في جوار ذلك الوادي نحو خمسين ديراً وقال

آخرون اقل من ذلك والموجود منها الآن لا يتجاوز عدد اصابع اليد
أهمها اربعة دير أبي مقار ودير الامبا بشاي ودير السرياني ودير البراموس .
أولها أقربها الى الدلتا ثم تتباعد حسب ترتيب ذكرها . وهي قديمة البناء
ربما اتصل تأسيسها بالقرن الرابع للميلاد أي عند شيوع الرهبنة في
النصرانية مما لا محل لتفصيله هنا

والذهاب الى وادي النطرون لا يأمن الذهاب وحده في تلك البادية
خوف الضلال في الطريق وحذراً من أهل السطو . ولذلك فلم يكن الناس
يسافرون الا مع القوافل جماعات ولم يكن زكريا يجهد ما يعترضه من
الخطر في ذلك السفر فلما وصل الى المحطة التي يبدأ منها الدخول في الصحراء
غربا الى وادي النطرون أخذ يبحث عن قافلة يسير برفقتها فعلم أن ركباً
يتأهب للمسير في الغد يحمل المؤونة من الزيت والحنطة وغيرها الى دير
أبي مقار . ففرح بهذه الفرصة وانخرط في سلكهم ومعهم راهبان من
رهبان الدير فسألاه عن أمره فاضطر أن يكون قوله مطابقاً لملاسه فقال
« انى راهب من رهبان التوبة »

فقال الراهب « اظنك قادماً بمهمة الى البطريرك مخائيل » وتنحج
فقال « نعم احب تقبيل يديه .. »

فلما قال ذلك التفت احد الراهبين الى زميله وتبسم كأنه ينبهه الى شيء
لاحظه فلما رأى زكريا تبسمه وإيماءه خاف أن يكون قد كشف أمره -
ويكاد المرعب يقول خذوني — لكنه تجدد والتفت الى الراهب الذي
ضحك وقال وهو يظهر عدم الاهتمام « ما بالك تضحك أيها الاخ .. العلك
لم تصدق قولى ؟ »

قال « العفو يا اخي .. ليس هذا غرضي . معاذ الله ان اشك في
قولك .. ولكنني ضحكت لامر تذكرته وقع من عهد غير بعيد . واذا
كنت آتياً من النوبة الآن فانك جدير بمعرفته . . »
فلما سمع زكريا هذا الشرط خاف ان ينكشف امره ويظهر انه متسكّر
فربما كان عليه بأس فابتسم واغضى كأنه يعرف السر ويود السكوت عنه .

واكتفى بأنه محقق وجود البطريرك غناييل هناك فوافقه الراهبان وقضوا ذلك اليوم في الاستعداد واقلعوا في صباح اليوم التالي ومعهم الخدم لسوق الجمال أو البغال وكلها للدير . وهي تحمل جراراً من الزيت واكياساً من الحنطة والعدس والفول وبعض الأقمشة غير ماعليها من الاقوات والماء للطريق وما تبطنوا الصحراء حتى اصبحوا في قفر يكتنفهم الرمل والصخور من كل ناحية كما يكتنف الماء المسافرين في البحار اذا لا يرون حولهم كيفما توجهوا الا الماء والمسافر في البادية اذا أوغل فيها لا يرى حوله الا رمالا . ومن أجمل مناظر الصحراء في النهار منظر السراب أو الآل الذي يتراءى للناظر عن بعد كأنه ماء يجري في نهر أو بحر ويرى أطلال الشجر أو الصخور في أسفل الماء كما تنعكس عن شواطئ البحور فيراها المقبل عليها من بعد

ولم تكن هذه المناظر غريبة على زكريا فقد ركب البادية مراراً ورأى السراب وقامى العذاب في شبابه ولكنه لم يأت دير أبي مقار قبل ذلك الحين ولا عرف الطريق إليه فكان معوله على رفاقه . ورآهم في قلة من الرجال فقال لهم وهم يسوقون هجهم ضحى ذلك اليوم لا يسمع لها خطو على الرمال « أراكم في قلة وعهدي ان القافلة اذا لم تكن قوية يخشى عليها من قاطعي الطريق هناك »

فقال أحد الراهبين « كان ذلك قبل ولاية ابن طولون فانه أحسن الظن بالاقباط ومنع التعدي عنهم فأصبح الواحد والاثنان يسافرون منفردين ولا خوف عليهم »

فقال زكريا « صدقت ان حال مصر في ظل هذا الامير لم يسبق له مثيل بعد امراء العرب في أول الفتح »

الفصل الثاني والاربعون

الاشباح

واستراحوا نحو الاصيل وتناولوا الطعام وعادوا الى المسير حتى أمسى المساء فنصبوا خيمة خفيفة الحمل للمبيت فيها . وجلسوا للطعام وقد دنت الشمس من الافق وأخذت تستطيل حتى صارت كثرة الشكل واحمر لونها وأحاطت بها هالات من الشفق باهرة الالوان مما يسحر العقول - ولو كان اهل تلك القافلة من الشعراء لوقفوا مبهورين لهيئة الطبيعة وخيل لهم انهم يسمعون خطيباً يعظم أمر الخليفة ويستعظم سرها - لا يخطر للانسان عظمة هذا الكون وكبر شأنه الا اذا خلا في موقف طبيعي مثل هذا . وأما في المدن فتشغله الجواذب والدوافع ويلهو بملذاته ومطامعه . ولكن اصحابنا الرهبان لم يكونوا من الشعراء ولا استأنفت ذلك المنظر انتباههم وانما شغلهم عنهم عن كل شاغل فذهبوا الى الرقاد على ان يقاموا في الغد فيصلوا دير أبي مقار قبل الغروب

وكان زكريا أكثرهم رغبة في الوصول لانه حالما تبطن الصحراء خطرت دميانة في باله لانها اخذت الى مثل هذه البادية واصبح سريع الرغبة في استحداث هجينه للوصول الى الدير لكنه لم يشأ أن يترك رفاقه لان جمال الحمل تمشي ببطء بخلاف المهجن . فخطر له ان يستأذن رفاقه في صباح اليوم التالي ليسبقهم وحده فلما سألم انكروا عليه انفراده فوافقهم واقاموا في الصباح وساروا وهم يقطعون منخفضات ومرتفات ليست من قبيل الوردية والحبال وانما هي تعاريج لا يبرح معها المسافر كيفما توجه يجد نفسه محاطاً بالتلال الصخرية أو بروابي الرمل

وفي أصيل ذلك اليوم أطلوا من حافة ذلك السهل على واد عظيم فيه آثار ايدي الانسان من الابنية المتفرقة وبعض الاشجار المبعثرة

وأول بناء كبير وقع نظرهم عليه دير ابي مقار بقرب فتحة الوادي عن بعد شاسع وحلما أطلوا عليه اشرفت وجوههم وقال احدهم « هذا هو الدير » فقال زكريا « لا بد من الوصول اليه الليلة ؟ » قال ذلك بنعمة الاستفهام دليلا على رغبته في الوصول وخوفاً من تباطؤ القافلة فاجابه الراهب « اظننا نصل . واذا لم نصل ففي صباح الغد . . واذا كانت الليلة مقمرة نواصل السير ليلا حتى نصل . اذ يظهر لي انك مستعجل في مهمتك يا أخ » وضحك فعلم زكريا أنه يقول ذلك على سبيل المزاح لانهم عرفوا من الامس ان الليلة مظلمة والقمر في آواخر ايامه فادرك انهم يمازحونه أو يعشون به فلم يجهم وتشاغل باصلاح رحل جملة تحته . وبينما هم سائرون وعينا زكريا نحو الدير وقع نظره عند أول الوادي على أشباح راكبين على هجن ولم يستطع تمييزهم لبعدها المسافة فقال لاقرب الراهبين اليه « اني ارى اناساً ودواب من هم ؟ »

فنظر الراهب الى الوادي وتفرد قايلاً ثم قال « ألا تراهم خارجين من الوادي انهم من التجار يحملون احمال الملح والنظرون أوربما حملوا القش الذي يصنعون منه الحصر فانه كثير هنا » فقال « لا أرى معهم احمالاً مما ذكرت واذا كانت معهم احمال فينبغي أن تكون أقل من ذلك كثيراً »

وكان الراهب الآخر يتفرد في الاشباح فلما سمع جواب زكريا قال « صدقت .. احسبهم من تجار الزجاج لان في هذا الوادي معملاً يصنعون فيه الزجاج بنفقة أقل من نفقته في الفسطاط فيبتاع التجار من هذا كميات كبيرة يحملونها الى الاسواق »

فقال زكريا « لم اكن اعلم أن الزجاج يصنع في هذه الارض المنقطعة » فقال الراهب « هو يصنع هنا من عهد دولة الروم ولا يزال ^(١) » فسكت زكريا . وبعد هنيهة توارت تلك الاشباح وراء التلال ولم يمودوا يرونها وطفقوا سائرين في طريقهم وعيونهم نحو الدير ولا سيما

زكريا فانه كان اكثرهم رغبة في الوصول وزاد قلقه لما شاهد الشمس تقرب
من الافق خوفاً من تخيم الظلام قبل الوصول
وهم في ذلك رأوا هجاناً ظهر من وراء راية وعليه العباءة والكوفية
أوقف هجينه لحظة ثم أشار اشارة وتقدم وظهر وراءه بضعة جمال على كل
منها راكب وكلهم مسلحون بالرمح . وراهم زكريا يتقدمون نخاف لانه
توسم فيهم الغدر اذ لم ير معهم احمالاً فالتفت الى رفيقيه الراهبين فرآهما قد
تغير وجهاهما فقال « يظهر أن هؤلاء ليسوا تجاراً.. وأظنهم من الاعداء
فان البستهم عربية »

ولم يتم كلامه حتى رأى القوم يسوقون هجينهم نحوهم وقد اشرعوا الاسنة
فتحقق انهم من الاعداء فأخذ يتأهب للفرار واذا بهجان منهم تقدمهم وهو
مثم وأشار بيده كانه يقول لهم « ففوا عندكم »
فقال زكريا « ماذا تريدون .. من اتم ؟ »

وكان قد وصل الهجان اليهم ففارس بزكريا ولما تبينه قال له باللغة
القبطية « الست قادماً من النوبة ؟ قف ولا تتحرك »

فرآه زكريا يتكلم القبطية كأنه واحد من أهلها مع أن لباسه عربي
فاشكل أمره عليه وقال في نفسه « لا يمكن أن يكون هذا عربياً . . فلعله
جاسوس من الاقباط يعين العرب عليهم » وزاده تلثمه شبهة به لكنه شغل
بالخوف منه عن البحث في شأنه

فتحقق القوم عند ذلك أنهم مأخوذون وعلم زكريا أن رفاقه لا
يستطيعون الفرار لثقل أحمالهم أما هو فخمه خفيف وليس عليه ما يمنعه من
الاسراع فهياً للفرار وقد استغرب قول الرجل انه راهب نوبي . فتقدم
الراهبان وأرادا الاستفهام عما يريد أولئك فقال احدهما يخاطب ذلك
الهجان « ما الذي تبغونه منا »

قال « اتركوا الاحمال وانجوا بانفسكم »

قال « اتنا نحمل طعاماً للدير .. ولم نعهد احداً تعرض لنا قبلاً لانا

اصدقاء الامير صاحب مصر »

قال « لم تتعرض لكم قبلا اما الآن فاتم أعداؤنا ... واذا لم تتخلوا عن الاحمال قتلناكم فانجوا بانفسكم »

فتحقق الراهبان وزكريا انهم مغلوبون على أمرهم لان اولئك يزيد عددهم على عشرة بالسلاح الكامل وهم لا سلاح معهم فضلا عن قلة عددهم فاخذوا يتوسلون اليهم ان يتخلوا عنهم وانهم يستغربون هذه المعاملة التي لم يسبق لها مثل منذ عدة أعوام فقال اولئك « لا تسألونا عن السبب بل اسألوا بطريرككم وهو يخبركم » قالوا ذلك وهم يهددونهم بالقتل اذا لم يتخلوا عن الاحمال وينصرفوا

فتقدم زكريا يريد ان يستعظهم وقال « ان هذه الاحمال طعام لرهبان يقيمون في هذا الدير لا اذية لهم وقد اوصى نبيكم بحسن معاملتهم فهم لم يرتكبوا خطيئة ولا اتوا منكراً يوجب هذا العداء »

فانتهره ذاك الرجل وقال له « كانوا كذلك وقد افسدتموهم يا معشر النوبة . . . وسترون عاقبة امركم قريباً . . . واذا قلت كلمة اخرى اخرجنا ما تخفيه بين اثوابك من الرسائل »

الفصل الثالث والاربعون

الفرار

نخاف زكريا اذا اصر على الانكار وبخثوا بين اثوابه ان يعثروا على الاسطوانة تحت ابطه فيأخذوها وتذهب آماله عبثاً ولم يعد يعلم ماذا يعمل لينجو قبل ان يقبضوا عليه وهم اذا أرادوا قتله لا يمنهم شيء فتظاهر بالاستخفاف والتجاهل وقال « فتشوني اني لا احمل شيئاً وانما جئت لأني نذراً لهذا الدير وانا اشير على رفاقي أن يتخلوا لكم عما معهم ويتبعوني قبل أن يشتد الظلام فيضلوا عن طريقهم » قال ذلك و اشار الى الراهبين ان يتبعاه ووخز جملة فطار به وكانت الشمس قد غابت وتكاثفت الاطلال فزاد

القوم رغبة في القبض على زكريا لما آانسوه من رغبته في الفرار فصاحوا به
« قف عندك »

ولكنه كان قد اطلق لهجينه العنان فاقتفى اثره اثنان منهم . وكان قد
تعود ركوب الجمال في شبابه وقد نسيه لطول الترك لكن رغبته في النجاة
وخوفه من وقوع ذلك الانبوب بأيدي القوم جدد نشاطه واحيا شبابه
قثبت على الرحل ثبات الحيات ولكن مطارديه من اهل البادية الذين
شبهوا على ظهور الجمال ، فلم يطارداه إلا قليلا حتى أحس انهما كادا
يدركانه . وكان الليل قد أسدل نقابه واصبح على مقربة من دير ابي مقار
عرف ذلك من مصباح موقد هناك لاهداء القادمين . فلما ايقن بالهلاك ضاع
رشده وارتبك في امره وعثر الهجين برايسة من الرمل فاختل موقفه
فهوى زكريا عن ظهره واراد ان يتمسك برقبته فخائته يدها فسقط الى
الارض فوق الرمال والهجين مازال جاحاً في عرض الصحراء . ولما وجد
زكريا نفسه على الرمال سليما استرجع رشده وركض منحرفاً عن الطريق
وأخذ يبحث عن مكان يختبئ فيه ريثما يمر الهجانان فوجد حفرة نزل فيها
وهو يتلمس جوانبها

أما الهجانان فكان احدهما قد تعب وتباطأ وظل الآخر يستحث
هجينه في اثر زكريا وقد اشرع الريح وزكريا تارة يتوارى عنه وراء
التلال وطوراً يظهر له وربما اقترب منه حتى كاد يدركه فيعيقه عنه عائق
من وعورة الطريق او غيرها فيسبقه . ولما سقط زكريا عن الجمل كان
قد بعد عن مطارده وتوارى في ظل اكمة ولم يقف هجينه بل زاد عدواً
لانه اجفل من سقوط رايكه واحس بخفة محمله ولم ير الهجان المطارد
سقوط زكريا فظل في اثر الهجين . ولم ينتبه الى ان الهجين يعدو وحده الا
بعد ان تجاوز مكان السقوط بمسافة طويلة فأيقن ان زكريا سقط وقتل
واصبح همه ان يقبض على الهجين من جملة الغنم فأخذ يتعقبه

اما زكريا فتربص في تلك الحفرة وعيناه تتعقبان الشبح الذي كان
يطارده فرآه تجاوز في اثر الهجين فاطمأن على حياته فأخذ يتجسس اعضاءه

لثلا يكون قد تعطل شيء منها فوجدها سليمة فشكر الله وعد ذلك من كرامات مار مقاريوس صاحب الدير . وافقد الاسطوانة فوجدها في مكانها تحت ابطه فاستخرج طرفها وقبلة سروراً ويقائها واعادها الى مخبئها ولبت ينتظر ما يكون من أمر رفاقه هل ينجون بانفسهم أم يذهبون في جملة الغنائم . فمضت مدة لم يعد يسمع فيها صوتاً فخرج من الحفرة والظلام شديد وتسلق راوية وأخذ يتلمس ويتفرس فيما حوله لعله يرى شيئاً أو يسمع صوتاً فلم ير غير نور الدير وقد اصبح قريباً منه فمشى نحوه وقد احس بالتعب في ساقه لكن فرحه بالنجاة من القتل انساه كل شيء

وما كاد يمشي قليلاً حتى سمع صوتاً قف له شعره وارتعدت فرائصه - سمع حفيف ثعبان ينساب على مقربة منه ثم سمع فحيحه فجمد الدم في عروقه ووقف وقوف الصم لانه كان يسمع عن الثعابين السامة في تلك البادية . وكان الظلام قد حال بينه وبين ما حوله فلم يعرف كيف يتقي اذى تلك الحية فأخذ يرسم علامة الصليب على وجهه ويستغيث بمريم العذراء ومار مقاريوس صاحب ذلك الدير وبسائر القديسين بصوت كالتمة ولو أراد لم يستطعه لجفاف حلقه من الخوف

ظل واقفاً بضع دقائق حسبها ساعات حتى بعد الحفيف عنه فتحقق نجاته لكنه ما زال يخاف من طارق آخر فاستعان الله واستجار بقديسه ومشى نحو النور الذي يراه في دير ابي مقار

الفصل الرابع والاربعون

دير ابي مقار

مشى زكريا على تلك الرمال وهو يتجسس طريقه . تارة تفوص قدمه في الرمل فيخاف أن تلدغها عقرب وطوراً تصدم صخراً أو تعثر بحصى فيجفله صوتها . وكان محتذياً نعالاً من القش كانت شائعة في وادي النيل

ينسجها بعض أهل الريف من ألياف البردي أو القنب أو البوص . كان بخطو وهو يتعثر بثوبه وافتقد قبعته فلم يجدها وكانت قد سقطت في اثناء الفرار ولم يشمر فلم يهمه أمرها وإنما أهمه الوصول الى الدير
 أقبل على الدير فوجده مربع الشكل يكتفه سور عال أشبه بأسوار قلاع الحصار طول كل ضلع من اضلاعه ١٤٠ متراً ولم يكن زكريا جاء ذلك المكان من قبل ولكنه كان يسمع ان القادم على امثال هذا الدير يقرع جرساً فوق الباب فيفتح له . فاخذ يفتش عن الباب فدار حول السور فلم يجده فاتهم عينيه بالخطأ لاعتقاده أن الديور لا يمكن ان تكون بلا ابواب . فاعاد التفتيش بدقة فوصل الى مكان من السور وجد عنده حجري رحي كبيرين قطر الواحد منهما ثلاثة اذرع فتفرس فيهما فرأى وراءها باباً لا يزيد علوه على ذراعين واذا فتح لا يدخله الانسان الا ساجداً . فمد يده الى الباب جسسه بانامله فرآه مصفحاً بالحديد الضخم بحيث يستحيل كسره وهو لم يكن يريد كسره وإنما يريد أن يعلن أهل الدير بوصوله ليفتحوا له فقال في نفسه « اذا كان هذا هو الباب فلا بد من وجود الجرس عليه أو وراءه » فتسلق على أحد الحجريين وتلمس الحائط فوجد عليه حبالا جذبه فسمع صوت الجرس وكان له دوي في ذلك الليل الموحش . وعلا نباح الكلاب من الداخل ووقف ينتظر ما يكون

وبعد هنيهة رأى اشعة نور مرسله في الفضاء داخل السور تقرب نحوه واخيراً رأى النور أصبح فوق السور يحمله راهب هرم قد أطل عن السور وهو يتناول بضعه والمصباح في يده وقد مدها نحو زكريا كأنه يستكشف حاله ووقعت اشعة المصباح على وجه الراهب فابان عن شيخ هرم قد تجعد وجهه وشاب شعره . وحالما وقع بصره على زكريا قال باللثة القبطية « من أنت »

قال « غريب قاصد زيارتكم لتقبيل انامل البطريرك والتبرك بصاحب

هذا الدير »

قال « هل انت وحدك ؟ »

قال « نعم يا اخي ألا تفتح لي ؟ »

قال « ان فتح الباب يقتضي مشقة كبيرة لازاحة الحجرين من الخارج والاحجار التي وراءه من الداخل فالأوفق على ما ارى أن ندلي لك جبلا وزرفك بالبكرة »

قال « كما تشاء »

فضى الراهب ثم عاد وادلى له جبلا تثبت به فادار الراهب بكرة كبكرة البرّ فصعد زكريا حتى بلغ اعلى السور فسلم على الراهب ونزلا من وراء الباب وقد تغطى معظمه بالاحجار الضخمة التي دعموا الباب بها. وربما زاد وزنها على عشرات القناطير فاستغرب زكريا ذلك الحذر لان نقل هذه الاثقال يقتضي وقتاً ومشقة فقال « اراكم قد اكثرتم من الدعائم للباب كانكم في حصار »

قال « لم نفعل ذلك الا هذين اليومين لاسباب ستعلمها . . تفضل الآن الى غرفة الاضياف وغداً نعرض أمرنا للرئيس »

ومشى الراهب بالمصباح أمامه بين نخلات تناطح السحاب حتى ادخله غرفة معدة للاضياف وقد أخذ التعب منه مأخذاً عظيماً فصلى فرضه ونام ودير أبي مقار عبارة عن السور الذي ذكرناه وفيه خمسة ابنية : ثلاث كنائس وبناء لسكن الرهبان وقضاء حوائجهم من اعداد الطعام وتناوله وبرج عال يقال له القصر وفيه ذخائر الدير من الكتب أو الابنية القديمة . ويتخلل هذه الابنية نخيل وبعض المغروسات التي يحتاجون اليها في اصلاح الطعام

والكنائس المشار اليها هي : (١) كنيسة ابي مقار على اسم صاحب الدير (٢) كنيسة الشيوخ (٣) كنيسة اسخرون . والبناء الذي فيه مساكن الرهبان عبارة عن دار واسعة تحيط بها غرف بعضها للنام وفيها غرفة مستطيلة للطعام وحجرة كبيرة للطحن واخرى للخبز واخرى للطبخ . اما القصر فانه مؤلف من طبقتين السفلى اقية معقودة فيها خزائن الكتب أو غيرها من الذخائر الثمينة كاللبسة أو التيجان أو الصلبان ونحوها

ومخازن المؤونة للزيت والحنطة وفيها منافذ سرية يلجأ اليها الرهبان عند الخطر العظيم اذا أخذ ديرهم

وفي الطبقة العليا من هذا القصر ثلاثة معابد أحدها على اسم مارسواح والاخر لمار انطانيوس والثالث باسم مار مخائيل . وفي هذا المعبد الاخير البطاركة الذين ماتوا هناك مخططة في توابيت . والقصر حصين قد احتاطوا لمنع الاذى عنه بان جعلوا بابه في الطبقة العليا لا يمكن الصعود اليه الا على سلم أو جسر مدرج واصطنعوا له سلهماً مستقلاً ضخماً الشكل ثقيل الحمل ينصب عليه عند الحاجة فاذا انزل عنه لا يمكن رفعه الا بالآلات الرافعة أو يتعاون في نصبه عدة رجال (١)

وافاق زكريا في صباح اليوم التالي على صوت الناقوس للصلاة باكراً فهض واسرع مع سائر الرهبان لحضور القداس في كنيسة ابي مقار وهي افخم تلك الكنائس واجملها فيها ثلاثة هياكل اكبرها الهيكل الاوسط مساحته ٢٥ قدماً في ٢٠ عليه قبة مبنية من القرميد على طراز جميل وعلى جدرانها صور بعض القديسين وفي وسطها مذبح من الحجر وراءه مقاعد كالمذبح

فاصطف الرهبان لسماع الصلاة وعددهم بضع عشرات بينهم عدة قسوس يتقدمهم البطريرك بلباس الصلاة ورئيس الدير . وكان زكريا يعرف البطريرك من قبل وقد شاهده مراراً في كنائس مصر لكنه رآه الان قد تغيرت ملامحه وبانت الشيخوخة في جبينه ولحظ فيه انقباضاً لم يعهد به مثله فقال في نفسه « لامر ما تغير البطريرك » وزاد رغبة في ملاقاته . فاقامت الصلاة بالقبضية على جاري العادة وليس في الجمع غريب غير زكريا فاستلفت وجوده انتباههم واصبحوا ينتظرون الفراغ من القداس لسماح حديثه

الفصل الخامس والاربعون

البطيرك مخائيل

أما هو فحالما انقضت الصلاة وخرج البطيرك والرهبان ذهب الى الراهب الذي استقبله في الامس وطلب اليه ان يقدمه الى البطيرك فاستمهله الى ما بعد الفطور ودعاه الى الطعام في غرفة مستطيلة في وسطها مائدة طويلة من الحجر الى جانبها مقاعد يجلس عليها الراهبان في صفيين . فاجلسوه معهم وجاء الطعام وهو في غاية البساطة لا لحم فيه ولا فاكهة وأخذوا يأكلون بعد صلاة مختصرة الا راهباً منهم تولى قراءة فصول من الكتاب المقدس في أثناء الطعام

وكان زكريا يأكل وقلبه مشتغل بما سيدور بينه وبين البطيرك من الشؤون التي جاء من أجلها أو اتفقت له في طريقه . وقد تحقق ضياع المؤونة المحمولة الى الدير والذين حملوها اذ لم ير واحداً رجع منهم الى تلك الساعة . وكان الراهبان يتحادثون ويشركون زكريا في حديثهم وهم يحسبونه راهباً مثلهم

فلما فرغوا من الطعام تقدم الراهب الشيخ الى زكريا ان يتبعه الى غرفة رئيس الدير فقدمه اليه فاسرع زكريا الى تقبيل يده فرحب به وسأله عن حاله وغرضه فقال « جئت لمقابلة ايينا البطيرك »

قال « أعلك من رهبان النوبة ؟ »

فوجم هنيهة ولم يجب فراراً من الكذب ثم قال « كلا يا سيدي وانما لبست هذا الثوب لسبب سأعرضه على مولانا البطيرك »

قال « حسناً . ولكن غبطته مشغول الآن ربما لا يرضى بمقابلة

أحد . . »

فأطرق زكريا ووجد نفسه غير قادر على الصبر فقال « أود مقابلته

الساعة واذا أذنت ان تسأله لعله يسمح بمقابلتي فاني قادم بمهمة »
قال « احسبك قادماً من بلاد النوبة .. »
قال « كلا »

ففهم الرئيس انه يكتم شيئاً لا يريد التصريح به فاستمطه ريثما يبعث الى البطيريك . فمكث زكريا حتى عاد الرسول وهو يقول « ان غبطة البطيريك ليس في غرفته »

فقال الرئيس « كيف ذلك ؟ ألم يتناول الفطور ؟ »

قال « يظهر انه لم يأكل اليوم »

فهب الرئيس رأسه هزة الاسف وقال « لم أر غبطته في قلق مثل هذا القلق منذ عرفته .. سامح الله من سببه له » قال ذلك وندم عليه فابتدر الرسول قائلاً « اجثت عن غبطته في القصر لعله ذهب الى هناك فقد رأيت يكثر التردد الى كنيسة مار مخائيل هذين اليومين »

فذهب الراهب الرسول وعاد وهو يقول « نعم انه في القصر وقد كلفت شماسه ان يسأله عن عزم اخينا مقابلته فقال ان غبطته لا يقابل احداً الآن لانه في شاغل خاص .. »

فرأى زكريا ان يقتحم هذا الامر ويطلب مقابلته لاعتقاده الدالة عليه منذ عرفه في مصر فوقف زكريا وقال للرئيس « بأذن سيدي الرئيس ان يرافقني الاخ الى الشماس وأنا استأذنه »

فاشار الرئيس الى الراهب فمشى مع زكريا حتى خرج من تلك الدار واطل على القصر الذي ذكرناه وهو أشبه بالابراج منه بالقصور فوجد السلم منصوباً عليه فصعد الراهب وزكريا في أثره حتى وصلا الى الطبقة العليا فاستقباهما الشماس وتصدى لهما ولسان حاله يقول « ألم أقل لكم ان غبطته مشغول ؟ »

فلما رآه زكريا عرفه وتذكر انه التقى به مراراً فتقدم اليه وحياء فلما سمع صوته عرفه فقال « زكريا ؟ »

قال « نعم يا سيدي »

قال « ما الذي جاء بك الى هذا المكان ؟ »

قال « جئت لاقبل انامل البطريك »

فنهده وقال « انه يصلي في معبد مار مخائيل . . لا يدخل عليه أحد »

قال « ولا انا ؟ فقد قطعت السهل والحيل وتحملت المشقة من طاء

النمل الى هنا ألا يؤذن لي بمشاهدته ! »

فلما سمع ذكر طاء النمل تذكر اجتماعه بصاحبها مرقس هناك فقال

« واين هو المعلم مرقس ! »

قال « هو في القسطاط . . استأذن لي البطريك في الدخول . . »

قال « ماذا أقول له »

قال « قل له ولدك زكريا خادم دميانة يطلب تقبيل يديك »

قال « وهل يكفي هذا لتعريفك »

قال « يكفي »

فدخل الشماس وعاد ووجهه منبسطة وقال « ادخل ومشى » بين يديه

حتى اقبل على معبد مار مخائيل وأشار اليه أن يتقدم ورجع

الفصل السادس والاربعون

حديث ذوشون

أطل زكريا على تلك الكنيسة الصغيرة وهي غرفة واحدة قسمت الى هيكل وخورس بحاجز من خشب لا يبلغ السقف قائم بخمسة أعمدة عليها بعض النقوش والصور . وكان يتوقع ان يرى البطريك واقفاً الى المذبح للصلاة في وسط الهيكل فلم ير غير قلنسوته هناك فوقف لعله يراه قادماً أو يسمع صوته يناديه واذا هو قد أطل من وراء الحاجز فاجفل زكريا عند رؤيته لما في وجهه من التغير وهو حاسر الرأس وقد تدلى شعره على قفاه

وخديه وتجمعت لحيته واحمرت عيناه كأنه آت من وراء موقد تكائف دخانه ولما وقع بصره على زكريا دار من وراء الحاجز حتى خرج اليه وهو يقول « من اين انت آت ؟ »

فتهيب عند سماع صوت البطيريك مع ما شاهده في وجهه من آثار التيسج واكب على يده ليقبلها باحترام فتمعه فوقف مطرقا وقد أحنى رأسه وقال « اني آت من الفسطاط ياسيدي »

قال « كيف فارقت أسقفها ؟ » وتشاغل باصلاح شعره وظهر من غنة صوته انه يضرر شيئاً

فادرك انه يشير الى كتاب كان قد كتبه اليه يستنجد به فيه على ذلك الاسقف فأعجبه ولم تنفع نجده فحاف زكريا ان يكون قد ساء ذلك فقال « فارقته في خير »

فامسك البطيريك بيد زكريا ودعاه الى الجلوس بين يديه وجلس على كرسي فتباطأ زكريا في الجلوس اجلالاً لمقام البطيريك فألح عليه فقمعد على الارض مطرقاً متأدباً فقال البطيريك « فارقت أسقف الفسطاط في خير.. وكيف فارقت تلك الفتاة المظلومة ؟ »

قال « انما جئت بشأنها ياسيدي » وتهد وسكت ثم قال « ان هذه المسكينة قد توالى عليها النوايب والاحن . . واذا سألتني عنها قصصت حديثها عليك غير اني التمس من مولاي البطيريك أن يأذن بسؤال ارجو أن لا يرضن بالجواب عليه - هل أسأل ؟ »

فتهد البطيريك تنهداً ختمه بزفير طويل ثم قال « ستسألني عن أمور استغربتها في . . ستسألني عن حالي .. أليس كذلك ؟ »

قال « بلى يا سيدي . . كنت قادماً اليك بمهمة استنجدك فيها فشغلت عنها بما أراه فيك من الانقباض والغضب وعهدي اتا في زمن صاحب مصر الحالي ابن طولون في أمان وسكينة فهل حدث تغيير لا اعلمه ؟ »

قال « حدث أشياء كثيرة اساء بها ابن طولون معاملتنا وبالغ في

اضطهادنا بما لم يسبق الى مثله سلفاؤه الذين كنا نسمع بظلمهم ونشكو جورهم ولكنهم لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه . . ان الشر جاء من عندنا . . جاء من أبنائنا . . هم الذين ساقوا هذا البلاء علينا . . « قال ذلك ولحيته ترقص من الغضب

فتهيب زكريا ولم يجسر على الاستيضاح فظل ساكناً فاستأق البطيرك الكلام قائلاً كأنه يريد تغيير الموضوع « كيف أتيت الى هذا المكان؟ هل أتيت وحدك؟ »

قال « نعم ياسيدي » وتذكر ما جرى له وما أصاب الراهبين واحمالها فتحقق ان لحادثهما علاقة بما يشير البطيرك اليه فقال « اصطحبت ركباً آتياً باحمال المؤونة الى هذا الدير »

فقطع البطيرك كلامه قائلاً « وماذا جرى لهم؟ أين هم؟ »

فقص عليه حديثهم باختصار ولما ذكر كلام ذلك الهجان عن تغير ابن طولون على الاقباط قطع البطيرك كلامه قائلاً « هذا ما أشرت اليه في أثناء حديثي » ورفع رأسه وقال « ويلاه . . آه ياربي ومخلصي لماذا أغلظت قلوب حكامنا علينا »

فازداد زكريا رغبة في معرفة الحقيقة فقال « وما الذي جرى ياسيدي لقد شغلت بالي .. »

قال « ماذا أقول لك وقد بعث الي ابن طولون بالامس يطلب مالا قال هو في حاجة اليه ليرسله الى الخليفة في بغداد » ومد البطيرك يده الى جيبه واستخرج درجاً فتحه وقال « هل تقرأ القبطية »

قال « نعم ياسيدي اقرأها »

فدفع الدرج اليه وقال « اقرأ »

فتناوله زكريا وقرأ فيه ما ترجمته « انت تعلم ما هو واجب علينا من تأدية أموال الجزية الى خزانة الخليفة ببغداد صاحب هذه الديار مع ما هو عليه الآن من الاحتياج الى نفقات الحرب . فمن كان في مركز أيها البطيرك لا يحتاج الى اكثر من نفقات الطعام واللباس . وقد علمت انك

ذو ثروة طائلة من نقود وآنية ذهب وفضة وأنواع الاقمشة الحريرية وقد استدعيتك بوقار لا باضطرار فادفع مما لديك لابعث به الى الخليفة فتحظى مني ومنه بمئة جزيلة^(١)

فلما فرغ زكريا من القراءة دفع الدرج الى البطريرك وقال له « من أين نأتي بهذه المطالب ؟ »

قال « لا أدري . . وقد كتبت اليه أشكو عذري وفقر الاديرة فلم يصح . وفي عزمي ان اوسط كاتب المادراي في ذلك »

فلما سمع زكريا اسم كاتب المادراي تذكر اسطفانوس فاطرق وتغيرت سحنته فادرك البطريرك فيه ذلك وقال « ما بالك يا بني ؟ ما الذي غيرك ؟ »

قال « تذكرت أمراً جرى لنا في الفسلاط وحديثاً سمعته منك فلاح لي ان هذا التعدي ليس أصله من ابن طولون »

قال « ألم أقل لك ذلك ؟ . . انه من أبنائنا . . » وتهد وقال « لقد أطلت الكلام واطلقت لنفسي العنان معك ولم أخاطب احداً سواك بهذا الامر . . لا ادري كيف وجدت راحة بالحديث معك . . هل تعرف سبب هذا الغضب ؟ »

فتعلم زكريا وبالغ في التأذب وقال « لا اجهل ضعتي وتنازل غبطة البطريرك في محادثتي فان مثلي لا يحلم بهذا الاكرام . . »

فقطع البطريرك كلامه قائلاً « كلا . ليس هذا مرادي . . وليس في النصرانية تفاضل بين ابناءها . وما البطريرك إلا والد والرعايا اولاده لافرق بين خادمهم ومخدومهم . وزد على ذلك اني استلذ الحديث معك وارتاح لباسطتك وبناء عليه فاني أحب أن اطالع على ما عندك . هل تعرف سبب هذا الغضب ؟ »

قال « اذا سمحت لي قلت ما يخطر ببالى »

قال « قل »

قال « اتذكر يا سيدي يوم كتبت اليك استنجدك على أسقف القسطنطينية ؟ »

قال « نعم اذكر . . وقد كتبت اليه أوصيه بالفتاة خيراً »

قال « اظن كتابك ساء ولا يخلو أن يكون حمله غضبه على الوشاية » فقال البطريرك « لا يخلو ان يكون ذلك ساقه الى النكابة بي . . ولكنني أعرف سبباً آخر كان له تأثير أعظم . . ومنه يتبين لك أننا نحن معشر المسيحيين نحمل حكامنا المسلمين على ظلمنا . . وما ذلك الا من فساد نياتنا وكثرة خطايانا . . » قال ذلك وتحنح وبلع ريقه

فتناول زكريا لسامع ما سيقوله البطريرك

فقال البطريرك « السبب الآخر الذي اعرفه أني دعيت مع رهط من الاساقفة لتكريس كنيسة جديدة في جهة دنشور من ابرشية سخا فتأخر أسقف هذه الابرشية عن الحضور فبدأت بالصلاة قبل حضوره فلما جاء غضب وهجم علي وأنا اقدم القربان المقدس وخطفه من يدي والقاه على الارض وخرج فعمدت جمعاً حكماً بقطعه من وظيفته فاضمر لي السوء ودس الى ابن طولون أن عندي أموالاً كثيرة فبعث الى ابن طولون بذلك الكتاب . . لا بأس ان الله لا ينصر الظالمين والسيد المسيح لا يتخلى عن رعيته » ووقف البطريرك فجأة فوقف زكريا حالاً ومحفز للخروج فامسكه البطريرك بكتفه وقال « تعال معي » ومشى به نحو الحاجز الذي كان البطريرك وراءه فادخله الهيكل ولم يقع بصر زكريا على ما هنالك حتى اجفل وتراجع والتفت الى البطريرك لفظة استغراب وعيناه شاخصتان من الرعب فقال له البطريرك « لا تخف يا بني ان هذه الجثث التي تراها امامك هي جثث آباؤنا الابرار اسلافنا البطارقة الذين تقدموني على هذه الديار (١) وقد حفظت محنطة هنا احتفاظاً ببقاياهم ولما اشتد بي القلق في الليل الغابر بكرت في هذا الصباح ففتحت هذه التوايت وجعلت اتفرس بهذه الوجوه لاقرب بصوراتي من العالم الثاني وأعملت الفكرة عمى ان يفتح على برأي يفتدي

وينقذ أولادي الاقباط من هذه الورطة وشعرت وانا منفرد بهذه الرمم كاني في مجلس شورى مجرد عن العالم . . . وكم تمنيت لو نطقت الجثث ولكني استرشدت بارواحها »

الفصل السابع والاربعون

حديث زكريا

وكان زكريا واقفاً وهو يرتعد من هول ذلك المنظر الرهيب ولم يكن يعلم ان البطارقة تحفظ جثثهم هناك على هذه الصورة . . . وتفرس بها فرآها لا تزال محفوظة كما تحفظ محنطات الفراعنة واذا هو بالبطيريك قد تناول قلنسوته وكان قد وضعها على المذبح فلبسها وقد اشرق وجهه وذهب انقباضه فلما رآه زكريا منبسط الوجه سري عنه وأن له ان يفاخحه بما جاء من اجله ولكنه تمهل حتى يرى فرصة مناسبة

أما البطيريك فتحول للخروج من ذلك المعبد وهو يقول « لقد آن لك أن تقص علينا ما جئت من اجله يا زكريا »
فاستبشر وقال « هل أقول الآن »

قال « قل ولكني لم أسألك عن هذا الثوب الذي عليك . . . أي متى دخلت الرهينة » قال ذلك ومشى وزكريا الى جانبه والوراء
قال « لم اترهب ياسيدي ولكني تنكرت بهذا اللباس في اثناء الطريق وقد أخذ اولئك اللصوص سائر ثيابي فلم استطع تبديله »

قال « اتعلم أن هذا التنكر بعث على زيادة النعمة عليك »
فانتبه زكريا لما سمعه من ذلك الهجان فقال « علمت ذلك من كلمة قالها أحد اللصوص ولكني لم افهم السبب »

فقال « أحب ان تعرف السبب » وصفق فجاء شماسه مهرولا فقال له

« ائزل بنا الى الطبقة السفلى لنستخرج الكتاب الذي جاءنا بالامس من ملك النوبة »

فمشى الشماس أمامهما وتبعاه فنزل بهما في سلم سرري داخل القصر حتى بلغ الى حجرة رأيا فيها كتباً متراكمة وفي جملتها صندوق فيه ادراج كثيرة تناول الشماس كتابا منها دفعه الى البطريرك ففتحه وقال « هذا كتاب ملك النوبة ارسله الينا يدعو فيه الى خلع طاعة المسلمين والاتحاد معه عليهم باسم دولة الروم . . وقد علمت من نصه انه أرسل كتابا قبله لم يصلنا فالظاهر انه وقع في أيدي المسلمين واطلعوا عليه. وقد فهمت من رسول ابن طولون انهم عارفون بهذه المراسلات فظنوني موافقاً لهذا الملك على غرضه وأنا بريء من ذلك لاني لا أرى فائدة منه فالظاهر انهم لما رأوك بهذا اللباس وانت نوبي ظنوك رسولا الي من ملك النوبة »

فانتبه زكريا لذلك السبب وقال « صدقت ياسيدي ان محاولتنا التخلص من سلطة المسلمين لا فائدة منها ولا سيما بعد ان تولى ابن طولون فانه .. » فقطع البطريرك كلامه قائلاً « انه لا بأس به ورغم ما ذكرته لك من أمره معي فاني لا احمله تبعه ذلك وإنما التبعة علينا نحن فانتا نحرض حكمانا على ظلمنا بسوء تصرفنا وفساد نياتنا » قال ذلك وهو يكاد يفص بريقه . وكانه اكبر ان يظهر هذا الضعف فععد الى تغيير الموضوع فقال لزكريا « لقد شغلناك عما جئنا من اجله وامتد بنا الحديث فقل ما الذي تريده منا » وكانا قد خرجا من القصر واقتربا من غرفة البطريرك فدعا الرئيس زكريا ان يتبعه الى غرفته فتبعه فدخل البطريرك وجلس و اشار الى زكريا ان يجلس ويقول ما يريد فجلس وأخذ يقص حديث دميانة وما قاسته من معاملة والدها وخطيبتها حتى هرعت الى حلوان وكيف سطا البجة على هذا البلد ونهبوه وسبوا أهله وفي جملتهم دميانة وانه جاء ليوسطه في استنصار ملك النوبة لانقاذها

وكان البطريرك يسمع الحديث وهو مطرق يهز رأسه حيناً بعد حين استنكافاً من تصرف مرقس أو اسطفانوس فلما سمع خبر اسر دميانة بغت

وقال « دميانة . . . اسرت ؟ . . انها لا تستحق ذلك لانها تقية ورعة . .
 كأن فيها بركة من سميتها القديسة دميانة عليها السلام . ولكن الله يجرب
 خائفيه . . والآن سمعتك تطلب وساطتي لدى ملك النوبة ؟ »

قال « نعم يا سيدي ان لم يكن في ذلك ثقله عليك »
 قال « ذلك واجب علي من عدة وجوه أولا لاني انما قبلت هذا
 المنصب لخدم مصالح شعبي وأبذل ما في وسعي لراحتهم وسعادتهم ثانياً لاني
 أحسن الى هذه الفتاة واحبها لتقواها وورعها . ثالثاً اني احب أن احب
 ذلك الملك على كتابه ولا أتق بمن يوصل كتابي اليه وأنت ولدنا وتعرف
 تلك البلاد فساء كتب كتابا ارد فيه على ما كتبه الي بشأن القيام على الدولة
 اقبح رأيه هذا وادعوه الى الطاعة واذيل الكتاب بالتوصية اللازمة حتى
 يساعدك في ما تريده »

فطأ طأ زكريا رأسه اذعانا وارتياحاً وسكت . فصفق البطيريك فجاء
 الشماس فقال له « اكتب الى ملك النوبة كتابا فحواه كذا وكذا (و ذكر
 الفحوى) وذيله بالوصاية بولدنا زكريا ليساعده في انقاذ بنتنا التقية دميانة »
 فأشار مطيعاً وخرج ثم عاد ويده صحيفة من القباطي وقد كتب عليها
 بالقبطية شرحاً طويلاً وتاولها البطيريك وقرأها ووقع عليها وأعادها الى
 الشماس فطواها وافها بمنديل وختم المنديل ودفعه الى زكريا فتناوله وقبله
 واكب على يد البطيريك يقبلها ووضع المنديل في الكيس تحت ابطه مع
 الاسطوانة العزيزة وقد تهلل وجهه فرحاً وظل واقفاً كأنه ينتظر أمر
 البطيريك فقال له يظهر انك في عجلة . . »

قال « ألا ترى يا مولاي ان اتعجل الوصول الى بلاد النوبة لانقاذ
 دميانة . .؟ فاني لا اعلم حالها »

قال « صدقت . . بادر الى المسير وليكن الله معك والسيد المسيح
 ينصرك ويأخذ بيدك . . » وأشار بيده اشارة البركة . ثم التفت الى الشماس
 وقال له « قل للرئيس ان يزود ولدنا زكريا بما يحتاج اليه في طريقه . . »
 والتفت الى زكريا وقال « كيف يجعل طريقك »

قال « أرى أن أسير في الطريق الذي جئت به في الصحراء الى النيل ثم الازم ضفة النيل الغربية الى الحيزة واستلم طريق الصحراء مع بعض الفوافل الى دنقلة »

قال « رافقتك السلامة ببركة سيدتنا البتول وسائر القديسين »

الفصل الثامن والأربعون

رفيق السفر

فأكب زكريا على يد البطريرك فقبلها ثانية للوداع وخرج والشماس معه فأعدله ما يازم وصرفه . وكانت الشمس قد مالت عن خط الهاجرة وقال له عند الوداع « ليس عندنا ركائب نعطيك واحداً منها ولكنك حلماً تخرج من الدير تجد قوافل مارة من وادي النظرون تطاب النيل فرافق واحدة منها »

فشكر له نصيحته وظل واقفاً وعلى كتفه كيس فيه الزاد اللازم للطريق فاستغرب الشماس وقوفه وقال له « أهلك محتاج الى شيء »

قال « كلا . . ولكنني تذكرت ما أصابني في مجيئي فينبغي لي ان احتاط منه في رجوعي . ألا تبدلني بهذا الثوب ثوباً آخر اتكر به ! لان الذين لا قونا في مجيئنا رأوني بثوب الرهبنة هذا فينبغي ان ابدله بثوب آخر »

قال « لقد أصبت في تخوفك . تمهل ريثما اعود اليك » ومضى ثم عاد ومعه بقية فتحتها واذا فيها قفطان وعباءة وقلنسوة وعمامة فقال « هذه اثواب بعض الجنود وقعت لنا صدفة لعلها تفي بالمطلوب »

ففرح بها زكريا ولبسها وطلب مرآة يرى بها وجهه فاعطاه فنظر فيها فاذا هو قد تغيرت قيافته ولكن وجهه ما زال يتم عليه عند انقراض فاقنع بما كان وودع الشماس فرافقه الى باب الدير وفتح له فخرج

فلما رأى نفسه في الصحراء أكبر امره وتصور دخول الظلام عاياه وهو منفرد يمشي على قدميه لا يدري أين بيت ولا أين يلتجئ فوقف حائراً وكاد عزمه يتحول عن السفر وحده ثم تذكر نصيحة الشماس فطلب طريق وادي النظرون وهو على مقربة منه . وقبل أن يشرف عليه سمع أنيناً قريباً فوقف وتلفت ثم مشى الى جهة الصوت فلما اقترب منه رأى رجلاً ملقياً على الارض ويداه ورجلاه مشدودة بحبال وهو يستغيث وحالما رأى زكريا قال له بالقبطية « انجدي ايها الجندي . . بجرمة الذي تعبد »

فعلم زكريا انه يخاطبه بالجندي لما رأى لباسه لباس الجندي فاسرع اليه فاذا هو شاب قمحي اللون عليه ثياب التجار فاخذ في حل الحبال فلما افلت الرجل هم يدي زكريا يقبلهما وهو يقول جزاك الله خيراً يا سيدي «
فقال زكريا « من انت وما هو حديثك »

قال « ابي تاجر احمل الملح والنظرون من هذا الوادي ولي قافلة اسيرها بامان ففي هذه المرة جئت مع القافلة فحملنا الاحمال وخرجنا من الوادي في هذا الصباح واذا بجماعة سطوا علينا فساوقوا القافلة برمتها وتركوني مقيداً كما رأيتني » وكان يتكلم وهو يكاد يبكي من الاسف فآثرت حاله في زكريا وازداد خوفاً على نفسه من الخطر فقال « لا بأس

عليك يا صاحبي الحمد لله على سلامتكم . والان ماذا تريد ان تفعل «
قال « لا اريد شيئاً لاني واثق بضياع اموالي واحمالي وأظن للصوص سيقتلون رجالي ولا آسف على شيء ما دمت حيا واني اشكر الله على لقائك وانت جندي فهل تعدني انك ترفع هذا الي صاحب مصر ؟ »

فاعتقد زكريا ان تنكره انطلي على الرجل فوعده انه سيفعل ذلك متى وصل الفسطاط ولكنه احب أن يستعينه في امر هذا الرجوع فقال « وكيف السبيل الى الرجوع الان فقد كان معي جبل تاه مني واصبحت راجلاً كما ترى »

فاطرق الرجل هنيهة ثم قال « اظنني اقدر ان احصل على جبل من مكان قريب وراء هذه الاكمة كنت قد ربطته هناك قبل هجوم اللصوص

ولعلمهم لم يعرفوا مكانه فيكون باقياً فنركبه »

ففرح زكريا وقال « امكث هنا وانا اذهب للتفتيش عن الجمل »
قال ذلك واسرع وقلبه يخفق فرحاً بهذه الصدفة حتى دنا من
الاكمة فسمع جمعجة الجمل فلم يتمالك عن الضحك من شدة الفرح ووثب
حتى قبض على زمامه وحل عقاله وساقه الى الرجل فوجده في انتظاره
فشكره فقال زكريا « ان الله قد ارسلك لانقاذي من العذاب في هذه
الصحراء »

فقاطعه الرجل وقال بل انت الذي ارسلك الله لانقاذي اذ لولاك
لمت مقيداً فانا مدين لك بحياتي ولا اقدر ان اكاثك سوى ان تركب الجمل
وانا اقوده »

فقال زكريا « حاش لله ان اقبل بذلك.. ولا حاجة بنا اليه فاتنا تركب
معاً والجمل يحمل ثلاثة واربعة كما تعلم

قال « كما تشاء » وأخذنا في معالجة الرجل حتى يسعهما وعلق زكريا
كيس الزوادة به وركبا وسارا على حذر الى المساء فباتا بعد ان تحادنا
ملياً وزكريا لا يرى من ذلك الرجل الاكل لطف فشكر الله على هذه
الصدفة وتعب ضميره لانه خدعه بتسكروه وحدثه نفسه ان يبوح له بحقيقة
أمره ولكنه تراجع خجلاً من الاعتراف بالكذب وأجل ذلك الى آخر
الطريق وكان زكريا يخاف ان يلتقي ببلصوص الامس فلم يلتقيا باحد
وبعد يومين وصلا الى ضفة النيل فقال التاجر « هل تحب ان نسافر
الى الفسطاط في النيل »

قال « مانا ولنزول الماء دعنا نواصل السير على هذا الجمل فقد استحسننت
مشيته »

قال « كما تشاء واذا كنت قد استحسننت هذا الجمل فمتى وصلنا الى
الفسطاط تركته لك هدية »

فسر زكريا لهذه الهبة لشدة احتياجه اليها وتوهم ان الرجل يبائع في
اكرامه طمعاً في مساعدته لدى ابن طولون وكان يتألم من ذلك لان ضميره

حي يأبى ان يعتقد الناس ما ليس فيه أو يتوقعوا منه ما لا قدرة له عليه
 وأما أصبح همه ان يتخلص من ذلك الرفيق وهم ان ييوح له بحقيقة غرضه
 مراراً ثم تراجع . وما زالوا راكبين يسير بهما الجمل على صفة النيل الغربية
 يقتربان من النيل ساعة وبيتعدان اخرى وزكريا يزداد استئناساً بالرجل
 وامتناناً له حتى اطلا على الاهرام فلم يبق لزكريا حيلة بالسكوت وقد بلغ
 الجمل الى محاذاة الهرم الكبير ولم يبق الا ان يتحولاً نحو الحيزة ويعبراً الجسر
 الى جزيرة الروضة ومنها بجسر آخر الى الفسطاط

وصلا الهرم نحو الاصيل والرجل يستحث الجمل حتى يدرك الفسطاط
 قبل الظلام فقال زكريا « ما افخم هذه الاهرام وما أجمل الجلوس عندها
 والاشراف على البساتين والمياه تتخللها » ففهم ذلك انه يريد النزول فقال
 « نزل هنا » واناخ الجمل وزكريا يعمل فكرته ويكد قريحته ليستنبط حيلة
 يستبق بها الجمل معه هناك . وهو في ذلك قال له رفيقه « بالحقيقة ان الميت
 هنا جميل فاذا وافقتني عليه قضينا هذا المساء هنا وفي الصباح نمضي معاً الى
 الفسطاط أو كما تشاء »

فاستحسن مسأيرته وقال « لقد نطقت بالصواب . ولا أخفى عنك اني
 لا أقدر ان انزل معك الى الفسطاط لان لي غرضاً احتاج الى قضائه وراء
 الحيزة »

فابتدره قائلاً « شعرت انك تريد شيئاً تكتمه عني فنحن اخوان لا
 ينبغي ان تكتمني امراً تطلبه فقد قلت لك ان حياتي مئة منك وأنا ائماً
 أرغبك في الذهاب الى الفسطاط معي لا كافئك على صنيعك فان المال لا قيمة
 له عندي فاذا كنت تستقل النزول فامكك هنا وأذن لي أن اغيب عنك
 ساعة ثم اعود اليك بهذا الجمل وازودك بتذكار يدل على اعترافي بفضلك »
 فكاد زكريا يطير من الفرح لما آسنه من السهولة في معاشرته ذلك الرجل
 فلم يعد يعرف كيف يشكره وقال « لا فضل لي في شيء فعلته بل الفضل
 لك في نقلي من تلك الصحراء على جملك »

فقطع كلامه قائلاً « بل هذا جملك استأذنتك في ركوبه الى الفسطاط

واعود اليك به فهل اجدك هنا ؟ »
قال « تجدني عند قاعدة هذا الهرم الكبير » فودعه ومضى

الفصل التاسع والاربعون

الحيانة

ومكث زكريا كانه في حلم وافتقد الاسطوانة والكتاب تحت اثوابه فوجدهما هناك ضمن الكيس المعلق في عنقه . فاطمأن باله وأخذ يتمشى حول الهرم ثم تجاوزه الى اهرام كثيرة مبعثرة هناك حتى وصل ابا الهول فتأمله حيناً ثم عاد ورأى الشمس تتحدر وتكاد تغيب فاحس بالوحشة لانفراده في تلك الرمال ثم غربت الشمس وأخذ الظلام يتكاثف فاستبطأ صاحبه وندم لانه لم يسأله عن اسمه ومسكنه . على ان ذلك لم يهمه بقدر اهتمامه بالحصول على الجمل لان الدراهم ذهبت منه في بادية النظرون قبل دخوله الدير واصبح لا يملك شيئاً وعد عشوره بذلك التاجر نعمة خصوصية من نعم الله

ومل زكريا الانتظار وتعب بصره من التشوف عن بعد لعله يرى صاحبه قادماً ثم صعد على بعض درجات الهرم الكبير حتى وصل الى مدخله فوقف بباب المدخل وعيناه شائعتان نحو الحيزة لعله يرى شبحاً أو يؤانس نوراً ويده لا تكاد تفارق ابطه يلتمس الكيس الذي فيه الاسطوانة والمكتوب . ونظراً لانفراده في ذلك الخلاء سرحت افكاره في عالم الخيال فتصور أن اسطفانوس علم بوجوده هناك فارسل من يقبض عليه فلما تصور ذلك اختلج قلبه في صدره لانه اعزل ولا طاقة له بالدفاع وإنما يهمه من أمر الدفاع ان لاتذهب الاسطوانة منه ومد يده واستخرج الكيس من تحت ابطه وتفقد ما فيه جيداً مخافة أن يكون قد خدع باللمس فرأى الاسطوانة والكتاب . وهو يهيم ان يعيد الكيس الى عنقه سمع

خربشة فاقشعر بدنه لانفراده ووحشة المكان وكثرة الافاعي والحشرات في تلك الحرائب فاصاح بسمعه والكيس لايزال في يده وقد جمد الدم في عروقه فاذا هو يسمع وقع اقدام يتخلله همس فانزوى في مدخل الهرم وهو يحاول الاختفاء لان المدخل المذكور ضيق وعميق كأنه قناة مربعة لا يدخله الانسان الا سحفا وهو جالس أونائم . فتربع زكريا عند المدخل وتتصت وشاعت عيناه لجهة الصوت فرأى بضعة رجال قد ترملوا بالعبي يتقدمهم رجل يخاطبهم همساً وهو يقول « قد تركته هنا ولا بد من وجوده لعله نائم »

ولم يكذب زكريا يسمع الصوت حتى عرف انه صوت صاحبه التاجر فانتبه لنفسه وشك في ذلك الرفيق وبالغ في الانزواء وقد توسد المدخل مستقبلاً أرضه بصدرة بحيث يكون رأسه مطلاً الى الخارج . والمدخل مائل نحو الداخل بانحدار يخاف اذا تراخى ان يزلق الى جوف الهرم وهو لا يعرف قراره والناس يتحدثون ان الحبان تسكنه . ولا مست ساقه ارض المدخل فاقشعر بدنه من برده وخيل له انه لمس حشرة ولولا اشتغال خاطره بما سمعه من تهامس الرجال لما تجاسر على المسكوث هناك لحظة . كل ذلك وهو قابض على الكيس بيده وكان القوم قد اقتربوا نحوه وهم يتفرسون فيما حولهم ولم يخطر لاحد منهم ان الرجل الذي يبحثون عنه في واجهة الهرم وانه مختم في مدخله ولا هم يعرفون له مدخلا يختم في فيه الرجل والرجلان . فلما رأهم على مقربة منه امسك نفسه واصاح بسمعه فاذا أحدهم يقول « اين هو اتنا لانرى بشراً كأنك خدعت المعلم اذ ربما لم يكن الرجل هو وقد خدعتك »

فقال « لاريب انه بعينه وقد رأيت الاسطوانة في عنقه وسترونه وترونها »

ثم رفع بصره الى أعلى كانه ينظر الى المدخل واستولى الخوف على زكريا لعلمه انه لا يقوى على الدفاع ولا الفرار وخصوصاً بعد ان تبين القوم وتحقق انهم مدججون بالسلاح ولم يبق عنده ريب أن رفيقه بالامس

جاسوس استمهله ريثا وشى به الى المعلم مرقس فبعث من يقبض عليه .
وعلم ان المعلم مرقس لا يهجمه من أمر ذلك القبض الا الحصول على
الاسطوانة التي أخذها زكريا من منزله لان كل آماله فيها وهي ساعته في
يده فاخذ يفكر فيما ذا يعمل بها . واذا ببعضهم يتسلق الاحجار كانه
يهم بالصعود الى باب الهرم فازداد خفقان قلب زكريا وضاق نفسه حتى
كاد يغمى عليه وعلم انه غير ناج من ذلك الشرك فاخذ على نفسه اذا ظفروا
به ان لا يظفروا بالاسطوانة لعلمه ان مرقس اذا ظفر بها معه قتله حالا
وأما اذا قبض عليه بدونها يستبقه ليساعده في البحث عنها . فتلمس الحائط
الى جانبه فوجد حفرة أو هو شق بين الاحجار عميق فأدخل الكيس
فيه وغطاه بحجر حتى تحقق انه لا يظهر لاحد . ثم تلمم وتجمع حتى
جلس القرفصاء بباب الهرم كأنه يتحفز للوثوب وكان الرجل الصاعد بعد
أن تسلق درجتين أو ثلاثاً وقف على حجر مرتفع ونظر الى ما حوله
ثم خاطب دليلهم قائلاً « ان اليهود لم يصدقوا عمرهم حتى يصدقوا اليوم ..
ها أنا عند الهرم فأين الرجل المطلوب . . . والله اذا لم نجده لتذوقن
العذاب »

فعلم زكريا ان صاحبه يهودي احتال عليه . فتولته الرعدة وأمسك
أنفاسه مخافة ان يدهمه عطاس أو سعال فينكشف امره واذا هو بالقوم قد
تحولوا من هناك وهم يقولون « انه ليس هنا فلنبحث عنه في مكان آخر »
ومشوا نحو الهرم الثاني فما صدق زكريا انهم تحولوا من أمامه حتى خرج
من المدخل وتفس الصعداء ومشى مشية المتلصص ونزل حتى صار على
الارض امام الهرم الكبير فتربص حيناً وهو قاعد حتى ظن القوم بعدوا
فنهض ومشى يطلب الفرار نحو البساتين يجتبيء فيها الى الصباح فاذا نجبا
يعود الى الكيس

ولم يكدمشى خطوات قليلة حتى سمع منادياً يقول له « قف عندك
والا قتلت »

فلم يجبه وظل ماشياً كأنه يتجاهل وركبته ترتعدان وإذا بالرجال

أسرعوا اليه وحدثته نفسه بالفرار ولكنه يعلم عجزه عن ذلك لتعبه وضعفه على أثر تلك الرعدة فرأى ان يقف وقوف المتجد فالتفت الى جهة الصوت وقال « من تعني ؟ »

فتقدم اليه أربعة رجال علم من قياهم عن قرب انهم من الجند المصري ومعهم ذلك اليهودي وهو يقول هذا هو امسكوه »

فنظر زكريا اليه وقال « تبا لك من خائن . . . » ثم التفت الى الرجال وقال « لا حاجة بكم الى القبض علي فاني أسير بين يديكم وأنا أعزل » فتقدم أحدهم ويده حبل وبجانبه رجل آخر وأخذاً يشدان وثاقه ويقولان « قد امرنا ان نأتي بك موثقاً »

فلما شدوا وثاقه ساقوه بين أيديهم الى مكان آخر وراء الهرم كانوا قد خبأوا فيه افراسهم واركبوه واحداً منها وهم حوله يخفرونه وساروا يطلبون الفسطاط

الفصل الخمسون

مرقس

وصلوا الفسطاط في اواخر الليل وادخلوا زكريا غرفة منفردة وقاموا يخفرونه الى الصباح . أما هو فمع خوفه على حياته كان يجد تعزية في انقاذ الاسطوانة من يدي مرقس فبات بقية تلك الليلة وهو يفكر فيما مر به وكيف وقع في هذه الشراك بعد ان اوشك ان ينجو وعلم ان المكيدة كلها من ذلك اليهودي وادرك انه مرسل من قبل مرقس أو اسطفانوس ليتعقبه . واستغرب كيف انطقت عليه حيلته حتى وقع في الاسر ولكنه شكر الله على نجاة الاسطوانة

وفي الصباح باكراً سمع الباب يفتح ودخل عليه رجل لم يقع بصره عليه حتى اجفل لانه المعلم مرقس ولكنه تجلد ولم يبد حراكا فقال له مرقس « أهذا جزاء التربية والخبز والملح ؟ تفسد علي ابنتي وتفر بها حتى

أضاعت مستقبلها وأصبحت شريذة طريذة ؟ »
 فضل زكريا صامتاً مطرقاً فحسبه مرقس ندم على عمله فازداد جرأة
 عليه فقال « بماذا أجازيك على هذا العمل ان القتل خفيف بجانب
 ذنبك »

فرفع زكريا بصره اليه وقال « ان القتل لا يخيفني ولا انت تستطيعه . .
 ومن كان مثلك لا يخشى بأسه . . »

فغضب مرقس وقال « تخاطبني بهذه الجسارة وانت خادمي ؟ »
 قال « حاش لله أن أكون كذلك . انما أنا خادم تلك الفتاة الطاهرة . .
 ذلك الملاك الارضي . انا خادم دميانة وعبيدها اكراما لوالدتها المسكينة
 وطوعا لصاحبة الامر . . ولولا تكفلي بالثبات في تربيتها لتركها فراراً من
 عشرة ابها الظالم »

فحمر غضب مرقس وقال « تقول اني ظالم ؟ »
 قال « ألا تعرف نفسك ؟ هل تجهل معاملتك لابنتك التي تزعم انك
 نعمت على في سبيل الدفاع عن مصلحتها وانت تعلم من هو الذي أضاع
 حقها . . »

فاستاء مرقس من هذا التعريض وفهم مراد زكريا لكنه تجاهل
 توصلا الى مرغوبه فقال « اراك تهذي بكلام لا معنى له . . أتعلم لماذا ساقوك
 الى هذا المكان وبعد قليل يحملونك الى السجن المظلم اذ تسلم لابن طولون . .
 أتعلم لماذا ؟ »

قال « انت تعلم »

قال « انا اعلم . . ساقوك لانك سرقت منزل سيديك وأخذت منه
 التحف والجواهر وفورت بها . . وايضاً لانك تساعد البطريرك مخائيل على
 تواطئه مع النوبة للقيام على المسلمين »

فلما سمع زكريا قوله هز كتفيه وظل مطرقاً لا يظهر اهتماماً فاستغرب
 مرقس ذلك منه وقال « يظهر انك لم تدرك مقدار ما يهددك من الخطر

بسبب هذه التهم . وانامع كثرة اساءتك الى لا ازال اميل الى الرفع بك
اكراما للخبز والملح وعليه فقد اوصيت الجند أن يأتوا بك الى هنا قبل
حملك الى ابن طولون لعلي يستطيع انقاذك . واعلم ان نجاتك انما هي في
يدي اذا شئت اطلقتك واذا شئت سلمتك الى الحكومة . وانا ميال الى
اطلاق سراحك اذا ظهر لي ندمك على ما فرط منك وسلمت الى ما
أخذته من منزلي . . . ليس كل ما أخذته فانا اكتفي منك بالاسطوانة
فان فيها أوراقاً تهمني ولا فائدة لك منها فاذا اطعني وسمعت نصيحتي
نجوت من هذه الساعة والا فاني مسلمك الى ابن طولون وانت تعلم
عاقبة ذلك »

فقال « أما ندمي فاني لم اعمل عملا اندم عليه وأما الاسطوانة فلا علم
لي بها كما اني لا أعرف شيئاً عن الجواهر التي ذكرتها . وانت تعلم اني لم
أخذ شيئاً ولا انا ممن يطعمون بالاموال وليس للاموال قيمة عندي اذ ليس
لي ولد أورثه واياي أصبحت قصيرة لا تستحق حشد الاموال ولا مطمع لي
في ملاذ الدنيا وشهواتها مثل غيري »

فقطع مرقس كلامه قائلاً « مالنا وللجواهر اني اكتفي بالاسطوانة التي
فيها الاوراق هاتها وعليك الامان »

قال « من أين آتى بها ؟ ليس عندي اسطوانات ولا ورق »

قال « أو تنكر أيضا ؟ انها في جيبك »

قال « كلا ليس معي شيء »

فصفق مرقس فدخل جندي كان واقفاً بالباب فأوماً مرقس الى زكريا
وقال « فتشه فانك مجد معه اسطوانة هاتها »

فتقدم الجندي واخذ يفتش أثواب زكريا قطعة قطعة ومرقس يقول له
« فتش تحت أثوابه وبين ذراعيه وجنبه » وهو يفتش وزكريا باسط
ذراعيه ومرقس يراعي حركاتهما ويتفرس ويدقق حتى اذا تعب الجندي من
التفتيش ولم يجد شيئاً أشار اليه مرقس ان يخرج فخرج وعاد الى زكريا

وقد امتنع لونه من الغضب والفشل لانه كان على ثقة من وجود الاسطوانة معه فقال « أين ذهبت بالاسطوانة يا زكريا »

قال « ليس عندي اسطوانات ولا أفهم ما تقول »

فاطرق مرقس وخطر له انه اعطى الاسطوانة الى دميانة اذ ليس ثم

من يثق به سواها فقال « اين دميانة ؟ »

فضحك زكريا ضحكة استخفاف وقال « تأخرت في السؤال عن

مكان ابنتك يا أيها الوالد الشفيق . . وأنت تسألني عنها الآن لا غيرة

عليها ولكنك تظن الاسطوانة عندها فكن على يقين انها لا تعرف شيئاً

من أمرها »

فاعاد مرقس السؤال « أين دميانة ؟ »

قال « دميانة . . لا اعرف مقرها »

قال « كيف واث فررت بها .. ماذا جرى لها ؟ »

فحدثته نفسه أن يخبره عن مكانها لكنه خاف أن يستعين مرقس

بذلك على الفتك بها فيذهب سعيه هدرأ فقال « لا أعرف أين

هي الآن »

قال « يظهر انك تبحث عن حنك بظلفك . اصبر وسترى عاقبة

أمرك » قال ذلك وخرج وأغلق الباب وراه بشدة فعلم زكريا انه مأخوذ

الى السجن بعد قليل وفي الواقع لم تمض هنيهة حتى جاء الجند فحملوه الى

القطائع وزجوه في السجن ريثما يطلب . فلتركة تحت التحقيق ولنعد الى

دميانة مع البجة

الفصل الحادي والخمسون

البيجة ودميانة

البيجة جبل من الناس كانوا يقيمون في الصحراء بين النيل والبحر الاحمر تبدأ بلادهم من الشمال بقرية يقال لها حزمة معدن الزمرد في صحراء قوص وبين هذا الموضع وبين قوص نحو ثلاث مراحل . وكان لذلك المعدن شأن في التاريخ القديم يستخرجون زمرده من مغار بعيدة مظلمة يدخل اليها بالمصايح وبجبال يستدل بها على الرجوع خوف الضلال ويحفر عليه بالمعاول . وآخر بلاد البيجة أول بلاد الحبشة وأبعد بلادهم قرية يقال لها هجر . وهم بادية يتبعون الكلا حينما كان للرعي ويقيمون باخية من الجلود وكانت أنسابهم من جهة النساء ^(١) أي ان الرجل منهم ينتسب الى والدته وهي الامومة في الاجيال المتوحشة . وهم قبائل كثيرة على كل قبيلة رئيس وكانوا من عهد الفراعنة يهاجمون ضفاف النيل في الصعيد فينبونها ويعودون الى البادية فلا تقوى الدولة على اللحاق بهم . وكانت توادعهم لانها تحتاج اليهم في استخراج المعادن ليخفروا المناجم أو يكفوا أذاهم عنها وكذلك الروم لما ملكوا مصر . ولما فتح المسلمون مصر لم يحاربوهم حتى كانت أيام ابن الجحباب في اوائل القرن الثاني للهجرة فهادنهم على مال يؤدونه الى بيت المال وتوالت الخبايا والغزوات بينهم ولما اختل شأن مصر في أوائل الدولة العباسية تطاول البيجة في تعديهم حتى صاروا يسطون على ضواحي الفسطاط فلما تولى ابن طولون صار يتقى غزواتهم بحامية يقيمها وراء المقطم

فاتفق في أثناء اقامة دميانة في حلوان ان شرذمة منهم سطت عليها ونهبها وقتلت كثيرين من أهلها وفي جملتهم قعدان العربي وحمـلوا ابنته ودميانة معها سبيتين - حملوها على الجمال وهي سريعة الجري شديدة

العدو صبورة على العطش يسابقون بها الخيل ويقاتلون عليها وتدور بهم كما يشتهون ويقطعون عليها من البلاد ما يتفاوت ذكره ويتطاردون عليها في الحرب فيرمي الواحد منهم الحربة فان وقعت في الرمية طار اليها الجمل فاخذها صاحبها وان وقعت على الارض ضرب الجمل بجرانه الارض فاخذها صاحبها

فلما رأت دميانة نفسها على الجمل وقد ادير رأسه نحو البادية اتبته هول المصاب واخذت تبكي وتستغيث وتتضرع الى الله ان ينقذها وكانت لما رأت أو تلك القوم دهشت لحشوتهم لانها رأت وجوهاً صفراً واجساماً رقاقاً وبطونا خماسا اكثرهم عراة الصدور يدهنون جلودهم بالشحم وشعورهم متلبدة متكافئة بما عليها من آثار الشحم يحملون رماحاً طول الواحد منها سبعة اذرع عوده اربعة اذرع وحديده ثلاثة . يحملون درقاً من جلود البقر مشعرة وبينها درق مقلوبة من جلود الجواميس وبعضهم يحملون قسيا عربية غلاظاً من الصدر والشوخط اذا عدا احدهم محسبه من الجن لدقة ساقيه وسرعة جريه

فلا تسل عن حالها من الدهشة والخوف ولم تعلم برفيقها فانها كانت على جبل آخر . ولم يسمها أحد بسوء وانما حملوها في جملة السبي وتبطنوا الصحراء وهم يتراطنون بلغة ليست بالقبطية ولا النوبية ولا العربية فلم تفهما ما يقولون . ولما امسى المساء حطوا الرحال ونصبوا خيمة نزل فيها رئيس تلت العصا به وهو يمتاز عنهم بلباسه الملون وبسدرته المزركشة وقد تقلد سيفه مفضضاً وكان راكباً جواداً اصهب وانزلوا السبايا في خيمة . فلما اجتمعت دميانة بابنة قعدان واسمها عليا استأنت بها وجلستا تبيا كيان وكل منهما تعزي الاخرى ولا يعزي دميانة غير الامل بالنجاة باعجوبة من الله ولما غربت الشمس وساد الظلام أوقدوا ناراً بين يدي الخيام للاستضاءة واتي رجل يعرف القبطية تقدم الى دميانة ورفيقتها واخذ يطمنهما ويحجب اليهما تلك الصحراء . ثم اتاهما بالطعام وهو اللحم واللبن فعاتت نفس دميانة الطعام ولكنها اضطرت من العطش الى شرب اللبن . ولما سمعت كلام

الرجل سكن روعها لأنها آنتست منه تشجيعاً ورأت فيه اريحية فقالت له
« الى أين اتم سائرون بنا ؟ »

قال « انا سائرون الى مولانا الامير أبي حرمة كبير امراء البجة »
قالت « اين هو ؟ »

قال « هو على مسافة بضعة ايام من هذا المكان. لا تخافي اذلا يستطيع
أحد منا أن يمسك بسوء ومثلك يا جميلة لا ينالها الا الامير »

فلما سمعت قوله اقشعر بدنهما ولكنها تجلجت والنفنت الى عليا فرأتها
مطرقة ولم تكن في مثل ذعرها لأنها تعودت عيشة البادية وعرفت بعض
طبائع البدو . أما الرجل فلما رآها تلتفت الى رفيقتها ضحك فبات اسنانه
بلا قواطع مع صغر سنه فكان له منظر غريب ثم قال « اما هذه العربية
فرما اختار الامير ان تكون عنده او لعله يهبها الى أحد امرائه أو يستخير
الآلهة في شأنها... » ثم نفرس في فم دميانة وقال « ما أجمل فاك لولا وجود
القواطع فيه فان الاسنان الامامية منه تشوه منظره لان هذه القواطع لا تلتزم
إلا للبهائم » وأشار الى فمه وقال لها انظري الى اسناني فاني من قبيلة تقتلع
هذه القواطع لئلا تتشبه بالخير وليس كل البجة يفعلون ذلك.. أما أميرنا فانه
يحب ذوات الاسنان البيضاء والا فانه كان يقطع اسنان نساته »

فاستغربت دميانة حديثه واستخفت روحه ولكنها ما زالت في اضطراب
وقلق . وأحس الرجل بخطوات خارج الخيمة فوقف عن الحديث وتلملم
وتحفر للخروج واذا برجل آخر دخل هو رئيس تلك العصابة له عينان
براقتان ووجه نحيف ولكن دلائل الصحة والقوة بادية فيه وتعرف رئاسته
من لباسه . ولما رأى ذلك الرجل هناك نظر اليه نظر التويخ وقال له
بلسانهم كلاماً لم تفهمه دميانة ولا عليا ولكنها فهمتا انه يوبخه ثم قال له قولا
وأوماً اليه ان يقوله لها فقال « ان مولانا القائد يلومني لأنني احذثكما وهذا
ممنوع عندنا ويقول لكما ان يطمئن بالكما ولا تخافا »

فأومأت دميانة برأسها ايماء الشكر وعيناها قد احمرتا من أثر البكاء

في أثناء الطريق . فأوعز اليهما بواسطة الترجمان ان ترتاحا وتناما على جلد
فرشوه لهما هناك وخرج
فنامت دميانة بعد ان صلت وتضرعت الى السيد المسيح ان يراها
ويحرسها

وفي صباح اليوم التالي جاءها الخدم باللحم واللبن فاكلت عليا حتى شبعت
أما دميانة فلم تأكل الا قليلا . وكانت قد تعودت تلك المصيبة نوعا فانتبهت
لنفسها في الصباح ونظرت الى ما حولها فرأت انها في صحراء رملية قاحلة
وان تلك العصابة مؤلفة من بضعة وعشرين رجلا معهم الجمال والخيول. ولما
أشرقت الشمس ركبوا وجعلوا يطوون البيداء وبالغ اولئك البجة باكرام
تينك البنتين والتخفيف عنهما شأن أهل البادية في المحافظة على العرض إلا
ما يحلونه لانفسهم في الحق من الغنم

الفصل الثاني والخمسون

الاستخارة

قضوا يومين آخرين على هذه الصورة وفي اليوم الثالث اشرفوا نحو
الظهيرة على معادن الزمرد فرأوا المناجم وهي حفر يشتغل فيها اناس من
البجة بينهم بعض اهل النوبة على نحو ما وصفناهم من العمل تحت الارض
وهم عراة إلا ما يستر العورة . فلم يههم دميانة النظر الى اولئك القوم
وكيف يشتغلون في استخراج الزمرد . ولم يقف الركب الا ريثما ساقوا
معهم بعض الماشية مما كانوا قد اخزنوه هناك يكفيهم بقية الطريق الى
مقر الامير أبي حرمة ورجاله . وفي اليوم التالي نحو الاصيل وصلوا الى
نجع كبير عرفوا عن بعد انه نجع الامير وهو مؤلف من عدة خيام
من الجلد في وسطها خيمة واسعة مزخرفة وبجانها خيمة اخرى بشكل
القبعة من الجلد أيضاً . وبجانها النجع مسارج للماشية من الضأن والبقرة
ولحظت دميانة ان تلك البقرة تمتاز بقرونها الطويلة مما لم تر له مثيلا في مصر

ولم يكن يهمها شيء من ذلك وإنما كانت تحدث نفسها فيما ذا عسى ان يكون شأنها مع الامير الذي قالوا لها انها ستكون عنده . واخذ الركب بالتحول واتى بعض الخدم اناخوا حمل دميانة وازلوها عنه فمشت وفرائصها ترتعد خوفاً وقلبها يخفق ووقفت مطرقة لا تدري ما ذا تعمل فاذا بالرجل الترجمان انى وقال لها «تقدمى معنا الى المعبد حيث تبرك بالكاهن ونستخير الآلهة على يده لمن تكون هذه الغنائم» وقال بصوت ضعيف سمعته هي وحدها «فعسى ان يكون نصيبك للامير لانك اهل له»

فوقعت تلك الكلمات في اذنيها وقوع الصاعقة ولكنها اطرقت وجعلت تصلي سراً وتطلب الى الله أن يشجعها ويأخذ بيدها لتستطيع النجاة من هذه التجارب واحست بعد تلك الصلاة انها في حرز حرير لا خوف عليها كأن لها جنداً من الملائكة يحرسها

أما سائر الركب فانهم ترجلوا وسار قائدهم امامهم الى تلك القبة بجانب الخيمة الكبرى ولما اقتربوا منها فتح بابها وأطل منه كاهن بلباس مزخرف على رأسه شبه تاج من الريش وعلى كتفه شملة مطرزة وحول وسطه حزام من جلد محجر بالزمرد والياقوت تحته قباء من القباطي الايض وبيده صولجان من خشب الابنوس في اعلاه شبه رأس الفرس من الذهب وحلما فتحت الخيمة تصاعدت رائحة البخور . ولما أطل الكاهن على الناس سجدوا جميعاً وكانت دميانة وراءهم تسيرهم في المشي الى جهة القبة . فلما رأهم يسجدون وفتت ولم تطعمها نفسها على السجود ولم ينتبه لها الكاهن ثم دخلوا القبة وفي صدرها تمثال من نحاس لعله مأخوذ من اصنام المصريين القدماء قد اقاموه على دكة من الحجر وزينوه بالحلي فتحول الكاهن نحوه وسجد له فسجدوا جميعاً خلفه ثم تتم قليلاً وتمتموا ودميانة واقفة تستغفر الله على هذه المشاهد

وبعد الفراغ من الصلاة أشار الكاهن الى الوقوف فخرجوا جميعاً وخرجت دميانة ورفيقها وهما مطرقتان حياء لغرابة حالهما بين اولئك البدو . ثم تقدم الترجمان فاستوقنهما فوقفوا ووقف الكاهن بباب القبة ثم دخلها

مستدبراً واقفلها وراءه وأشار القائد الى دميانة وصاحبها ان تبقيا واقمتين. وبعد قليل سمعنا جرساً يدق في القبة ثم رأنا الباب فتح وخرج الكاهن عاريا وظهرت الصور الملونة على صدره وذراعيه وقد تغيرت سحنته وتحولت عيناه فلا يشك الناظر اليه انه مجنون او مصروع فاجفلت دميانة عند رؤيته وغطت وجهها بكفها وكادت تصيح من الخجل

ولكنها تجلدت واذا هي تسمع الكاهن يتكلم بصوت عال مع اختناق كأن شخصاً آخر يتكلم في جوفه وهم يعتقدون ان الها يتكلم عنه ولما أتم كلامه أجابوه بكلمتين كأنهم يؤمنون على أقواله ولما عاد الى القبة أشار القائد الى الترجمان أن يكلم دميانة بما قاله الكاهن فوجه كلامه اليها قائلاً « اعلمي يا جميلة ان الكاهن قد استخار الآلهة بك فاشارت أن تكوني من نساء أبي حرملة أميرنا الاكبر وهذا قائدنا يهنئك بهذه النعمة » والتفت الى عليا وقال لها « وانت نصيب هذا القائد الباسل » وأشار اليه

وكانت دميانة وهم يصلون لاهتهم تصلي لالهها وتتوسل اليه أن يشجعها ويقويها فلما سمعت ما تلاه عليها الترجمان لم يحفلها وان كان قد وقع عليها وقعاً شديداً ولكن الايمان الصحيح يقوي القلوب وهو أكبر تزيبة لبني الانسان في الشدائد العظام

وفي الحال بعد ان قال الترجمان ما قاله ذهب ثم عاد ومعه رجل نوبي حليماً وقع نظرها عليه استخفت روحه ولم تدرك سبب ذلك لاول وهلة وانواع انها استأنست به لانه يشبه خادمها زكريا فتقدم وأشار اليها ان تتبعه الى خيمة الامير . وذهب الترجمان الآخر مع عليا الى خيمة القائد ولم يكن الامر عظيماً على عليا ولا غريباً عندها لانها - تعودت البادية واهلها

الفصل الثالث والخمسون

أبو حرملة

أما دميانة فشئت في أثر ذلك النوبي وهي تقدم قدماً وتؤخر أخرى وتستعين الله ومريم العذراء والقديسين على ما تخافه هناك . وسمعا النوبي تذكر مريم العذراء على سبيل الاستغاثة فشعر بانعطاف نحوها لانه ربي تربية نصرانية في بلاده والنوبة يومئذ كلهم مسيحيون فنباطاً في مشيه حتى اذاها وقال لها « يظهر انك نصرانية فهل انت قبطية ؟ »
فلمّا سمعت استفهامه استبشرت وقالت « نعم اني قبطية ووالدي من وجهاء القبط »

قال « يظهر عليك ذلك .. فلا ينبغي ان تزعجي .. هل انت متزوجة هناك ؟ »

فظهر الخجل في وجهها وسكنت ودل سكوتها على انها عذراء فقال لها « اذا كنت غير متزوجة فلا أجد سبباً لاضطرابك فانك مسوقة الى خيمة أمير البجة وهو أكبر أمراءهم واشجع قوادهم ومن حسن حظك انك وقعت في نصيبه من الغنيمة وسيكون لك مقام رفيع عنده لاني لا أعرف بين نساته واحدة في مثل ما أنت فيه من الجمال والكياسة وهو يفهم اللغة القبطية نوعاً فالأفضل ان تسلمي امرك الى الله وتقنعي بهذا النصيب

وكانا قد اقتربا من باب الخيمة فتمقدهما النوبي وأشار الى حاجب بالباب أن ينبيه الامير بقدمه فدخل الحاجب وعاد وقد اذن في الدخول فدخل النوبي ودميانة في اثره وقد صبغ وجهها الحياء وتولاها الخوف واصطكت ركبناها فرأت النوبي حالما دخل المحنى كأنه يسجد لايقونة . ووقع نظرها على أمير جالس في صدر القسطاق خفيف العضل خفيف الشعر أسود اللون حاد العينين تظهر الامارة بلباسه وهيبته وقد جلس الاربعاء على بساط من

السجاد الثمين فوق مقعد سوداني (عنقريب) وارتدى بكساء من الحرير الملون وعلى رأسه عمامة شبه التاج وبين يديه سيف قبضته من الذهب وحول عنقه عقد من الحجارة الكريمة بينها قطع من الذهب بصور تماثيل صغيرة لبعض الآلهة وفي أصابعه الخواتم . سلم النوبي على ابي حرمة بلسان البيجة فاجابه به ولم تفهم دميانة شيئاً ولا هي استطاعت ان تسجد كما فعل الترجان لكنها سمعت ابا حرمة ينادي النوبي «سمعان» وهو اسم نصراني فاطمان بالها لاعتقادها انه نصراني مثلها - وجامعة الدين من أشد الروابط علاقة بالقلب لانها تشترك بالوجدان وهي امنن في العامة من جامعة الوطن وغيرها ووجه ابو حرمة نظرة الى دميانة وتفرض فيها فاطرت ثم سمعته يخاطب سمعان ونحول سمعان نحوها يترجم كلام الامير فقال « ان مولانا الامير قد أعجب بما شاهدته فيك من الجمال والهيبة ويقول لك انه سيدخل جهده فيما يرضيك فلا ينبغي لك ان تعدي نفسك سبية أو غريبة فانه يعدك من أفضل نسائه »

فلم تجب ولكنها زادت اضطراباً لانها أصبحت داخل العرين ولا يلبث الاسد أن ينشب أظافره فيها فاستعادت بالله وظلت ساكنة . فاشار ابو حرمة الى سمعان وخاطبه فتحول الى دميانة وقال لها « تفضلي معي يا جميلة الى الخباء فقد أوصاني الامير أن أعدلك خيمة خصوصية تقيمين فيها على الرحب والسعة » قال ذلك وخرج فخرجت في اثره وهي تتعثر باذيالها فلما صارت خارج الخيمة أحبت أن تستغيث بسمعان فقالت « يظهر لي يا سمعان انك نصراني مثلي فاستحلفك بالسيد المسيح أن تنشاني من هذه الحفرة »

فابتسم سمعان وخاطبها وهو ينظر في الارض لئلا يلحظ أحد انه يكلمها خوفاً من الامير وقال « إن لم أكن نصرانياً كما ظننت فقد ولدت في بلد النصراني فسموني باسم من اسمائهم وأنا أعرف كثيرين منهم في مصر والصعيد والثوبة وقد رأيتك شديدة الخوف وأنا أوكد لك انك ستكونين معرزة مكرمة . فاصرفي خوفك وتقي بي فانا أكون لك أخاً أبذل جهدي في راحتك .. »

فاستأنست بوعده وقالت « اذا كنت تعدني أختاً لك فارجو ان تساعدني على الخلاص .. هذا غاية ما أرجوه منك .. واذا أنقذتني كان لك فضل كبير لا يضيع عندي ولا عند أهلي »

قال « يا حبيذا ولكن الخلاص على هذه الصورة لا يستطاع ونحن بين رجال كالآثمار يختطفون بسرعتهم الابصار فاصبري . ولا ريب عندي انك تكونين مسرورة بعد قليل »

وكان سمعان يقول ذلك عن إخلاص وهو لا يعرف ما في خاطر دميانة وما الذي يثقل على طبعها من تلك الصعبة . فقد كانت فضلا عن تمسكها بالعهدة وحرصها على صيانة نفسها عالقة القلب بسعيد وكل من السبيين يكفي لدى الحر أن يفتدي بالحياة . فلما يئست دميانة من نصرة سمعان ومحقت وقوعها في الفخ علمت أنها لم يبق لها مخرج الا بما وراء الطبيعة فمادت الى الايمان وأخذت تراجع في ذهنها مواعيد الكتاب للمؤمنين في أيام الشدة وسكنت وهي ماشية وسمعان لا يتكلم فتجاوزا فساطيط الرجال حتى اشرفا على الاخبية وقد دنت الشمس من الغروب . وكانت الاخبية عديدة بينها خباء نخم توجه سمعان نحوه وأشار الى دميانة أن تتبعه فتبعته حتى أطل على باب الخباء فنأدى نخرجت له عجوز طويلة القامة شديدة العضل وملاحمها أقرب الى الرجال مما الى النساء عليها الدماغ والاساور والعقود وقد فاحت منها رائحة الطيب وابرقت عيناها واحمرتا فآثر منظرها في دميانة اكثر من تأثير منظر ابي حرملة ووقفت مبهوتة وابتدرها سمعان قائلاً « نحن الآن عند خباء الامير وهذه قهرمانه بيته وهي التي ربته من صغره وتعد نفسها والدة له وقد عهد اليها العناية بنسائه وكأني بك قد خفت منظرها فلا تخافي وانا أوصيها بك خيراً » ثم التفت الى القهرمانه وكلمها بلغة البجة كلاماً بهذا المعنى . فنظرت الى دميانة وابتسمت ابتساماً فلما استأنست دميانة بها لكنها لم تجد بداً من السكوت وأشارت القهرمانه اليها أن تدخل فدخلت وهي تنظر الى سمعان والدمع ملء عينها كأنها تستغيث به وقد آثر منظرها فيه لكنه كان يعتقد انها لا تلبث أن تمكث بضعة أيام مع الامير حتى تعتماده وتألف البقاء معه

الفصل الرابع والخمسون

الصلاة تعزية

دخلت دميانة باب الحباء فاستطرت منه الى عدة غرف من الجلد في كل منها امرأة أو نساء وبينهم النويبة والبجاوية والحبشية والقبطية بين سرية وخادمة وجارية والسكل وفتن احتراماً للقهرمانه حتى وصلت بها الى غرفة ليس فيها احد في بعض جوانبها بساط من جلد ووسادة من جلد محشوة بالقش وبجانب البساط وعاء كالجراب مفتوح وفيه آنية (التواليات) السواك والمشط وحق الطيب . وقد تعلق بجدار الغرفة ركوة من جلد وبجانها قربة مملوءة ماء فلما صارت دميانة في وسط الغرفة والقهرمانه معها شعرت بانقباض شديد لم تعد تملك معه نفسها فجعلت دموعها تنحدر على خديها ونفسها تطلب البكاء وهي تملك احساسها واذا بالقهرمانه تقول لها بلغة قبطية مكسرة « اجلسي يا بنية على هذه الوسادة » وربت لها على كتفها تحبباً فلم تعد دميانة تتمالك فالتقت نفسها على الوسادة واخذت بالبكاء بصوت عال كالأطفال ونسيت موقفها

فاستغربت القهرمانه بكاءها بغتة وأخذت تسألها عما تريده فقالت «هل تحتاجين الى شيء»

فلم تجبها

فقالت «هل انت خائفة؟ لا تخافي يا بنية ان الامير يحبك كثيراً وبعد قليل يأتي اليك . . قومي اصلحي شأنك . . هذه الاطياب وهذا السواك وهذا المشط وانا اساعدك» قالت ذلك ومدت يدها الى الجراب وهي تنظر الى دميانة فاذا هي تزداد بكاء ولا تنبته لقولها فعاتت الى تطيب خاطرها وملاطفتها وما زالت بها وهي تارة تلاعها وطوراً تمازحها وآونة تهددها أو تمنبها او تطمئننها حتى سكن روعها ولم يطمئن بالها ولكنها تجلدت

وأظهرت أنها تريد الانفراد فتركها القهرمانة ومضت وقد خيم الظلام فزادت دميانة انقباضاً ووحشة وكانت تستأنس بنار موقدة بين يدي الحباء انارت الحباء نوراً ضعيفاً . فلما خات بنفسها ركعت على ذلك البساط ركعة مؤمن صادق الإيمان وبسطت يديها نحو السماء ورفعت بصرها الى العلى وأخذت تصلي كأنها تخاطب شخصاً تراه بعينها وتثق انه يجيب ظلها وجمعات تتضرع الى الله وتستجير بالمسيح ومريم العذراء وسائر القديسين تطلب الخلاص من هذه التجربة التي أوشتك على الوقوع فيها . وكانت تصلي بحرارة ودموعها تتساقط على خديها وهي تتلو الصلاة بصوت خافت تتخلله نبرات عند التوسل والالاح عند الرجاء . وقد حلت شعرها وكشفت عن صدرها واستغرقت في تضرعاتها ومناجاتها حتى نسيت موقفها فصارت تطلب وتتضرع بصوت عال تعترضه غصة أو بحة وتقرع صدرها وتعيد الطلب والدعاء كأنها تجردت عما يحيط بها

وكانت القهرمانة قد تركتها ولم تبعد عن غرفتها فسمعت صلاتها فاسترقت الخطى اليها حتى وقفت بجانب الباب بحيث ترى موقف دميانة وتسمع تضرعاتها ومع غاظ قلبها لم تمالك عند رؤية دموعها المتساقطة وسماع صوتها المخنوق من الانعطاف اليها لكن غلب عليها الاستغراب وكانت على موعد من قدوم ابى حرملة بتلك الساعة وعليها أن تهىء العروس وتصلح من شأنها قبل قدومه فهمت أن تدخل وتوقفها عن الصلاة واذا هي تسمع خطوات عرفت انها خطوات الامير فتحولت نحوه وأشارت اليه باصبعها أن يمشى الهويناً ليرى حال دميانة بعينه . أرادت بذلك أن تستلفت استنراه

فمشى حتى اطل على الفتاة بحيث يراها ولا تراه فرآها جائية وشعرها محلول وقد انتفش واسترسل حتى غطى كتفها وأعلى صدرها ووقع نظره على جانب وجهها فرأى الاحمرار قد جلله والدمع بلله وهي تبسط يديها نحو السماء تارة وتقرع بهما صدرها تارة أخرى فنظر ابو حرملة الى القهرمانة نظر الاستغراب وهي نظرت مثل نظره ولكنه حمل ذلك من

دميانة حمل الاستيحاش لبعدها عن أهلها وعزم على اكرامها حتى تستأنس به وقد زاده منظرها في تلك الساعة رغبة فيها فتراجع وأوصى القهرمانه في تطييبها واعدادها له وانه عائد بعد قليل ومضى

أما دميانة فقد طالت صلاتها ولم تمل ولكنها شعرت بعد حين بتعب يديها فانتبهت لنفسها واذا هي قد سري عنها وذهب ما كان أحرق بها من الهموم والخاوف وشعرت بشجاعة واطمئنان وتحققت ان لا خوف عليها من حبائل الشيطان

وهي تتحفز للوقوف دخلت القهرمانه ضاحكة وهمت بدميانة فقبلتها فاشتمت دميانة منها رائحة خصوصية كانت تشتمها من ذلك المعسكر على الاجمال ولكنها أحست بها قوية من وجه القهرمانه وهي رائحة بعض الاطياب الخاصة باهل البادية. أما القهرمانه فامسكت دميانة يدها واجلسها على الوسادة بجانبها وقالت لها « قد آن لك أن تنطبي للقاء عريسك وهذه شمعة قد اختصك بنورها وكان قد حفظها لاعز أوقاته وأمرني ان أضيئها في هذه الغرفة ليري وجهك الجميل بها . . . ويجب ان تعتبري ذلك اكراماً خصوصياً فانه لم يفعل مثله مع سواك من نسائه . . . » قالت ذلك واستخرجت قضيب شمع غليظاً مغروساً في شبه القاعدة واستخرجت القداحة وولدت النور بواسطة الزناد واطأت الشمعة ووضعها على منضدة أو كرسي صغير في بعض جوانب الغرفة . وتناولت الجراب واستخرجت المشط والسواك وحقوق الاطياب وأخذت تشتغل باصلاح شعرها وتمشيطها وتطييبها ودميانة ساكنة لا تتكلم ولا تمانع وقلبها مطمئن هادىء

الفصل الخامس والخمسون

موقف هائل

ولما فرغت من تمشيطها وتطيبها اتبها بثوب من الحرير الملون كان أبو حرمة قد بعث به اليها مبالغاً في اكرامها فلبسته وهي ساكنة فظنتها القهرمانة راضية مسرورة فخرجت الى أبي حرمة فاستقدمته فأتى وكان قد خفف ملبسه واتشح بثوب من الحرير يشبه ذاك وتطيب . ولما دخل الغرفة أشار الى القهرمانة فخرجت ثم عادت ويدها ركوة من جلد وقدرح من خشب وضعتهما بين يديه وخرجت وبقي هو ودميانة ليس في الغرفة سواهما . فلما شعرت دميانة بذلك الانفراد اختلج قلبها في صدرها رغم استسلامها واتكأها بعد الصلاة واستأنفت الاستغائة في سرها

أما هو فقعد على البساط وتناول الركوة فصب منها في القدرح وقدمه الى دميانة وهو يقول بلغة قبضية مكسرة « اشربي يا عروسة .. اشربي من هذه المريسة فانها تنعش القلب وتذهب الحزن .. »

فظلت ساكنة مطرقة لا تعلم ما ذا تفعل فقال لها « انا اشرب هذا القدرح عنك » فشربه وصب قدحاً آخر وقدمه لها وقال « خذي اشربي .. » وأدى القدرح من فيها فنفرت منه وظهر الاشمزاز في وجهها فقال « يظهر انك لم تتعودي هذا الشراب » ووضع القدرح من يده وسحف على البساط حتى دنا منها ووضع يده على ركبتيها فاقشعر بدنهما ولم تتمالك على النهوض بغتة ونفرت فاخذ يضحكها فقال « ما بالك . . لماذا تخافين مني وانا احبك كثيراً » ومد يده ليمسك يدها ويجذبها اليه فتباعدت فتناول حتى أمسك يدها فاذا هي باردة كالثلج وشعر بمجار كهربائية زادت رغبته فيها . وأما هي فلما لمسها قف شعرها وكاد الدم يجمد في عروقها . ولم تجد فائدة من النفور فاطاعته وقعدت وهي تتجنب أن تلمسه وخاطبته والدمع في عينيها قائلة

« أتوسل اليك يا سيدي ان تتركني وشأني »

قال « ولماذا .. الأترضين أن تكوني من نساءى »

فلما سمعت سؤاله خافت أن تجيبه «لا» فيغضب فقالت « أني جارية حقيرة لا أستحق هذا الاكرام وأنت في غنى عني بمن عندك من النساء الكثيرات فاتخذني جارية أخدم في مطبخك أو ارعى الماشية أو أي شي آخر »

قال « لا . لا . بل أنت أفضل النساء عندي وسأجعل لك المقام الاول فلا تجزعي فما أنا وحش وان لم أكن من أهل المدن نظيرك »

فقالت « يظهر لى من كلامك ومن علو منزلتك انك طيب السريرة اذ لا يمكن أن يبلغ مقام الامارة أسافل الناس .. فاتقدم اليك أن تسمع كلمة أقولها لك .. هل أقول ؟ »

قال « قولى »

قالت « أنا أعلم ان حظوتي عندك من أسباب الشرف العظيم الذي يتمتعاه كثيرون ولكننى أحب أن تعفينى من تلك الحظوة . وانا أسيرة عندك استخدمني بما تشاء فاني أكون خادمة أوراعية أو جارية للطبخ أو الغسل أو الحرت أو أي شيء غير الزواج .. اسمح لى .. اعفنى .. استحلفك بمن تعبد أو بمن تحب أن تتركني وشأني »

قال « كيف أتركك وشأناك وقد وقعت لي من الغنيمة بعد استخارة الآلهة ورأيت فيك جمالا لم أشاهده في سواك .. فانا أنصح لك أن ترجعي عن خطئك وتأتي راضية أولى من ان تأتي مكرهة .. وانت تعلمين ان أبا حرملة صاحب هذه القبيلة لا يعجزه ما يريد منك »

فشعرت بثقل تهديده وهي تعلم أنه اذا عزم على أمر لا يردعه رادع فاطرقت واعمت فكرتها ولم تحب فاستبطأ جوابها فقال « هل رجعت عن غيك يا قبطية .. هل شعرت اني ادعوك الى السعادة ؟ »

فرفعت عينيها اليه وقد تكسرت اهدابهما من البكاء وذبلتا من الحزن والقنوط وقالت « قلت لك ان كثيرات من أمثالي يتمنين الحصول على هذه

السعادة ومع ذلك فاني استعفيك منها .. واطلب مني ما شئت غير ذلك .
قلت لك اني أكون خادمة جارية راعية أكون أي شيء تريده غير الزواج»
فقطع كلامها قائلاً «راعية خادمة؟ ان الخدم كثيرات فاتنا بنبع الارقاء
بالمئات»

الفصل السادس والخمسون

الدهان السري

فانتبهت دميانة لفكر طرق في ذهنها فيجأة وحالما خطر لها بان البشر في
وجهها فقالت والجد باد في محياها وقد ذهب خوفها «انت أمير كبير واكثر
اشتغالك بالحروب»

قال «نعم»

قالت «واظنك تخسر كثيرين من رجالك في أثناء القتال»

قال «كثيرين»

قالت «وانت طبعا لا تكون في مأمن على نفسك ايضاً»

قال «اني لأخاف الموت»

قالت «لم أقل انك تخاف الموت ولكن ألا تكون معرضاً للقتل»

قال «طبعا .. ولكن ما معنى هذا الكلام وما دخله فيما نحن فيه؟»

قالت «تمهل ايها الامير وستسمع النتيجة .. ألا تعلم من الجهة الاخرى

بما في مصر من العلوم السرية التي ورثناها عن أجدادنا الفراعنة؟»

قال «استمع بشيء كثير .. وماذا يهمني من العلم»

قالت «ألا يهمك أن تنجو أنت ورجالك من القتل ولو تساقطت

عليك الحراب كالامطار أو وقعت عليكم السيوف كالجنادل؟»

فضحك حتى بانث أسنانه البيضاء وهز رأسه وقال «بلى يهمني ولكن

هل في علم المصريين ما يمنع الموت؟»

قالت « نعم ايها الامير .. وذلك سر لا يعلم به الا القليلون »
فشخص بصره اليها شخصوس المستغرب وقال « وهل تعرفينه انت؟ »
قالت « اعرفه »

قال « انما تحتالين في النجاة »

قالت « اسمع لي .. أنا لا أقول جزافاً ولا أطلب منك التسليم بدون
تجربة .. ان سر هذا الدواء محصور في بعض الاديار بمصر وقد تعلمته
وعرفته »

قال « وما هو ؟ »

قالت « دهن اصطنعه وأقرأ عليه اذا دهن الرجل جلده به أمن الموت
اذ لا يقطع فيه سيف ولا رمح ولا نصال »

فقال « دعينا من الكلام الهراء ان هذه الاكاذيب لا تنطلي علي »
قالت « انها ليست أكاذيب يا سيدي انه سر في يدي لا أبيع به لك

الا بشرط ان تعاهدني على كتابته وتقسم بما تعبده انك تفي لي .. »

قال والجد يتجلى في جبهته وعينه « اتقولين الحق ؟ »

قالت « نعم »

قال « اذا صدقت وكان عندك مثل هذا الدهان فاني اعطيك

ما تطلبينه »

قالت « لا أطلب شيئاً غير اطلاق سراحي وايصالي الى بلدي واهلي

وان لا تطالبني بالزواج أو غيره »

قال « لك ذلك .. واقسم بالهي اني مبر بقسمي ولكن كيف نعرف

صحة هذا الدواء ؟ »

قالت « نجربه على رجل تدهن جسمه به وتضرب عنقه فاذا قطع كان

الدواء كاذباً .. واذا ذهب الضربة ضياعاً ولم يصب الرجل بسوء ألا تصدق

قولي وتفي لي ؟ »

قال « بلى .. ولكن من يرضى ان نجرب ذلك عليه ويعرض نفسه

لهذا الخطر ؟ »

قالت « اذا لم نجد أحداً انا اجر به بنفسي »
 فاطرق أبو حرملة وقد دهش لهذا الكلام وقال « طيب . . . ومتى
 تصنعين هذا الدهان ؟ ومتى تجر به ؟ »
 قالت « غداً ان شاء الله »

فنهض وهو لا يصدق ما يسمعه وقال « لنصبرن الى الغد » ثم وقف
 وقال لها « اني منصرف الساعة فاصنعي العقار وفي الغد نجربه فاذا صح فاني
 فاعل ما تريدن »

قالت « لا أريد غير اخلاء سبيلي وارجاعي الى اهلي »
 قال « حسناً » وخرج وقد تولته الدهشة وسار تواءً الى فسطاطه
 أما دميانة فلما خرج من عندها تنفست الصعداء وأخذت في اعداد
 الدهان فزجته من الاطياب التي بين يديها وازافت اليها أشياء اخرى
 غير معروفة حتى صار بقوام الشحم وجعلته في القدح الذي عندها
 وباتت تلك الليلة مضطربة لهول الامر الذي هي مقدمة عليه ولكن ايمانها
 كان قويا

وفي اليوم التالي جاءتها القهرمانه فرأتها مشغولة بالصلاة فاتتها بالطعام
 فأكلت قليلاً ثم جاء سمعان النوبي الترجمان يطلب دميانة من القهرمانه
 فسلمتها اليه . فلما رأته ارتاحت الى رؤيته وابتسمت ابتسامه حزين يائس
 فائر منظرها في نفسه ولكنه قال لها « ارجو ان تكوني قد غيرت رأيك
 في أميرنا »

فنهدت وارسلت دمتين المخدرتا على خديها وهي ساكته تمشي في
 أثره حتى بلغت الى خيمة الامير وقد خبأت قدح الدهان في جيبها فامر ابو
 حرملة بادخالها عليه وحدها فدخت واراد سمعان ان يدخل معها فاشار
 اليه الحاجب ان يبقى خارجاً فكث وهو يتعجب من تلك الخلوته مع حاجة
 الامير الى مترجم

الفصل السابع والخمسون

اضرب بسيفك

أما دميانة فدخلت الفسطاط وقد علقوا على اعمدته اسلحة وادراعا وجلس ابو حرملة على عنقريبه متكئاً وقد مد رجله وقدماء حافيتان وليس على رأسه الا عمامة صغيرة لا كها بلانظام وبيده خيزرانة يتلاهي بها . فشت دميانة الى وسط الفسطاط ووقفت فأشار اليها ان تتقدم فتقدمت حتى اقتربت منه فاوماً اليها ان تقعد فقعدت فقال لها « ذهبت امس الى خبائك فاطعمك ذلك في وبعث على نفورك فاردت ان استقدمك الى فسطاطي لعلك تغيرين عزمك ألا تزالين خائفة ؟ »

فقالت « لست خائفة ياسيدي ولكننا اتفقنا مساء أمس على شيء هل نسيته ؟ »

قال متجاهلاً « وما هو »

قالت « ألم تعدني باطلاق سبيلي اذا استحضرت لك الدهان الذي يمنع القتل ؟ »

فضحك وقال لها « لا أحسبك تقولين الجدد . دعينا من الادهان وارجعي الى رشذك »

قالت « انما اقول الجدد ووعد الامير مقدس »

فاعتدل في مجلسه وقال « تصنعين دهانا يمنع القتل ؟ ما هو ؟ »

قالت « نعم يامولاي » ومدت يدها الى حبيها واستخرجت القدح ودفعته اليه فتناوله ونظر في ذلك الدهان فاذا هو خثر كالشحم وله رائحة الطيب فقال « هذا الدهان يقي من القتل ؟ »

قالت « نعم اذا دهنت به عنق الرجل لا يقطع فيه سيف ولا خنجر » فهز رأسه وهو يتأمل بما في القدح تارة وينظر اليها تارة أخرى وهي

مطرقة تنتظر أمره فقال « ينبغي لنا ان نجرب ذلك »

قلت « جربه »

فقال بلحن التهديد « اجر به بك انت »

قلت « جربه يا سيدي بمن شئت فانا على يقين من صدقه »

فرد القدح اليها وقال « خذي ادهني للمكان الذي تريدنيه وانا اجر ب

ضربه بسيفي هذا » ووضع يده على سيف الى جانبه

فتاولت القدح من يده وهي تقول « جرد سيفك » ورفعت شعرها

الى أعلى رأسها وكشفت عن عنقها وأخذت بعض الدهن برأس سبابتها

وجعلت تمرح عنقها واعلى صدرها . فلما فرغت من العمل جثت بين يديه

وقالت « اطلق حسامك جرب قوتك .. »

فنهض واستل حسامه وقال « أضرب ؟ »

فقلت وهي مطرقة وقد كشفت عن قفا عنقها «اضرب»

فوقع نظره على بياض جلدها ورأى انكسارها فأبت نفسه ان يؤذيها

لانه لم يطلق حسامه على عنق إلا براه بري القلم فتراجع وقال « راجعي

نفسك اني لا أظنك الا مقتولة »

قلت « لا تخف .. اضرب .. ان يدك سترتد خائبة .. »

فأخذته الغضب وقال « ترند خائبة ؟ » ورفع يده وهم بالضرب واذا

بصوت يناديه من الخارج « لا تفعل يا مولاي » وسمع خطأ فالتفت فرأى

سمعان داخلا مسرعا حتى حال بينه وبين دميانة فقال أبو حرملة « ما بالك؟ »

قال « ما ذا تفعل يا مولاي ؟ »

قال « اجر ب دهانا اصطغته هذه القبطية تقول انه يمنع القتل واكدت

لي ذلك حتى ارادت ان اجر به في عنقها »

قال « وهل صدقت قولها ؟ »

قال « لم أصدقها ولذلك اردت ان اجر ب ذلك فيها »

قال « انك قاتلها »

قال « هي تقول ان الدواء مجرب لا ريب في صدقه . ولولا ذلك لم

تعرض نفسها للقتل فقد رأيتها تستحني على الضرب بكل قوتي «
فلما سمع الترجمان قوله ابتسم وأدار وجهه حتى استقبل دميانة بوجهها
وهي لا تزال جاثية مطرقة وشفاتها تتحرك كأنها تصلي فلما اقترب سمعان
منها رفعت بصرها اليه وعيناها تتلألأ لأن بالدمع فقال لها « أتصدقين فعل
هذا الدواء »

قالت « كيف لا وها اني اطلب تجربته في نفسي دعه يضرب ثم يرى
ما يكون »

فضحك سمعان وقال « ذلك لا يجوز علياً يا دميانة . . . فقد عرفت
قصديك » وتحول نحو الامير وقال « لا تصدقها ياسيدي ولا تطلق حسامك
الا اذا كنت تريد قتلها وهي تعلم يقيناً ان الدواء لا فائدة منه وان الضربة
من يدك تقضي عليها »

فقال والدهشة ظاهرة في عينيه « تعرف ذلك وتعرض نفسها للقتل؟
لا لا هذا لا يكون .. دعني اجرب »

فصاحت دميانة « دعه يجرب وسترى صدق قولي فأستريح من هذا
الاسر لانه سيرجعني الى اهلي »

قال « لا تفعل ياسيدي انها تريد الموت .. »

قال « كيف تسعى بنفسها الى القتل ؟ »

قال « تفعل ذلك فراراً من امر يجرمه دينها عليها وانت تطلبه منها
فلما لم تجد وسيلة للإنجاة بالحسنى فضلت الموت على الرضا به »

فجعل ابو حرملة ينتقل بنظره من سمعان الى دميانة ومن دميانة الى
سمعان كأنه يتفحص ما يضمرانه ثم قال « وكيف عرفت ذلك ؟ »

قال « عرفته لانه حدث قبل هذه المرة بصعيد مصر منذ أكثر من
مائة سنة في دير من ديارات الراهبات وقد سمعته اثناء مروري هناك »

فلما سمعت دميانة قوله نظرت اليه نظرة عتاب ولسان حالها يقول
« لقد وقفت في سبيل نجابي من العار »

فقال ابو حرملة « وكيف ذلك »

قال « لما قام العباسيون على بني أمية وأرسلوا جيوش خراسان لمحاربتهم هرب كبير بني أمية مروان الى مصر وجعل يهاجم اديار الراهبات والرهبان فاتفق ان رجاله وجدوا في بعض الديارات فتاة جميلة الصورة فاحضروها اليه فاعجبه جمالها فارادها لنفسه وهي تأتي ذلك لان النصرارى يتفاخرون في المحافظة على العرض ولا سيما الراهبات فان الفتاة منهن تستكف أن تمس عفتها بشيء وتفندي عفتها بنفسها . فلما أرادها الامير وعلمت انه غير تاركها احتالت عليه وزعمت مثل زعم صاحبتنا هذه ان عندها دواء اذا دهن به الجسم ارتدت عنه السيوف القواطع وانه اذا وعددها باطلاق سراحها دلته على ذلك الدهن فرضي بقولها واشترط ان يجرب ذلك فيها فرضيت ودهنت عنقها وامر الجلاد فضربها فاطاح رأسها عن بدنها فعلم انها فعلت ذلك تفضيلا للموت على أن تمس عفتها^(١) .. وتحدث أهل مصر بهذا الحادث العجيب زمناً طويلاً »

الفصل الثامن والخمسون

سلطة الفضيالة

فلما سمع ابو حرملة قوله رد سيفه الى عنقه وهو مطرق ثم رمى السيف على البساط وتقدم الى دميانة وقال لها « قومي يا أخية .. قومي .. هل انت تريدين الموت ؟ »

فصاحت وهي واقفة وقوف المستعطف والدمع يتلألأ في عينها « نعم افضل الموت على ما تطلبه مني . . . اذا كنت لا تزال على عزمك الاول فاقتلني حالا »

فاظهر الغضب وقال « تفضلين الموت على أن تكوني عندي »
قالت « كلا يا سيدي لا أشكو من شخصك فانت أمير كريم الاخلاق

ولكنني أنجب شيئاً آخر .. » واطرقت حياء

فتصدى سمعان للكلام وقال «إنها إنما تريد المحافظة على عفتها حسب

اعتقادها وليس بالنظر الى رجل معين »

فاحس أبو حرمة كانه غلب على امره وشعر بقوة في تلك الفتاة الضعيفة

السبية لم يكن يشعر بمثلها في كبار الرجال . وسر قوتها احتقارها هذه الحياة

ومحافظتها على عفافها وثباتها في المبدأ الذي شبت عليه ولم يمنعها خطر الموت

عن البقاء فيه . والنمسك بالعفاف ونحوه من الفضائل يكسب اصحابه قوة

ومهابة حتى في الامم المتوحشة فلم يتالك أبو حرمة عن النظر الى دميانة

نظر الاحترام وقال « كيف تفضلين الموت .. »

قالت « افضله لانه ينجيني من ارتكاب ما اعتقده مخالفاً لارادة الله

وتعاليم السيد المسيح »

فالتفت أبو حرمة الى سمعان وقال « فهي اذا نصرانية على مذهب

سيدك صاحب التوبة .. »

قال « نعم يا مولاي والنصارى يعدون المحافظة على العفة من أكبر

الفضائل »

قال « فذاك التوبة اذا أولى بها منا اكراماً لهذا الثبات قد عفوت

عنها .. لكنني لا أتكلف ارجاعها الى مصر ونحن بعد أيام قائمون الى النوبة

فنسلمها الى ملكها ... »

فلما سمعت دميانة كلامه اشرق وجهها وذهب انقباضها وتناثرت دموع

الفرح من عينيها وهمت بيد الامير لتقبلها فزاده هذا الشعور شفقه عليها

واعجابا بها لانه لم يكن يتصور انه يوجد في الدنيا امرأة تأتي ان تكون

زوجة له فكيف انه رآها تفضل الموت على التفريط بعفتها فقال لها « قد

تركتك وشأنك ونحن قائمون بمد ايام الى التوبة فنكون على مقربة من

دقلة عاصمة ذلك الملك فادفك اليه .. هل برضيك ذلك ؟ »

فاشارت برأسها وعينيها انها تشكره على هذه المنة وهي لا تعرف كم تبعد

دنقلة عن ذلك المكان ولكنها كانت تود التخلص من تلك الشراك باية وسيلة كانت . أما سمعان فيعرف البلدين وما بينهما من البغد فقال « واذا كان الامير يرى ثقلة ببقائها في معسكره وأنا نوبي وقد اشتقت الى بلادتي فيأذن لي بالانصراف اليها فأخذ الفتاة معي واوصلها الى النوبة »

فضحك الامير وقال « لقد طالما لحظت رغبتك في فراقنا وقد سنحت لك فرصة فامض واهد سلامي الى ملك النوبة وقل له اتنا باقون على العهد. وقل لغلامي ان يهيء لكما الركائب اللازمة وخذوا خادماً أو ما شئتم » والتفت الى دميانة وقال لها « اسبلي ذيل المعذرة على ما حملناك من التعب يا جميلة واذكرينا عند أهلك بالحير متى بلغت الى بلدك »

فتذكرت رفيقتها عليا فارادت ان تسأل عنها لعلها تصحبها معها وتكافئها على جميل والدها فقالت « اشكرك أيها الامير وسأنتشر في الملا ما لقيته من نجبته وكرم أخلاقك . . ولكن لي رفيقة كانت معي منذ أخذنا من حلوان .. »

فنظر أبو حرملة الى سمعان كأنه يستفهمه فقال « أظنك تعنين عليا فهذه قد تزوجها ذاك الامير وهي راضية لانها تحققت موت والدها وسائر أهلها وهي من بنات البادية »

قالت « لعلها تحب أن ترافقني »

قال « وقد سافرت في هذا الصباح مع زوجها .. »

فسكبت دميانة وخرجت مع سمعان واتكلت عليه في اعداد ما يلزم لتسفر .. وحدثتها نفسها ان تطلب اليه ان يحملها الى مصر بدل بلاد النوبة فتصل الى أهلها . فلما خرجا نظرت اليه وهي لا تصدق أنها نجت من تلك الجبائل بعد ان كادت تقتل وشمرت ان له الفضل في ذلك اما هو فلعله كان أكثر سروراً منها لانه انقذها من الموت. فلما رآها تنظر اليه ضحك وقال لها « هل انت مسرورة يا سيدتي ؟ »

قالت « الفضل لك يا سمعان في حياتي ... »

قال « لا فضل لي فاني فعات الواجب وقد شعرت من أول لحظة رأيته »

فيها ان علي فرضاً واجباً نحوك »

فقلت « وأنا حالما وقع بصري عليك شعرت بارتياح لرؤيتك ثم تحقق

ظني بما آنتسه من طيب عنصرك كانك مسيحي مثلي »

فضحك وقال « وانا كذلك .. ابي ربيت تربية مسيحية ولذلك رأيتني

عرفت حركاتك »

وكانا يمسيان وأهل المعسكر ينظرون اليهما وقد بلغهم الخبر ان الامير

عفا عن تلك المرأة وأمر بتسريحها . فظل سمعان ماشياً حتى أتى خيمته

وأمر الخادم ان يبيء الاحمال ودعا دميانة الى الجلوس وأمر لها بطعام

يعرف انها تأكله فاحست باستئناس كثير ولما سمعته يأمر باعداد الاحمال

قالت « الى أين نحن ذاهبون »

قال « الى دنقلة يا سيدتي » وضحك

قالت « وأين هي من هنا ؟ »

قال « تبعد بضعة عشر يوماً على الجمال »

قالت « هل هي من جهة مصر ؟ فاذا وصلنا اليها تقرب من

الفسطاط ؟ »

فضحك وقال « ان مصر الى يميننا ودنقلة الى يسارنا فاذا كنا الآن

بعيدين عشرين يوماً عن مصر فمتى صرنا في دنقلة نصير على مسافة أربعين

يوماً عنها »

فبغتت وانقبضت نفسها وأطرقت فابتدورها سمعان قائلاً « لا تجزعي

اتنا لا نذهب الى دنقلة وانما نحن ذاهبون الى اسوان وهي على يوم وبعض

اليوم من هنا » وخفض صوته وقال «لاني عرفت من بعض المارين بنا أن

ملك النوبة قدم الى جوار اسوان متكرراً ومتى صرنا هناك لانكون بعيدين

عن مصر كثيراً »

فاشرق وجهها وقالت « بورك فيك . فاتقدم اليك بعد وصولنا اسوان

أن ترافقني الى مصر لا كافئك على صنيعك »

قال « سأكون في خدمتك حتى تصلي مأمنك »

فشكرته وصممت اذا هو راففها الى مصر ان تكافئه أحسن مكافأة . وفي الحال تذكرت ما كان من أمرها في الفسطاط وكيف اضطهدها أبوها ولا تعرف ما يكون مصيرها لانها لم تعلم بما دار بين زكريا وسعيد وكان زكريا قد تركها في حلوان وذهب لاستجلاب الاسطوانة ولقى سعيداً وكلمه ولما مضى ليخبرها بما حدث وجدها قد أخذت . فلم تكن دميانة تعرف شيئاً من حال أهل مصر ولكنها كانت تتوقع ان تكتشف الحقيقة وتوسمت في سماعان الرغبة في خدمتها فارادت أن يصحبها الى مصر لتستخدمه في التفتيش عن زكريا أو سعيد واخذت تتأهب للرحيل الى اسوان

الفصل التاسع والخمسون

اسوان

وكانت اسوان آخر حدود مصر من جهة الجنوب وتبتدىء بعدها بلاد النوبة وهي مدينة آهلة فيها تجارة واسعة لما يتبادل من السلع والحاصلات بين مصر والسودان يجتمع فيها التجار على اختلاف الملل . وكثيراً ما كان النوبة يسطون عليها ليضموها الى بلدهم فيحاربهم المسلمون ويردونهم . وفيها مغارس النخيل الخصبة وعندها يبتدىء الشلال الاول من النيل وهي جنادل تعترض مجرى الماء فيسمع لها دوي وخرير ويعسر سلوكه بالسفن فيجرونها باللبان جرّاً ويحملونها حملاً حتى تتجاوز تلك المضائق . وعند اسوان كثير من آثار الفراعنة اهمها هيكل أنس الوجود المشهور . وكان في عهد روايتنا دير نجاه اسوان في البر الغربي يقيم فيه بعض الرهبان لا تزال آثاره باقية الى الآن . وناهيك بالجبل المجاور لاسوان من جهة الصحراء وفيه المناجم الصوانية التي كانوا يقطعون منها الاحجار الاسوانية وتراها الى الآن باقية وفيها الاحجار المقطوعة والحفر المنقورة

وكان ملك النوبة يومئذ يسمى فيرقى (أو فيرقى) وكان طامعاً بملك مصر

واخراجها من أيدي المسلمين واعادتها الى ملك الروم . فكانت المخبرات جارية بينهما سراً بواسطة أسقف مقيم في اسوان تأتيه رسل الروم فيبيع بالكاتب أو بالرسل الى ملك النوبة . وأحب ملك النوبة في ذلك العام ان يأتي بنفسه للمخبرة شفاهاً مع الاسقف . فتنكر ونزل في مسلحة على حدود النوبة وراء اسوان ولا يعرف به غير نفر من خاصته . وبلغ ذلك الى سمعان من جماعة كانوا مع قافلة الملك عند خروجها من دنقلة وتركوها قاصدين مناجم الزمرد فلتقي سمعان رجل منهم يعرفه فقص عليه الخبر سراً

وبعد يومين أعدت الركائب لدميانة وسمعان ومعهما خادم وجمل يحمل مؤونتهم والمسافة الى اسوان قصيرة . واشرفوا عليها في الاصيل فقال سمعان « اننا على مقربة من اسوان وهذا جبلها المشهور الذي يقطعون منه الاحجار وينحتون التماثيل فيذبغي لنا ان تتجاوز اسوان نحو الجنوب »
قالت « ولماذا لا تنزل فيها فقد بلغني ان فيها ديراً ذا كرامة احب ان ازوره »

قال « ان الدير على البر الآخر لا تتصل اليه الا بعد ان نقطع النيل ولا بد من ذهابنا اليه أما الآن فعائنا ان نقابل الملك »
قالت « وأي ملك ؟ »

قال « ملكنا .. ملك النوبة »

قالت « أليس هو في اسوان ؟ »

قال « كلا انه لا ينزل اسوان لانها ليست داخلية في مملكته ولكنه ينزل في مسلحة وراء الشلال فيها حامية من رجاله »
فتمخضت وسكتت وظهر من ملامحها انها تكتم أمراً تحب اظهاره فقال
« اظنك تتعجلين السفر الى مصر »

فضحكت وقالت « هل تلومني على ذلك ؟ وقد فارقت أهلي ليكون على فراقي وربما يشسوا من وجودي »

قال « لا ألوئك يا سيدتي . ولكنتا بسفرنا الى مصر لانستغني عن

نجدة الملك وزد على ذلك اني مكلف برسالة من أبي حرمة اليه لا بد من تبليغها «

قالت « افعل ما بدا لك »

وكانا راكبين على الجمال وقد أشرفا على النيل عن بعد فرأيا سطحه يلمع كفرند السيف وتحداه الجبال من الضفتين ويتخلل ذلك انقاض الهياكل الفرعونية فيها الجدران والاساطين ولما اقتربوا من اسوان سمعوا هدير الماء عند الشلال من تراحه في سيره بين الجنادل - مر على وادي النيل دول شتى وتوالت عليه أحوال مختلفة من عز وذل ونزل ذلك البلد ملوك وقواد من عهد الفراعنة العظام الى اليونان فالرومان فالمسلمين وهدير ذلك الماء واحد ومجراه على وتيرة واحدة لا يمل من الجري ولا يمل جاره من السمع

مروا بالقرب من الجبل وقد كادت الشمس تدرك المغرب فقال سمعان

« لا تزال بعيدين عن المسلحة فارى ان نبنت هنا الليلة هل تريدن ؟ »

قالت « لا رأي لى يا عماء - افعل ما تشاء »

فاشار الى الخادم ان ينصب الخيمة وهي صغيرة كالمظلة تبنت دميانة تحته وبيت سمعان خارجا والخادم يعقل الجمال وينام بينها فقال الخادم « ابن انصبها »

قال « انصبها في سفح هذا الجبل في مكان مهد » قال ذلك وترجل

وانزل دميانة عن الجبل وقد تعبت وأخذ يحدتها ليشغلها عن التعب وألقت أنظارها الى ما هنالك من المشاهد الطبيعية وهي لا ترى شيئاً لأنها حالما وقع نظرها على النيل تنسمت رائحة الفسطاط وتذكرت حبيبها وتاقت نفسها الى

اللقاء لترى ما يكون من امرها

وبعد قليل جاء الخادم وأنبأها بنصب الخيمة على مصطبة من الصخر

في سفح ذلك الجبل فقال له سمعان « امكث انت هنا مع الجمال الى الصباح وكن مستيقظاً لئلا يسطوا عليك اللصوص »

قال « حسناً » ومضى

وصعد سمعان ودميانة للمبيت تحت تلك المظلة وهي لا ترى بأساً من الانفراد بسمعان لأنها كانت تعده مثل خادمها زكريا وقد آنست فيه لطفاً وخصوصاً لأنها عرفته وهي في أشد الضيق وتوسمت فيه طيب العنصر وانه نصراني والدين من اهم أسباب التقارب

حمل سمعان معه بعض الزاد وجلسا تحت المظلة فتناولوا شيئاً من الطعام ثم غلب عليهما النعاس فقامت دميانة على بساط فرشه لها سمعان تحت المظلة وتوسد هو ارضاً رملية على بضعة أذرع منها وجعل رأسه على ذراعه . وهو يوشك ان ينام سمع دويماً فالصق اذنه بالارض جيداً وتنصت فاذا هو يسمع وقع خطوات قريبة فرفع رأسه وقد خيم الظلام واصاخ بسمعه فسمع لغطاً بعيداً فهض وتمشى حافياً نحو الصوت وهو يتلمس طريقه حتى أطل من وراء الحبل على خيام منصوبة و نار مشبوبة وتفرس فاذا هي خيام نوبية الشكل فلم يشك في انها مضارب الملك فحدثه نفسه ان يسير اليها لانه يلاقي فيها اكراماً وحفاوة ويبلغ رسالته . ولكنه خاف ان يترك دميانة منفردة فعزم ان يسير بها في الصباح الى هناك وعاد الى متوسده ولم يكذب ينام حتى سمع دويماً قريباً فهض فرأى ثلاثة فرسان يسوقون افراسهم في طريق يؤدي الى ذلك المضرب فنصت وتفرس بالمارين فلم يعرفهم لانهم متنكرون فعاد الى منامه

وقبيل الفجر جاءه الخادم فسأله هل شاهد أحداً ماراً في ذلك الليل فقال «شاهدت ثلاثة رجال ومر بي خادمهم فسألته اذا كان منهم خوف عليكم فقال « كلا . لا خوف منهم .. لانهم أسقف المدينة واثنين من رجاله» وبالواقع قد رجعوا في آخر الليل ولم نشعر بهم»

فلما سمع سمعان قوله «اطرق هنية يفكر ثم ابتسم و اشار اشارة معناها « عرفت السر » ثم التفت وقال له « امكث هنا بالجمل والثياب حتى نعود اليك » وقال لدميانة «هل تريدن مرافقتي الى هذه الخيام وراء هذا الحبل فانها مضارب ملك النوبة فنقابله ونستأذنه في السفر ثم نعود »

قالت « اذا كنت ترى فائدة من ذهابي اذهب »

قال « الافضل ان تأني معي وأظنك تحيين مشاهدة ملك النوبة فان الناس يتمنون رؤيته » وأشار ان تتبعه فمشيا حتى تجاوزا الجبل الى بقعة منخفضة فيها بضع خيام احداها كبيرة فتقدما حتى اقتربا من الخيمة الكبرى فتصدى لها رجل نوبي غليظ البدن قوي العضل حافي القدمين قد التحف شملة لثف بعضها حول حقويه وارسل باقيها من جهة صدره الى كتفيه فظهره وقد علق سكيناً في كوعه وشك سهاماً في شعره المتلبد وعلق قوساً في كتفه . ولما رأى القادمين تصدى لها فتقدم سمعان اليه وكلمه بلسانه فبغت الرجل عند رؤيته وتولته الدهشة وصاح « سمعان » وهم به فضمه الى صدره وصافحه منى وثلاث بين المصافحة والتي تليها يقبل كل منهما يده على عادة النوبة في التسليم . فاخذ سمعان يخاطبه بالنوبية أشياء لم تفهمها دميانة ومشيا وهما متصافحان وكلم سمعان الرجل وهو يشير الى دميانة فاسرع اليها ودعاها ان تتبعه فاستشارت سمعان بنظرة فأوماً اليها ان تتبع الرجل فذهب بها الى خيمة فيها نساء استقبلنها أحسن استقبال

الفصل الستون

ملك النوبة

أما سمعان فسار الى الخيمة الكبرى فاستأذن له رفيقه في الدخول فأذن له فدخل واذا هناك فيرقى ملك النوبة وكان بديناً كبير الهامة عليه لباس مزخرف وعند رأسه زحيمان يحملان مراوح من ريش النعام يروحان له وهو جالس على جلد أسد لا يزال رأس الاسد معلقاً فيه وقد عولج حتى يظهر للرأي كأنه أسد رابض . ولم يكن فيرقى في لباس الملك لانه جاء متنكراً ولكنه وضع على رأسه قبة بشكل التاج وعلق في صدره صلياً من الذهب المرصع واتشح بمطرف من الخبز عايه صور ملونة أكثرها صور القديسين وخصوصاً صورة القديس جاورجيوس لابس الظفر . وقد جلس الملك

الاربعاء ووضع السيف في حجره واصلح من شأنه فاكتحل وتطيب ونزع النعال من رجله . وكان في أواخر الكهولة وقد شاب شعره مع خفة ولكنه كان صحيح البدن مشرق الوجه . وقد احاط خصره بمنطقة من الخبز لم يعهد مثلها في تلك البلاد . فلما رأى سمعان داخلا رحب به وقال «مرحباً بخادمنا الامين سمعان»

فاكب سمعان وهو جاث حتى قبل ركبة الملك فاشار اليه أن ينهض ودعاه للجلوس فجالس بين يديه على حصير من سعف النخل جميل وتأدب فقال الملك « من أين أنت قادم ؟ »

قال « من المهمة التي انفذني سيدي الملك بها »

قال « من بلاد البجة ؟ من هو صاحبها الآن وكيف وجدته ؟ »

قال « هو أبو حرملة و ... »

فقطع الملك كلامه قائلاً « أبو حرملة ؟ النوبي ؟ »

قال « كلا يا سيدي ان صاحب البجة تسمى بهذا الاسم تقامداً لذلك القائد العظيم .. »

قال « وكيف وجدت سياسته ؟ هل هو معنا ؟ »

قال « لم يكن معنا في بادىء الرأي ولكنني جعلته يصير نوبياً أكثر من النوبة .. لان اولئك القوم انما يهمهم النهب فاذا علم ان محاربتنا المسلمين تجيز له النهب جاء معنا .. »

قال « هل افهمته الغرض الاصيلي من مناوأة المسلمين ؟ »

قال « ان هؤلاء لا يفهمون معنى الانضمام الى الروم لانهم لا يدينون بالنصرانية .. وانما قلت له انه اذا قامت حرب بيننا وبين المسلمين كان هو بجانبنا .. ورأيت منه انعطافاً »

فضحك وقال « ان البجة أصدقاء النوبة من عهد أسلافنا واذكر اني في عهد أبي الملك الجليل ارسلت في مهمة كان رفيقي بها رئيس للبجة غير هذا فذهبنا الى بغداد كرسي المسلمين للشكوى من سوء معاملة المسلمين في اقتضاء الجزية والبقط - وكنت غلاماً فليقت من خليفتهم يومئذ كل رعاية واهدانا

الهدايا والتحف ووهبنا القصور وبالغ في اكرامنا وقد شاهدنا من خيرات العراق ما لا مثيل له هنا ولما رجعنا اهداني فرساً وسرجاً ولجاماً وسيفاً محلي هذا هو وثوباً ثميناً وعمامة من الخز لم البسها وهي هذه (وأشار الى المنطقة حول خصره) غير ما أعطى الى سائر حاشيتنا من الهدايا واهم من كل ذلك ان الخليفة نظر الى شكوانا فوجد عامله بمصر يأخذ منا فوق ما يجب فامر ان يخففه (١) وبالجملة فقد لقينا من ذلك الخليفة خلقاً عظيماً واستتب الحال في عهده ثم تغيرت الاحوال بانتقال الخلافة الى سواه فعاد عامل مصر الى مناوأتنا . وحق العذراء ان ملك الروم خير لنا من هؤلاء المسلمين فانهم على دين غير ديننا ولا يدخرون وسعاً في سبيل قبض أموالنا واسترقاق رجالنا . ولا أظني في حاجة الى زيادة التفصيل
يا سمعان

فأخني سمعان رأسه مؤمناً على قول الملك ثم قال « فالبجة معنا الآن وقد آنت من رئيسهم كل ميل الى ذلك وهو لا يعلم اني جئت لآنجس أحواله وانما اتخذني مترجماً له وقد اغتنت فرصة سنحت والتمست منه السفر الى دنقلة وانا اعلم ان مولاي الملك هنا »
فقال الملك « نعم لاني اتيت منكراً لمشاهدة اسقف اسوان فقد كان وسيلة بيننا وبين ملك الروم في المخابرة كما تعلم وقد جاءني مساء الامس وتداولنا ملياً فرأيت منه سعياً حميداً . بقي أمر البطريك مخائيل في مصر »
قال ذلك وتهد

فقال سمعان « ألم تخبروه بعد ؟ »

قال « قد خابراه مراراً ولم يأتنا منه جواب لنعلم هل هو معنا أم لا.. »

قال « طبعاً هو معنا لانه .. »

فقطع الملك كلامه وقال « لا تقل طبعاً . . فلو كان معنا لاجابنا على

كبتنا اليه .. »

قال « ربما ضاعت الكتب في ذهابها اليه أو ضاع الجواب في مجيئه الينا »

فاطرق الملك حيناً وهو يحك عثونه الشائب بسبابته ثم رفع بصره اليه وقال « صدقت ان الكتب قد تضيع في الطريق فهل تكون رسولي الى البطيريك مخائيل تبلغه الامر شفاها وتأتيني بالجواب النهائي ولك ان تستخدم مهارتك في اقناعه .. هل تفعل ؟ »

فاحنى سمعان رأسه مطيعاً وقال « أفعل ذلك يا سيدي »

قال « أتعلم مقر البطيريك مخائيل ؟ »

قال « اظنه الآن في دير ابي مقار في بادية النطرون »

قال « هل تعرف الدير وهل انت واثق من وجود البطيريك هناك »

قال « أعرف الدير .. واذا لم يكن البطيريك فيه اذهب اليه حينما

يكون .. كن مطمئناً . وانما وازرنا بالدعاء »

فابتسم الملك وقال « انك محب صادق وسنكافئك احسن مكافأة ..

واذا ظفرنا بما نؤمله كان لك جزاء حسن »

فوقف سمعان وانحنى انحناء الشكر وقال « اني لا ألتمس على خدمتي

أجراً وانما افعل ذلك حباً بمولاي الملك وتأييداً للدين »

قال « أي متى تسافر ؟ »

قال « متى أمر الملك . . . ولكنني أرفع الى مقامه ان معي فتاة من

قبط مصر وقعت سبية عند البجة وعهد الي أن اعيدها الى اهلها فأحب أن

اصطحبها ويكون سفرنا في قافلة بالبر الغربي اذ يكون طريقنا توأ الى وادي

النطرون »

قال « اصطحب من شئت ومهما احتجت اليه في سبيل ذلك خذه

وسنأمر صاحب بيت مالنا أن يدفع اليك ما تريده من المال او الركائب »

قال « لا حاجة يا مولاي الى الركائب فان الطريق الذي ذكرته

لا يخلو من قوافل التجار مارة باحمال الريش والصمغ والعاج الى مصر

فترافق واحدة منها بغير ان يعرف القوم غرضنا وأجعل نفسي خادماً للفتاة

التي ذكرتها »

قال « احسنت .. ومن هي هذه الفتاة ؟ »

قال ذكرت لمولاي انها سبية غنمها البجّة من حلوان بجوار الفسطاط
 وأتوا بها الى أميرهم فأرادها لنفسه فأبّت تمسكا بالتقوى حتى فضلت الموت
 على مجاراته « وقص عليه حديثها الى آخره
 فأعجب الملك بما سمعه من تمسكها بالنصرانية وأثنى على عفتها وتقواها
 وقال له « هل هي معك هنا ؟ »

قال « نعم هي في الخيمة الاخرى .. »

فصفق الملك فدخل غلامه فامرّه أن يستحضر الفتاة القبطية وقال
 لسمعان « سأجعل سفرك الى مصر في خدمتها اكراماً لها » ثم عاد الغلام
 وقال « ان الفتاة بالباب » فهض سمعان فاستقبلها تشجيعاً لها في ملاقاته الملك
 فدخلت وهي مطرقة فابتدرها الملك قائلاً « مرحباً بالفتاة الطاهرة النقية ..
 لقد سمعنا بصدق تدينك وعفة نفسك فاحبيننا أن نراك ونهنئك حفظك السيد
 المسيح وجعلك من مختاربه »

فطأطأت رأسها حياء واحتراماً فقال لها « قد اوصيت محبنا سمعان
 أن يذهب معك حتى يوصلك الى مأمّنك » قال ذلك باللغة القبطية لانه كان
 يعرفها

فاستأنست دميانة وفرح قلبها لاهتمام ملك النوبة بامرّها وشكرت
 تنازله وخرجت ومعها سمعان الى مبيتهما بالامس فاستقرا هناك حتى
 أتبع لهما تعدية النيل الى البر الآخر فنزلا ديراً هناك أقاما فيه أياما
 ينتظران مرور قافلة ذاهبة الى مصر يصطحبانيها . وكان سمعان في أثناء
 ذلك يشتغل باعداد ما يلزم للطريق وصرف الخادم الذي جاء معه من عند
 البجّة وأوصاه أشياء يقولها لابي حرمله وأمر خادما آخر من اهل بلده
 أعد لهما جملين خفيفين احدهما له والآخر لدميانة وكانت قد تعودت
 ركوب الجمال

الفصل الحادى والستون

الى الفسطاط

وخاف ملك النوبة تأخر المهمة التي كلف سمرعان بها فاعد قافلة خصوصية سير فيها جماعة من رجاله يحملون بعض اصناف التجارة الى الفسطاط وأمرهم أن يسيروا في طريق البادية على البر الغربي للنيل حتى يأتوا الحيزة تجاه الفسطاط ومنها يعبرون النيل الى الفسطاط يبيعون تلك البضاعة في اسواقها فيوصل دميانة الى حيث تريد ثم يبحث عن مكان البطريك مخائيل ويؤدي اليه مهمته. فلما اعدت القافلة سار سمرعان ودميانة معها وكل منهما على جملة بما يلزم من اسباب الراحة . وفي هذا الطريق محطات تقف القافلة عندها للطعام أو الراحة أو المنام ولم تعرف دميانة أحداً من ذلك الركب الا سمرعان. وكانت زرداد استثناساً به كل يوم عما قبله وهو لا يفتر عن القيام بما يلزم لراحتها وموانستها بالاحاديث المختلفة وهي تقص عليه ما تعرفه او ما مر بها وتطرقت طبعاً الى سرد حكايتها وسبب خروجها من بيت ابها وبالغت في الثناء على زكريا لما أظهره من الغيرة عليها حتى تفانى . في مصاحبتها وكيف انه تركها المرة الاخيرة في حلوان فسبها بالبيجة ولم تعد تراه ولا تعلم أين هو

فلما سمع حديثها همه أمرها فقال « والى أين تريدن الذهاب الآن ؟ »

قالت « لا أدري ولكننا اذا اقتربنا من الفسطاط نسأل عن سعيد المهندس في القطائع بين رجال ابن طولون فاذا عثرنا عليه علمنا منه ما بقي » قال « واذا لم نقف عليه »

قالت « نبحت عن زكريا » وتذكرت مصائبها بعد ان شغلت عنها بالطوارئ التي دهمتها فانقبضت نفسها وتهدت

وكان الجملان سائرين متحاذيين وراء القافلة على الرمال لا يسمع لحنهما

وقع . واذا التفت الراكب الى يساره لا يرى الا رمالا وصخوراً وأما الى اليمين فيقع البصر حيناً بعد حين على المزارع عند ضفة النيل وقد يرى النيل جارياً والعمارة على ضفته أكثرها قرى صغيرة الا بعض المدن أهمها أسيوط والفيوم وغيرها

ولما وصلا بمحديتها الى ما تقدم كانا قد اقتربا من الحيزة ولقيسا في طريقهما الهرم المدرج . وأشرفا على اهرام الحيزة ووقع نظرهما في اليمين وراء النيل على ضفته اليمنى على حلوان وظهر لها المقطم وعليه قبة الهواء وتحتها قطائع ابن طولون فاذا ذكرها ذلك بيوم الاحتفال الذي أخذ فيه سعيد فهاجت أشجانها وغلب عليها السكوت وبان الانقباض في وجهها وتلاّلاً الدمع في عينيها ولحظ سمعان ذلك منها فشاركها في احساسها وأخذ في التخفيف عنها وكان قد عرف أنها بنت وجيه غني وأعجبته انفتها وعزة نفسها فقال لها « لا بأس عليك يا سيدتي اشكري السيد المسيح على نجاتك من الاسر والعار »

فقال « اشكره كثيراً . وهو الذي سخرك لانقاذى وهذا من نعمه الكبيرة . . غير اني لما أتذكر شقائي وتعاسي وكيف اني طريدة لا أخ لى ولا أخت ولا أم وقد عاداني ابى واضطهني أقرب الناس الي . . لما أتذكر ذلك تقبض نفسي . ولكن . . (وتهدت) ولكن ... آه . . » وسكنت وظهرت في وجهها ملامح الحجل واليأس معاً لأنها تذكرت سعيداً وارادت أن تذكره وترجو لقاءه فغلب عليها الحياء ولحظ سمعان ذلك فيها فاحب أن يخفف عنها وقد تذكر مصائبه وكان قد تناساها مع الزمان فقال « ان الانسان يا سيدتي عرضة للمصائب والمسيحي الحقيقي يتشبه بالسيد المسيح الذي تألم وصلب من أجلنا واحتمل كل ذلك بالصبر فينبغي لنا أن نصبر »

فلما سمعت احتجاجه بالدين اقتنعت وأحست براحة ولكنها ما زالت مجبوسة العواطف وتود ان تقول شيئاً عن سعيد والحياء يمنعها فقال سمعان « ولا يخفى علي انك تضرين أمراً يمنعك الحياء من

التصريح به . . ان سعيداً هو مرجع آمالك واذا لقيته نسيت كل شقاء
أليس كذلك . . »

فاجابت وقد غلبت على أمرها « نعم صدقت . هل الأقيه ؟ أين هو
يا ترى . . أفى السجن أم اطلق سراحه أم اصيب بشيء آخر ؟ . سعيد
سعيد . حبيبي سعيد » « اطلقت لنفسها عنان البكاء نحاف سمعان ان يسمع
أحد من الركب صوتها فاخذ يتبطاً في سيره وهي تجاربه حتى سبقتهما القافلة
مسافة بعيدة وصارت على مقربة من اهرام الجيزة وكانا قد اشرفا عليها وعلى
أبي الهول عن بعد واستبشرا بقرب الوصول

أما دميانة فرفعت الكلفة بينها وبين سمعان واتخذته عوناً لها كما كانت
تعامل زكريا وزادها تعلقاً به مشابته اياه في ملامحه واخلاقه فقالت « وهل
تظنني أنسى هذه المتاعب يا سمعان ؟ »

قال « أرجو ذلك من الله . واعلمي اني غير تاركك حتى ابلك
مأمئك ويطمئن بالي عايك . . » قال ذلك وتهد وقد تغيرت سحنه وسكت
فلمحظت فيه ذلك فسألته عما طرأ عليه فقال « انى لا أمر من هذا
الطريق وانظر الى الفساط الا وتتقبض نفسي وتهيج أشجاني . . لحادث
أتذكره مع رغبتى في نسيانه . . فلا تهمني بهذا الامر . . عودي الى
حديثنا عن سعيد المهندس » قال ذلك وهو يمازحها لاذهاب ما خامرها
من الانقباض

فضحكت ولكنها زادت ميلا الى معرفة حديثه وحسبت الحاحها عليه
بكشفه يعد من قبيل الرغبة في التخفيف عنه فنالت « لقد شغلت خاطري
بما ظهر عليك من الانقباض فلعل لك حديثاً غريباً »

قال « حديثي غريب ولكنه قديم وقد كدت انساه »

قالت « ألا تقصه علي نقطع به بعض الطريق ؟ »

الفصل الثاني والستون

الهجوم

قال « أقصه عليك اذا كان في قصه ما يسليك وخالصته اني نشأت في صغري مع اخ لي أصغر مني في بلاط ملك النوبة جد هذا الذي رأيته بالامس وكنا في رغد وراحة لاهم لنا غير الاكل والشرب واللعب وقد جعلنا من خاصة خصيانه . واتفق ونحن غلامان ان خليفة المسلمين الذي يسمونه عبد الله المأمون أتى الى هذه البلاد لامر اقتضى ذلك وتبودلت المكاتبه بينه وبين ملكنا وكان ملكنا يشكو من سوء معاملة صاحب مصر في تحصيل الخراج فاعتنم مجيء الخليفة وتقرب اليه بالهدايا من العاج والريش والرقيق وارسلني انا وأخي في جملة الهدية فجيء بنا الى هذه المدينة (الفسطاط) فقبل المأمون الهدية وفرق بعضها في رجاله واطلق بعض الارقاء وانا في جملتهم وكنت أحسبه يطلق أخي معي أو يأخذنا جميعاً لاني كنت شديد التعلق باخي لكنه لم يفعل فبكيت كثيراً وبعد قليل علمت بسفر المأمون الى الارياف وانه أخذ أخي معه ثم علمت انه سافر الى بغداد فشق علي ذلك ورجعت الى الملك وأقت في خدمته ولا أزال . . . ومازلت منذ أتيت الفسطاط لا أسمع اسمها الا انقبضت نفسي فكيف اذا رأيتها . . . »

فقال « يحق لك الاسف يا عمه على ضياع أخيك . . . » ثم انتبهت لامر خطر لها فقالت « وما هو اسم أخيك ؟ »
قال « اسمه ابراهيم .. »

وهمت ان تستزيده ايضاحا فاذا هو ينظر نحو الاهرام نظر المتفرس وقد تغيرت سحنته فالتفت فرأت القافلة قد تبعثرت واحاط بها شرذمة من الفرسان علمت من البستهم انهم من الجند فقالت « ويلاه ان الجند سطوا على القافلة »

فقال سمعان « قبهم الله قد سطوا عليها وسلبوها ... ان الجند وضع
لحماية السابلة وليس لقطعها .. اني اراهم يسوقون الرجال والاحمال جميعاً ..
الافضل لنا أن نلتجىء الى مكان نختفي فيه لئلا يصيبك سوء ولو كنت وحدي
ما رضيت التخلف عن الرفاق ولسكني أفعل ذلك رغبة في صيانتك »
قال ذلك وتحول وهي تتبعه الى انقراض بناء قديم من بقايا الفراعنة وهي
كثيرة هناك فترجلا وأدخلوا الجملين الى مخبأ وجلسا على بعض الاحجار
ودميانة ترتعد من الخوف وسمعان يخفف عنها ويشجعها الى ان قال « لا تخافي
ان الجند لا يأتون هذا المكان وهم لم يرونا ولا أنظهم يريدون القبض على
أي كان . . وبعد قليل تغرب الشمس ويخيم الظلام فنخرج خلسة فمر من
وراء الاهرام حتى نزل الحيزة فبيت في خان هناك ونصبح في الغد الى
الفسطاط »

قالت « أخاف أن يلاقينا أحد من هؤلاء »

قال « لا تخافي . . قبل ذهابنا نتجسس الطريق ونتشوف فاذا رأينا
أحدًا اختبأنا »

قعدا في تلك الحربة وفيها الاساطين والتمثيل مهلة مبعثرة وكان الجملين
هالهما المنظر فتهييا فأخذا في الجعير وسمعان يسكتهما لئلا ينم جعيرهما على
المكان . فوضع لها العلف يشغلها به ولم يمض يسير حتى مالت الشمس نحو
الافق فأخذت الاظلال تستطيل حتى اذا توارت الشمس اختلطت الاظلال
وصارت ظلاماً فاستولت الوحشة على تلك الخرائب فليجأت دميانة الى الصلاة
تستجير بالمسيح ومريم العذراء وأخذ سمعان يهتم بالانتقال من ذلك المكان
لوحشته وانفراده وهو لا يخلو من الحشرات السامة فضلاً عما يعتقدونه من
وجود الجان أو العفاريت فيه ولولا الايمان والصلاة لما اطاقا المكوث هناك لحظة
فضلاً عما قاسياه من العطش فان قرب الماء كانت محمولة مع القافلة وأخذت معها
فلما تكامل الظلام قال سمعان « هيا بنا نركب نحو الاهرام اني لأرى
شبحاً ولا أسمع صوتاً ولا ريب أن القوم رجعوا إلى الفسطاط »

فنهضت دميانه فاركبها جماها وركب جملة وربط زمام جملةها برحل جملة
بحيث تبقى هي في أثره

سارا على تلك الصورة مدة لا يتكلمان وقد تهييا للسكوت التام المستولي
على تلك الرمال وما يجاورها من المغارس فاذا التفت الناظر إلى يساره رأى
الافق تعترضه التلال الرملية والصخرية أو الى يمينه فيرى البساتين الى النيل
وراءه المقطم وفي سفحه القطائع والفسطاط وعلى ضفتي النيل شجر النخيل
يناطح السحاب. ولم تكن تلك الصخور واضحة لتغلب الظلام فكان الناظر اذا
أرسل بصره الى الاغراس والاشجار والمنازل لم ير واضحاً منها الا أعاليها

الفصل الثالث والستون

شبح غريب

وكان سمعان وهو على جملة يتناول بمنقه ويشخص ببصره ويتفرس
فيما بين يديه مخافة أن يكون هناك متربص من اللصوص أو الجند فكان يرى
أبا الهول والهرمين الكبيرين تقرب اليه وتنجلي صورها بالتدرج وهو يصيخ
بسمعه فلا يسمع الا صوت وقع خفاف الجمل على الرمال وصوت شخيره أو
تنفسه . حتى اذا اقتربا من ابي الهول أمسك سمعان بزمام جملة حتى يسير
الهوينا. ولم يكده يتجاوز ابا الهول ويشرف على الهرم الكبير حتى رأى شبحاً
يتسلق الهرم تسلق المتلصص الخائف وظهر له من قيافته انه من العامة ولم
ير وجهه ليتبين سحته . فلما رآه يلتصص أوقف الجمل فرأى الرجل توقف
هنيهة ثم عاد الى الصعود فتأكد سمعان انه لا يخشى منه . فساق الجمل نحو
الهرم المذكور حتى استقبل الجانب الذي رأى الرجل يتسلقه فرآه قد انحول
نحوها ونزل الى أسفل الهرم ووقف . فخطر لسمعان أن يسأله عن الماء ليتطرق
من ذلك الى التفهم عن أحوال أخرى فقال له باللغة القبطية « من الرجل ؟ »
فاجاب « من أهل القرى ومن أنت ؟ »

قال سمعان « غرباء نطلب ماء هل تعرف مكانا فيه ماء بهذا الجوار؟ »
فتقدم ذلك الشبح وهو يقول « ان في هذا الجوار عيناً فيها ماء كثير
تعاليا فادلكما عليها »

وكانت دميانة مصغية وهي تخاف ان يكون الرجل من طلائع الجند فلما
سمعت صوته خفق قلبها واجفلت لانه يشبه صوت زكريا . فلما رأته مشى
وتبعه سمعان صبرت لتسمع كلامه ثانية . فعاد سمعان الى سؤاله عن اقرب
الطرق الى الفسطاط فقال « تتحدران من هذه الالكمة بين هذه المغارس
الى الضفة فتجدان هناك جسراً من السفن المتحاذية تقطعان عليه الى
جزيرة الروضة ومنها على جسر آخر الى الفسطاط »

وكانت دميانة تسمع كلام الرجل وقلبا يزداد خفقاناً لانه صوت زكريا
بعينه وتفرست في مشيته عن بعد فتحقت انه هو فلم تعد تعلم ماذا تقول من
الدهشة والفرح فتجلدت وقالت « هل تريد أن ترافقنا في هذا الطريق
يا عماء ؟ » قالت ذلك بصوت مختنق من شدة التأثر

فتعجب سمعان من تصديها ومن اختناق صوتها اما الرجل فلما سمع
الصوت وقف والتفت الى دميانة والظلام يحول بينهما وكانت هي قد استعدت
للتفرس فيه فلم يبق عندها ريب من أمره . وأما هو فاخنتاق الصوت شوش
عليه حكمه لكنه اشبه فقال « اني في خدمتكم الى حيث تشاءون فهل
نذهب نواً الآن » واصفى ليسمع الجواب

فقال « نشرب اولاً ثم نسير الى دير المعلقة »

فلما سمع قولها دير المعلقة افسح بدنه وتراجع حتى أمسك بزمام الجمل
وسمعان يستغرب رجوعه . أما هو فأمسك الزمام وقال « من أنت . .
مولائي . . دميانة .. دميانة ؟ »

فصاحت هي « زكريا ! . عماء زكريا . » وكادت للهفتها ان تقع عن
الجل فلما سمعها سمعان تذكر زكريا بهذه اللفظة ادرك انه خادمها الذي كانت
تحدثه عنه فتحول عن الجمل واناخ جملها وساعدها على النزول فاكب زكريا
على يدها يقبلها وكاد لولا الحياء ان يضمها اليه فقد كان يتلف لرويتها ومع

ذلك فانه حسب نفسه في حلم اذ لم يخطر له وهو يحسبها أسيرة في ارض
البيجة أن يلاقها في تلك الساعة الحرجة بجوار الاهرام . فاعاد السؤال
والاستفهام وهي ايضاً فقال « سيدتي دميانة .. انت هنا اشكر المسيح على
سلامتك كيف جئت . من انقذك ؟ »

قالت « لا تقل سيدني فانك عمي وهذا عم آخر انقذني من بلاد البيجة
وتكلف المشقة في ايصالى الى هذا المكان »

فصافحه زكريا وسلم عليه واثني على فضله لكنه لم يتبينه لشدة الظلام
ولم يكن سمعان أقل دهشة لهذه الصدفة فقال « الحمد لله قد انقضت
مهمتي على اهون سبيل فاهنتكما بهذا اللقاء »

فقال زكريا « امكنا عند قاعدة الهرم وانا آتيكما بالماء تشربان ثم نسير
الى القسطنطينية » قال ذلك ومضى . ثم عاد اليهما بالماء فشربا ودميانة تود
ان تعرف ما تم لسعيد والحياة يمنهما عن السؤال فقالت « ابن كان غيابك
كل هذه المدة ؟ وكيف حالك »

فادرك غرضها فقال « ان حديثنا طويل سأقصه عليك . أما حالى فانه
على غاية ما يرام والحمد لله وسيدي سعيد ينتظر مجيئك وهو على مثل الحجر
وأهنتك بما ناله من الحظوة في عيني صاحب مصر فهو صاحب الكلمة
النافذة والمقام الرفيع .. »

وكان زكريا يتكلم وقلب دميانة يرقص فرحاً ولما فرغ من كلامه
سقطت يديها نحو السماء وقالت اشكرك اللهم لانك حرسته وحفظته وقد حق
علي وفاء النذور »

فقال سمعان « لا اقدر اصف لكما مقدار سروري بهذا اللقاء فان قلبي
يكاد يطير فرحاً فاهنتكما بذلك واستأذنكما في المسير بطريقي »

فاعترضته دميانة قائلة « كلا يا عماء اني لا اسمح بذهابك على هذه
الصورة ... ينبغي لى ان اكافئك على تعبك الجزيل .. »

قال « لا استحق المكافأة على شيء يا سيدتي وانا ذاهب الآن في مهمة
لا بد لى من قضائها وسأعود بعدها اليكم »

قال زكريا « ان مهمتك يا أخي لم تفرغ بعد وما أنا مطلق السراح
لا كون في خدمتها »

فقالت دميانة « وكيف ذلك ؟ »

قال « اني سجين يا سيدتي »

قالت « سجين ! اني أراك حراً مطلقاً »

قال « ولكني اتيت من السجن ولا بد لي من الرجوع اليه »

قالت « ترجع اليه من نفسك ؟ تكون حراً وتعيد نفسك ؟ »

قال « خرجت من السجن بضمانة رجل على أن آتي هذا الهرم

أخذ منه شيئاً أودعته فيه وأعود الى السجن ولا بد لي من القيام

بالوعد »

قالت « صدقت ان وعد الحر دين . . ولكن كيف حبست ولماذا ؟

اني لم افهم ما تقول »

قال « حديثي طويل سأقصه عليك في أثناء الطريق واستأذنكما الآن

في الصعود الى باب هذا الهرم ثم أعود »

فأذنا له فصعد ثم عاد وقال « هيا بنا الى اسفل هذه الالكمة ان حماراً

لي ربطته هناك فاركبه ونسير معاً »

فزلوا حتى ركب حماره ومشى بين الجملين وأخذ يقص ماجرى له بعد

فراق دميانة في حلوان وكيف ذهب الى بيت ابيها وأخذ منه اسطوانة

حتى ذهب الى دير أبي مقار ومقابلة البطيرك مخايل وكتابه الى ملك النوبة

وكيف انه وضعه في الكيس مع الاسطوانة وكيف خانه ذلك اليهودي

وأنى بالجند قبضوا عليه نخباً الكيس بباب الهرم وحمل الى السجن . وبعد

قيامه في السجن حيناً توصل الى مخبرة سعيد واخبره عن الكيس وانه

يريد ان يأتي به فتوسط له عند السجنان بالخروج على ان يعود الى السجن

في تلك الليلة - الى ان قال « فانت خلسة لاستخراج الكيس من باب

الهرم فرأيتكما وخفت ان تكونا عيناً علي وجرى ما تعلمانه . ثم ذهبت الى

باب الهرم واتيت بالكيس وهو معلق بعنق تحت أثوابي . . . وانت كيف

تخلصت من الاسر ؟ »

فقصت عليه حديثها الى آخره وأطنبت بمكارم اخلاق العم سمان .
وكان هذا لما سمع حديث العم زكريا وما يتخلله من كلام البطيريك مخائيل
عن مخالفته ملك النوبة في اخراج مصر من حكم المسلمين الى حكم الروم
قد فترت همته عن الذهاب اليه ولكنه أراد زيادة الاستفهام فقال « بالحقيقة
انك قاسيت كثيراً في ذهابك الى دير ابى مقار . هل البطيريك هناك
الى الآن ؟ »

قال « سمعت انه قادم الى القسطنطينية لمقابلة صاحب مصر ابن
طولون »

قال « واين كتابه الى ملك النوبة ألا يزال معك ؟ »

قال « هو في الحقيقة (الكيس) مع الاسطوانة »

قالت دميانة « أراك كثير العناية بهذه الاسطوانة حتى عرضت نفسك
للخطر من أجلها . فما الفائدة منها ؟ »

قال « ستعلمين ذلك بعد حين »

وكانوا يتحدثون والركائب ماشية حتى وصلوا الى جسر الجزيرة فعدوا
عليه الى الروضة ومنها الى ضاحية القسطنطينية عند بابلون قرب دير المعلقة .
فلما صاروا هناك قال زكريا « لا بد لي من الذهاب الى السجن الآن فإن
تمكثان ريثما نرى ما يكون ؟ »

قالت دميانة « انا افضل النزول في هذا الدير »

فقطع كلامها قائلاً « لا يوافق ذلك لان اهله يعرفونك فاخاف ان ينقلوا
خبرك الى الاسقف المعهود أو والدك او الى اسطفانوس فيسعون في ضررنا
والافضل ان تنزلي في كنيسة بابلون بهذه المحلة باعتبار انك من بعض أهل
القرى ومعك خادمك هذا ريثما آتيكما »

فاستحسنن رأيها فمضى بهما الى دير بابلون وادخلهما فيه واسرع الى

السجن

الفصل الرابع والستون

سعيد

وكان زكريا قد خرج من ذلك السجن خلسة بإيعاز سعيد الى السجن. والسبب في هذا التوسطان زكريا سعى ثاني يوم سجنه في الوصول الى سعيد وقد علم انه صار من أهل النفوذ بعد أن أخذ في بناء الجامع فانفذ خبره اليه فبعث يسأله عن أمره فتواعدا على المقابلة بجانب السجن والسجان لا يرى بأساً في ذلك اكراما لسعيد . فاطلعه على ما جرى له وانه بعد ان أتى بكتاب التوصية الى ملك النوبة خبأ الكتاب والاسطوانة في مدخل الهرم الكبير. وقص عليه أهمية الاسطوانة بالنظر الى مصلحة دميانة . فاخذ سعيد يبحث مع زكريا عن السبيل المؤدي الى انقاذ دميانة من البجة إما رأساً وهو أمر شاق لا وجه له وإما على يد ملك النوبة واتفقا أخيراً على أن يذهب زكريا لاستجلاب الاسطوانة وتوصية ملك النوبة يجعلهما عند سعيد ريثما يسعى في الافراج عنه فينفذه في هذه المهمة الى ملك النوبة . فاستأذن السجان في خروجه في أصيل ذلك اليوم على أن يعود نحو العشاء . وتواعدا ان يأتي زكريا أولاً الى منزل سعيد في قصر له باطراف القطائع فيضع تلك الامانة عنده ثم يذهب الى السجن

فلما رجع بعد مفارقة دميانة وسمعان في ذلك الليل سار يلتمس منزل سعيد أولاً كما توعدا فوصله فوجد الباب مفتوحاً فدخله على غير ريبه ولم يعترضه أحد حتى أتى الغرفة التي يقيم فيها سعيد وكان مشتغلاً ببعض الرسوم يعدها لهندسة الجامع وقد استبطأ زكريا فلما أعلموه بوصوله خف لاستقباله وسأله عن سبب غيابه فلم يدر زكريا كيف يبدأ الحديث لفرط لهفته وكان السرور بادياً في حركاته وسكناته وقد ذهبت السويداء التي كانت تغلبت عليه . فلم يمهل سعيد ان قعد فابتدره قائلاً « لقد ابطأت عن الموعد وأنت

تعلم اني ضمنت للسجان رجوعك عند العشاء ونحن الان في منتصف الليل ولا يخفى عليك أن الشكوك والظنون محيطه بنا من كل ناحية . . .

وكان زكريا يسمع قوله ويضحك كأنه لا يبالي بما يحدث به من الخطر فاستغرب سعيد استخفافه بالأمر فقال ما بالك تستخف بما أقول أعل تلك الاسطوانة أسكرتك من الفرح . . .

قال « كلا ليس الاسطوانة بل دميانة . . . »

فاجفل وصاح فيه « دميانة !. دميانة.. ماذا تعني.. ما بالها .. اين هي ؟ »

قال « دميانة هنا »

فلم يمالك أن وقف فجأة وصرخ « دميانة هنا . اين . . اين هي . . اين؟ وهم بالخروج من الغرفة وهو يحسب دميانة في الدار فاستوقفه زكريا وقال « طول بالك . . . ليست في هذا المنزل وانما هي في هذا البلد . هي قريبة جداً من هذا المكان دعنا منها الان »

فنظرا اليه وهو يتفرس في ملامحه وقد حسبه يمزح وقال « قل الصحيح يا زكريا أين دميانة ؟ . . »

قال « قلت لك انها قريبة من هذا المكان ولكن لا سبيل اليها الان وستأتى عند الاقتضاء وفي الوقت المناسب »

قال « الآن . . اين هي ؟ »

فنظر فيه نظر الجذ وقال « تربص ياسيدي حتى تتخلص من السجن وعند ذلك أجمعك بدميانة وهذه هي الاسطوانة » واستخرج الجراب أو الكيس من تحت إبطه واستخرج منه الاسطوانة والكتاب وقال « هذه الاسطوانة التي أخبرتك عنها وهذا هو كتاب البطيرك مخايل الى ملك النوبة احتفظ بهما عندك حين الحاجة »

فتناول سعيد الاسطوانة وأخذ يقابها بيده وهي مختومة وتناول الكتاب. وبينما هو يقابه سمع دبدبة في صحن منزله وقد علا صياح الخدم يستغيثون فخرج ليرى السبب فرأى شردمة من الجند دخلوا المنزل وفي مقدمتهم رجل يقول « هذا هو اللص اقبضوا عليه » وأشار الى زكريا واكب على

الاسطوانة واراد اختطافها من يد سعيد وهو يقول « وهذه هي الاوراق المسروقة » فقبض سعيد على الاسطوانة وجذبها نحوه وعرف ان الرجل الذي يكلمه اسطفانوس فانهزم قائلاً « اذهب في سيالك يا غلام ولا تطمع نفسك بشيء من ذلك » فصاح أحد الاجناد قائلاً قد أتينا بأمر الوالي للقبض على هذا السجين الهارب وما معه وهذه الاسطوانة وهذا الكتاب كانا معه فينبغي ان نأخذها ونأخذة الى السجن وفي صباح الغد ينظر الوالي في أمره »

فقال سعيد « خذوا الرجل الى سجنه وأما هذه الاشياء فانها محفوظة عندي لحين الحاجة اقدمها بين يدي الوالي أو القاضي »
فصاح اسطفانوس « بل نأخذها الآن وان أبيت أن تعطينا اياها فان هذا الجند يأخذك انت ايضاً الى السجن لانك واطأت السارق على الخروج من السجن وساعدته على اخفاء السرقة . . »

وقبل ان يتم كلامه رفسه سعيد برجله فالتقاء في الخارج وصاح برجال قصره ان يخرجوه من المنزل والتفت الى عريف الجند وقال له « لا يفرنك كلام هذا الغلام الجاهل بل اصغ الى ما اقوله لك . . كنت عازماً ان اسلمكم السجين تأخذونه الى سجنه وقد رأيت الآن ان احتفظ به هنا عندي الى حين الطلب فمن كان له عليه طلب يطلبه مني »

فلما سمع العريف الكلام الجند من سعيد تهيب وخرج ومعه اسطفانوس يصيح ويهدد ويتوعد ولما صار خارج البيت قال للعريف « اشهدوا ان اللص والسرقة عند صاحب هذا القصر »

وكان مرقس قد كاشف اسطفانوس بسرقة الاسطوانة وافهمه انها اذا وقعت بيد دميانة قضت على ثروته ومستقبله ووعدته خيراً اذا قدر ان يحصل عليها. فاخذ اسطفانوس يراقب حركات الذين حوله فعلم بمجيء سعيد ومخاطبته وبالاذن في خروجه لكنه لم يره ساعة الخروج وانما علم انه ليس في السجن وانه سيعود اليه بعد ان يمر ببيت سعيد فاستخدم اسم والده بغير علمه باعداد شرذمة من الجند ترابط قرب بيت سعيد فاذا دخل زكريا المنزل قبضوا عليه

واتهموا سعيداً بالاشترك معه وسار هو معهم لعله يقدر ان يختطف الاسطوانة ويخفيها ثم هو لا يهجمه شيء وقد اخرج هذا التدبير الى حيز الفعل لكنه لم ينجح في القبض على الاسطوانة ولا على السجين ورجع مخذولاً يبكي من غيظه وسارتوا الى مرقس وقص عليه ما جرى واستحذته على التشكي من سعيد لانه خالف القوانين باخراج اللص من السجن ثم هو ابي تسليمه الى الجند . وفوق ذلك انه مواطىء للبطريك مخائيل على مساعدة ملك النوبة لاجراج مصر من ايدي المسلمين وارجاعها الى ملك الروم . وان كتاب البطريك الى ملك النوبة موجود مع الاسطوانة عند سعيد وذلك يعني الحكومة عن اقامة الرابطة يقبضون على القوافل الآتية من النوبة لعلهم يعثرون فيها على مكاتبة كما فعلوا بقافلة الامس

وفي صباح اليوم التالي ركب مرقس حماره الى القطائع وطلب الدخول على المعلم حنا كاتب المادرائي والد اسطفانوس فسلم عليه ثم قص عليه أمره وطلب اليه ان يساعده في حمل الوالي على مقاصة سعيد لجسارته وتعيده لانه ساعد السارق على اخفاء السرقة

ولم يكن المعلم حنا يجهد أسباب تلك الخصاصات ولكنه كان في شاغل عنها بمنصبه وأعماله ولم يكن ابنه اسطفانوس يجسر على مخاطبته بشأن من الشؤون وقد رأيت لما كلفه ان يخطب دميانة له انه كان اول من زهد اباه بها فلما سمع شكوى مرقس قال له « هذا القضاء موجود ارفع شكواك الى القاضي وهو ينظر فيها ولا يضيع حقك »

فقال « ولكن ربما انحاز القاضي الى سعيد لانه حائز على رضى الوالي اليوم فلا ينصفنا »

قال « القاضي غير متهم فاذا كانت دعواك حقاً نلت حقك منها » قال ذلك وحول وجهه يتظاهر بالاهتمام بامور اخرى

فقال مرقس « يظهر انك لم تهتم بهذا الامر فربما كان من قبيل المسائل الخصوصية ولكن سعيداً وزكريا مشتغلان بمؤامرة ضد دولة المسلمين فهم يساعدون البطريك مخائيل في اوصول كتبه الى ملك النوبة لقلب دولة المسلمين

واعادة البلاد الى ملك الروم وقد قبض الجند على كتاب عندهما من البطريرك المذكور الى ملك النوبة . وأراد الجند أن يأخذ منهما فابى سعيد تسليمه ولكنه قال إن الكتاب عنده مع الاسطوانة يقدمهما عند الحاجة «
 فمل المعلم حنا من هذا الحديث وقد ساءه سعي مرقس في هذه الوشايات لكنه استنكف أن يقول له ذلك في وجهه فتلطف وقال « اذا كان عندك مثل هذه البيانات فاطلب الرجل فيقع تحت طائلة القصاص »
 فخرج مرقس خجلا ولقيه اسطفانوس خارجا فاستحيا من الاعتراف بما ناله من الخجل لاستخفاف المعلم حنا باقواله فقال « ان والدك اشار على باقامة الدعوى »

فقال « معلوم . . وها انى ذاهب لاشتكيه » وكان اسطفانوس مسموع الكلمة عند ارباب المناصب اكراما لوالده فرفع المسألة الى القاضي باسم مرقس بحجة ان الخادم زكريا الذي كان قد سجن بتهمة سرقة بيت سيده خرج من السجن خلسة بمساعدة سعيد المهندس الفرغاني ولما ذهب الجند للقبض عليه طردهم سعيد وأهانهم ولم يسلم السارق فلما طلب من القاضي النظر في هذه القضية استدعى المتهمين فجاء سعيد وقال « اني اطلب ان تنظر دعوانا بين يدي الوالى نفسه لان المسألة ذات شأن »

الفصل الخامس والستون

المحاكمة

فلم يسع القاضي الا اجابة الطلب فرفع الامر الى ابن طولون بنوع خصوصى فطلب ابن طولون حضور الجميع في غرفة خاصة من قصره فحضر مرقس وزكريا وسعيد فامر لهم ابن طولون بالجلوس وهو يتفرس في وجوههم فتذكر انه شاهد زكريا مرة قبل هذه فقال ابن طولون « باي

لسان تتداعون » فقالوا « بالعربية فاننا نفهمها جميعاً » فقال « من منكم المدعي » فوقف مرقص وقال « انا يا مولاي »
قال « وما دعواك ؟ »

قال « لي دعوى خصوصية على هذا الخادم النوبي وقد اطلعت على دسائس ذميمة سعى فيها ضد ولي أمير المؤمنين مولانا الامير وساعده على ذلك المهندس الفرغاني »

فالتفت ابن طولون الى سعيد وتفرس فيه تفرس عتاب فرآه مطمئن البال لم يتغير مطلقاً وكان بين يدي ابن طولون كاتب امره ان يدون دعوى المعلم مرقس ثم قال له « قل لنا اولا ماهي دعواك الخصوصية على هذا الرجل » قال « انه كان خادماً في منزلي فغافلني في أثناء غيابي عن طاء النمل وسرق كثيراً من نقودي واوراقي وفي جملتها اسطوانة فيها اوراق خصوصية مختومة لا يجوز فتحها »

فالتفت ابن طولون الى زكريا فرآه مطرقاً متأدباً فقال « ما تقول يا رجل ؟ »

قال « أنا اعترف يا مولاي اني سرقت من منزله هذه الاسطوانة (واخرجها من جيبه) ولم اسرق شيئاً آخر ولا أظنه يستطيع اثبات السرقة علي »

فلما رأى مرقس الاسطوانة في يد زكريا مده يداً ليأخذها منه فامتنع عن تسليمها اياه ودفعها الى ابن طولون وقال « ان لهذه الاسطوانة حديثاً سنصل اليه في أثناء الدفاع فتبقى مع مولانا الامير »

فرجع مرقس مقهوراً وزاد غضباً لنفسه فقال ابن طولون « وما الذي اطلعت عليه من دسائس هذا النوبي علينا »

قال « لما سرق هذه الاسطوانة وغيرها من منزلي فر الى دير أبي مقار فأرسلت في أثره رجلاً تعقبه فعلم انه حمل كتاباً من البطريرك مخائيل الى ملك النوبة جواباً على كتاب جاء من ذلك يرضه فيه على السعي في إخراج مصر من حكم المسلمين وارجاعها الى ملك الروم »

فلما سمع ابن طولون هذه الشكوى اعتقد صدقها لانه سمع بذلك من قبل واراد ان يكون البحث فيها بحضور البطريرك نفسه فقال « وقد علمت ان البطريرك مخائيل نزل الفسطاط بالامس والاولى بنا احضاره ليكون الكلام في حضوره » وصفق فجاء غلام أمره أن يدعو البطريرك مخائيل في تلك الساعة الى الجلسة لتأدية الشهادة

فتقدم زكريا عند ذلك وقال « لا يزال بعض المدعى عليهم غائبين فاذا استحسن مولانا أن نستقدم الباقيين فعل »
قال « ومن أيضاً ؟ »

قال « ابنة المعلم مرقس هذا فانها شريكة معي في سرقة هذه الاسطوانة »

فقال « من يحضرها ؟ »

قال « انا احضرها »

وكان لهذا الكلام وقع السهام في قلب مرقس فاراد المعارضة في احضارها فقال « لا يا سيدي اذا ذهب لا يرجع فانه سريع الهرب »

قال زكريا « يرسل مولاي من شاء من الحفر يجرسوني حتى أعود فان الفتاة على مقربة من هذا المكان »

فامر ابن طولون بعض الحراس يرافقونه ويأتون به ومكث الامير وسعيد ومرقس في انتظار مجيء البطريرك ودميانه . وابن طولون في اثناء ذلك يردد في خاطره ما سمعه من مشاركة سعيد في الدسائس على الدولة فنظر اليه وقال « سعيد .. ألم نرفع قدرك ونجعلك من خاصتنا ؟ »

قال « ومن ينكر ذلك ؟ ابي غارق في نعم مولاي الامير وحاشا لله ان اسعى في غير خدمته »

قال « فالمعلم مرقس كاذب فيما يقول ؟ »

قال « سيظهر ذلك قريباً يا سيدي . . وهذا هو الكتاب الذي يزعم

المعلم مرقس ان زكريا حمله من البطريرك مخائيل الى ملك النوبة »

قال ذلك ودفع الكتاب محتوما الى ابن طولون فوضعه بين يديه بجانب

الاسطوانة واراد فضه فأجل ذلك الى حضور البطريرك وبعد قليل جاء الغلام قائلاً ان البطريرك بالباب فامر بدخوله فدخل وعليه لباسه الرسمي وقد بدت البغمة في وجهه فوقف له الحضور وابن طولون أيضاً ودعاه الى الجلوس على كرسي بجانبه فجلس واول شيء وقع بصره عليه كتابه الى ملك النوبة بين يدي ابن طولون فاستغرب ذلك والتفت فوجد المعلم مرقس وكان يعرفه ويعرف قصة ابنته مع اسطفانوس وكذلك سعيد

الفصل السادس والستون

كشف السر

ولم يكده يستقر البطريرك في مجلسه حتى دخل الغلام ينيء بمجىء زكريا ودميانة فدخلا وفي أثرهما سمان التوبي وقف في بعض اطراف القاعة . فلما وقع نظر البطريرك على زكريا ودميانة ادرك بعض الغرض من حضوره فأول من تكلم ابن طولون فوجه كلامه الى البطريرك لان مسألته اعظم أهمية عنده من سواها فتناول كتابه بيده ووجهه نحوه وقال « اليس هذا الكتاب منك ؟ »

فنظر البطريرك في الكتاب وقال « بلى »

قال « اليس خاتمك عليه ؟ »

قال « بلى يا سيدي »

قال « هو الى ملك النوبة تخبره فيه بشأن اخراج هذه البلاد من

حوزة المسلمين »

قال « نعم يا سيدي »

قال « ألهذا الحد بلغ من أمرك ان تواطىء عدونا علينا ؟ »

فتبسم البطريرك وقال « ان الامير يطالبني بما سمعه من الوشاة .. وهم

لسوء الحظ من ابنائي ورعيتي .. فقد قالوا اني خائن واني اخبر وادس

الدسائس وقد قبضوا على كتابي هذا على غير علم مني فما على الامير الا ان

يفضه ويأمر بتلاوته وعند ذلك يعرف الحقيقة فاما ان أكون خائناً استحق ما ضر بتموه علي من الاموال التي أنقلت كاهلي أو أكون بريئاً والامر بعد ذلك للامير « قال ذلك وقد بدا التأثير في عينيه وشقيقه وصارت لحيته ترقص في صدره

فرآه ابن طولون يقول الحق ويطلب العدل فقال « صدقت » وأشار الى الكاتب بين يديه وقال « انت تقرأ القبطية ؟ »
فوقف الكاتب وقال « نعم يا سيدي »
فدفع اليه الكتاب ففضه وأخذ يقرأه ويترجمه والكل ساكتون يسمعون وهذا نحوه :

« ولدنا بالروح فيرقي ملك النوبة »

وصلنا منك عدة كتب تدعوننا فيها الى خلع طاعة حكامنا المسلمين والرجوع الى سلطة الروم . ولو كان الروم خيراً لنا من سواهم ما خرجنا من طاعتهم ورضينا أن يحكمنا أي كان غيرهم . وهؤلاء العرب قد تعودناهم وتعودونا وهم خير لنا من اولئك . لا انكر عليك ان بعض الولاة المسلمين كانوا اهل ظلم وشدة ساموا أبناءنا الاقباط أنواع العذاب ولكنهم على الاجمال اهل عدل ورفق وخصوصاً اميرنا الحالى احمد بن طولون فانه ما انفك منذ تولى مصر وهو يرفع المظالم ويكف الاذى عن طائفتنا . على انك لو تدبرت ما لحقنا من الاذى في عهد هؤلاء العرب لوجدت الحق علينا نحن لفساد نياتنا وانقسامنا فيما بيننا نهم بعضنا بعضاً ويشي بعضنا ببعض لضغائن في الصدور . واقرب شاهد وقع معنا ان بعض الاساقفة قصر في واجباته الكنسية فخرمته فلكى ينتقم لنفسه وشى الى الوالى اني صاحب أموال و اشار عليه ان يطالبني بالاموال اللازمة للدولة فضربوا علي ضرائب يعلم السيد المسيح اني عاجز عن نصفها وربعها ولكن الوالى لا يصدق قولى . . هذا مثل ضربته لك فاعتبر به ورأي ان تقنع بالرضوخ لحكامنا هؤلاء فهم خير لنا من سواهم واذا وجدنا في بعضهم عيباً فقد كان في ولاة الروم قبلهم ما هو أشد وادهى . وفي الختام أهديك

البركة والدعاء ونطلب الى المولى ان يصلح نياتنا ويجمع قلوبنا فتحسن معاملة
حكامنا لنا والسلام »

كان الكاتب يقرأ ويترجم والحضور يسمعون والبطيريك مطرق ينتظر
النتيجة . ولم يأت الكاتب على آخر الكتاب حتى انبسط وجه ابن طولون
بعد أن كان منقبضا فالتفت الى البطيريك وقال « لقد أسأنا عشرتك وسمعنا
الوشاية فيك . . والله لو كان كل ابناء طائفتك على رأيك لكانوا أسعد حالا
وأنعم بالا فوجب علينا التخفيف عنك وقد اتت هذه الشكوى لك لاعليك »
قال « هذه ارادة الرب »

فالتفت ابن طولون الى مرقس وقال « هذه دعوى يا معلم قد سقطت
فأين هي الاخرى »

فوقع مرقس في حيرة لكنه اراد التخلص وتحويل الموضوع فقال
« ان أبانا البطيريك قد تبرأ بنص كتابه ولكن حامل الكتاب حملة وهو
لا يعلم فخواه وكان ينبغي له ان يأبى نقله ولكنه نوبى بخدم مصلحة ملكه
ولو علم ان الكتاب بهذا المعنى لم يحمله »

فقال ابن طولون « الواقع ان الكتاب بهذا المعنى وقد حملة وليس في
حملة الا خدمة لحكومة المسلمين جزاه الله عنا خيراً . . وبعد ذلك نرجع
الى مسألتك الخصوصية لا بأس من فصاها بحضور البطيريك »
فقال زكريا « بل حضور غبطته ضروري لها »

فتغيرت سحنة مرقس وبدا الاضطراب عليه وتاعثم لسانه والحضور
يصغون لسباع دعواه ولما أبطأ ولم يتكلم تقدم زكريا فقال « استأن سيدي
الامير ان أنوب عن المعلم مرقس بالكلام »

فقطع مرقس كلامه قائلاً « من أنا بك عني ؟ انا اتكلم عن نفسي »
فسكت زكريا وتراجع ودميانه واقفة وقلها يخفق شفقة على ابيها
وطال سكوت مرقس فقال زكريا « للمعلم مرقس شريك في الدعوى اذا
أمر الامير باحضاره »

قال « من هو ؟ »

قال « اسطفانوس بن المعلم حنا كاتب الخراج »

فامر ابن طولون باحضاره وما عم ان حضر فوقفوه بجانب المعلم مرقس . وهذا لم يفتح عليه بالكلام واعتذر أخيراً بالـم أصابه فغـمه من التـكلم . فامر ابن طولون باجلاسـه والتفت الـى زكريا وقال « قل يا أسـمير ما تعرف من امر هذه القضية ؟ »

فتقدم زكريا وتناول الاسطوانة بيده وقال « ان الخصام كله على ما في هذه الاسطوانة . وما فيها غير رق مكتوب في مصاحفة هذه المدرء الطاهرة وهي ياسيدي ابنة المعلم مرقس ماتت والدتها وهي طفلة وكان لها عرابة بمنابة الوالدة وكانت غنية غنى فاحشاً واطنكم تعرفونها اعني ماريـا القبطية صاحبة قرية طاء النمل التي مر بها الخليفة المأمون عند زيارته مصر وضافها وبالغت في إكرامه . وكان المأمون لما ضافها أهـدى اليها بعض الجوارى والحـصيان وفي جملتهم أنا فمـد كنت خصياً حملت اليه هدية من ملك النوبة مع خصيان آخرين . . وريت في منزلها وكان اسمي ابراهيم فسمتني زكريا . فلما ولدت امرأة المعلم مرقس هذه الفتاة سمها دميانة على اسم القديسة دميانة وكانت مارية نيسح الله روحها تعرف اسراف هذا المعلم فارادت ان تضمن مستقبلها فوهبتها قرية طاء النمل هذه وقرى أخرى في تلك الجوار وكتبت بذلك صكاً مسجلاً حفظته في هذه الاسطوانة » قال ذلك واستأذن ابن طولون بفض الحتم فاذن له ففضه واستخرج رقاً مكتوباً بالقبطية ودفعه الى الكاتب وطلب اليه ان يتلو خلاصته بالعربية قتلاً :

« ان ماريـا القبطية وهبت ابنتها بالروح دميانة بنت المعلم مرقس قريتها طاء النمل كلها وما ياحقها من المغارس . وتبقى هذه القرى تحت مناظرة أبيها ولايحق له أن يبيع منها شيئاً . فاذا بلغت ابنته رشدها وتزوجت صارت هذه القرى لها ملكاً خاصاً ليس لايها شيء منها . . الخ »

وكان الحضور يسمعون ما يتلوه الكاتب وعيونهم على مرقس وهو مطرق والعرق يتقطر من وجهه . وسدره يملو ويهبط من النفس الثقيل الذي اعتراه فلما فرغ الكاتب من القراءة قال ابن طولون « اليس ثمت

« من شهود ؟ »

قال الكاتب « نعم يا سيدي اني أقرأ اسمي مخائيل ومنقريوس »
فقال البطريك « ان مخائيل اسمي وكنت لا أزال اسقفا نعم أشهد
ان مارية القبطية وهبت هذه الفتاة هذه القرية . وأما منقريوس فانه قسيس
طاء النمل وهو حي هناك »

فقال ابن طولون « نكتفي بشهادتك » والتفت الى زكريا وقال « هل
فرغت من حديثك يا أسمر ؟ »

قال « كلا يا سيدي .. لا أزال في أول الحديث هل أمه ؟ »
وكان ابن طولون قد توسم الصدق في لهجته فاصبح مستعداً لتصديق
كل ما يقوله فقال له « أمه »

قال « ونظراً لرغبتها في رعاية هذه الفتاة جعلتني في جملة الهبة وامرتني
ان أبقى في خدمة دميانة حتى تشب وتزوج وبالغت في الوصية فاطعتها
ولازمت البنت من طفولتها ولا أزال الى الآن وسأبقى ما بقيت حياً . .
فنشأت الفتاة على تربية حسنة غرستها فيها والدتها رحمها الله فانها كانت تقية
طيبة العنصر فنشأت ابنتها مثلها تحب الصلاة والعبادة وفيها ميل الى البر
والاحسان وبلغت هذا السن (وأشار اليها) ولم تعلم بما في هذه الاسطوانة
لان والدها كان يباليغ في اخفائها عنها وأنا صابر لعله يحسن معاملتها . فرأيت
بعد ان ماتت زوجته الاولى والدة دميانة عكف على التسري واقتناء الجوارري
وتعاطي المسكر والانفاس في القصف والزهو والبنت تكره ذلك فيه وهو
لا يلتفت اليها . وأخيراً أراد ان يزوجها بشاب على شاكلته هو هذا
(وأشار الى اسطفانوس) تبركا بمنصب والده مع ان والده يتبرأ منه
ولكنه تواطأ معه على اخفاء أمر الوصية والتمتع بالاموال معه وكلاهما
سكير ومجان »

فلما وصل الى هنا تنفس الصعداء ليستريح ثم تحول نحو سعيد فامسكه
بيده واتم حديثه قائلاً « وأما الفتاة فعرفت هذا الشهم ولا أزيدكم تعريفاً
بمناقبه وكان مقبياً عند جارهم أبي الحسن البغدادي وتواعدا على الاقتران

وكان هو مشتغلاً بحفر العين بالمغافر . فعلم اسطفانوس بذلك وخاف اذا نجح سعيد بحفر العين ان يعظم في عيني الامير ويأخذ دميانه كرهاً فكاد له كيداً لا يرتكبه أعظم الاشرار . . أوصى بعض رجاله ان يضع قصرية الحير في المكان الذي يعلمه الامير حتى حدث ما حدث من اجفال جواده ووقوعه وظن يومئذ مولاي ان ذلك من سعيد فامر بضربه وسجنه ثم أطلق سراحه لاجل بناء الجامع . وهل يتذكر الامير اني ذكرت له اسم سعيد وانه اقدر من يبني الجامع كما يريد ؟ »

فهز ابن طولون رأسه ايجاباً

فماد زكريا الى الكلام قائلاً « وبعد أن أوقعوا سعيداً في الفخ أرادوا اكراه الفتاة على الزواج باسطفانوس ولم يطعني ضميري على ذلك وأنا عالم بالحقيقة ففرت بها نخبأتها في حلوان وذهبت فسرقت هذه الاسطوانة لاطالب بحق الفتاة . ولما رجعت الى حلوان رأيت الفتاة قد أخذها البجة سبية فرأيت أن أوسط أبانا البطريرك . في استنجد ملك النوبة على البجة فسرت اليه في دير أبي مقار فحملني هذا الكتاب وفي ذيله وصيته بي ليساعدني . فحملتها ورافقني جاسوس أرسله هذا المعلم في أثري كما قال ولما وصلت الى الاهرام استنجد رجالاً للقبض علي فلما تحققت وقوعي في قبضتهم أخفيت الاسطوانة والكتاب في مدخل الاهرام . وقبضوا علي وسجنوني ثم احتلت في الخروج بواسطة مولاي سعيد المهندس لاستجلاب الكيس فعدت بالصدفة على مولاتي دميانه ومعها هذا النوبي (وأشار اليه) وهو الذي انقذها من بلاد البجة . وعلم هؤلاء بخروجي فاحتالوا بالقبض على الاسطوانة فلم يفلحوا وأرادوا الشر فساد عليهم . وأنا لا غرض لي في كل ما تقدم الا القيام بالمهمة التي عهدت الي فقد تعهدت ان أخدم هذه الفتاة واراعي مصلحتها وقد بذلت جهدي في ذلك والامر لمولانا »

قال ذلك وتراجع ووقف والجميع سكوت كأن على رءوسهم الطير

ينتظرون ما يبدو من الحكم

فاذا بان طولون يقول « ان حديثك يا أسمر مع طوله لا يعمل لقد

كشفت عن خفايا كثيرة » والتفت الى مرقس واسطفانوس وقال « هل تدافعان عن نفسيكما ؟ »

وكان مرقس مطرقا يكاد يذوب خجلا وقد ارتج عليه اما اسطفانوس فعظم عليه السكوت فقال « ان التهمة التي وجهها الي هذا النوبي لا دليل على صحتها . وكيف يتأتى لي ان أدس قصرة الجير ؟ »

فتقدم زكريا وقال « انا لا أقول اني شاهدتك تفعل ذلك ولكنني استدل من قرائن كثيرة انك انت الفاعل .. »

فقطع ابن طولون كلامه قائلا « أنا أيضاً أؤيد هذا القول بدليل تذكره ... تذكرت الآن بعض الناس من أبناء طائفتك ولعالمهم من اهلك كانوا يتبحرون عمل هذا المهندس لدي ويغضونه الي بكل وسيلة وأنا اسمع أقوالهم باخلاص فلما أ كبا جوادي في قصرية الجير جعلوا ان سعيداً فعل ذلك عمداً ليقناني فصدقهم وأسأت معاملة هذا الصادق (وأشار الى سعيد) وهو أولى بالمكافأة واني أشكر زكريا لانه كان وسيلة لاخر اجه من السجن وبارشادي الى مقدرته في فن الهندسة .. بارك الله فيك ولله درك من خادم أمين نصوح .. »

وكان البطريك مصغياً فلما سمع قول ابن طولون هز رأسه متعجباً وهو يمشط لحيته بأنامله وقال « سبحان الله .. ان الضرر لا يأتينا الا منا .. يسيء بعضنا بمرض ويفسد بعضنا أعمال بعض .. »

فصاح اسطفانوس « ان هذا الشاب (وأشار الى سعيد) لطمني ورماني في صحن الكنيسة ليلة الاحتفال بعيد الشهيد فاعضيت عنه ولم أرد اذيته فكيف أسعى ضده ؟ »

فقال زكريا « أغضيت عن عجز ولو استطعت قتله ما تأخرت ولكنك جبان خسيس »

فصرخ اسطفانوس « تهينني في حضرة الامير وانت خصمي القديم ؟ »

فأشار ابن طولون فسكتا فقال هو « لا حاجة الى المدافعة فان ادعاءك

ان سعيداً ضربك مع ما ظهر من خلاك يؤكد لنا انك تعمدت اذاه بوضع
قصرية الحير «

الفصل السابع والستون

على الباغي تدور الدوائر

وكان مرقس يسمع ما يقولون وينتظر فرصة يتخلص بها الى الكلام
ليغطي خجله فلما رأى التهمة ثبتت على اسطفانوس وجه كلامه اليه وقال
« اسكت يا اسطفانوس بالحقيقة انك لثيم الطبع فقد خدعتني كما خدعت
سواي فانا أشهد انك تعمدت لاذى لجارنا وولدنا سعيد — اردت بذلك
ان تتخلص منه لتبقى دميانة لك .. هذا هو الصحيح »

فلما سمع اسطفانوس هذه الشهادة ضده من زميله وصديقه وشريكه
بكل سيئاته حمي غضبه وقال له « اترجم ذلك وأنت الذي اغريتني عليه وكم
حبيت الى الزواج بابنتك وأنا أقول لك انها لا تحبني فايبت الا ان ازوجها.
لا لسبب غير طمعك بما لها »

فقال مرقس « هذا غير صحيح .. » وضحك ضحكة استخفاف وقال
« طمعاً بما لها ... أليس ما لها ومالي سواء »

قال « أو تضحك أيضاً ؟ وتقول ان مالك وما لها سواء ؟ ألم تخبرني
بهذه الوصية وتشترط علي اذا تزوجت الفتاة نكون شركاء بالورثة وهي لا
تعلم بها ؟ أنت اغريتني وغششتني ... وأطمعني بابنتك وما كان أغناني عنها
فانت وحدك سبب هذا الشقاء ... لتتمتع بالمذات والشهوات » قال ذلك
وقد حج صوته وخرج من طور العقل لشدة الغضب

فانهمره ابن طولون قائلاً « يكنى قد عرفنا كما جميعاً . وعرفنا فضل
مهندسنا الحكيم وسنرفع منزلته ونعوض عليه ما لحقه من الاذى بسبب تلك
الوشاية وسنرف اليه عروسه على نفقتنا باحتفال ينسيهما ما قاسياه ويتولى
عقد الاكليل غبطة البطربرك الجليل » قال ذلك ونظر الى دميانة وكات

جالسة على مقعد بالقرب من زكريا تسمع ما يدور من الاحاديث ولا تفهم الا تنفأ قليلا لجهلها اللغة العربية فكان زكريا يترجم لها باختصار . على أن اشتغال قلبها بسعيد وتتبعها حركاته وسكناته كأنها يشغلها عن سماع كل شيء . وقد مضت عليها مدة وهي لم تره واتفق أنها رآته للمرة الاولى في تلك الجلسة فاضطرت ان تغالب عواطفها وتصبر نفسها الى آخر الجلسة . وقد همها من الجهة الاخرى الاطلاع على ما كان محذباها من الاسرار ولا سيما مسألة الاسطوانة وما فيها فلما اطلعت على فحواه طار قلبها من الفرح وازدادت فرحا لما سمعت ماقاله ابن طولون لخطيبها وكيف انه سيرفع قدره وينفق على العرس من ماله . فان ذلك فوق ما كانت تتمناه

على ان سقوط والدها تحت غضب ابن طولون نغص عيشها وكدرها . وزادها حزناً وأسفاً ما شاهدته في ابيها من الانكسار والتذلل بعد ظهور الحق عليه . ونسيت ما قاسته من استبداده وعنفه وما أرادته من ضياع حقها فلما قال ابن طولون ماقاله ووجه خطابه اليها بغتت وهي تحدث نفسها بتلك الامور والتفتت الى والدها فرآته ينظر اليها بعين الحزن الدليل فهضت وتقدمت خطوتين حتى وقفت ووجهت كلامها الى الامير وتكلمت بالقبطية قائلة:

« اني لا استطيع التعبير عن أفكاري بالعربية فأقولها بالقبطية وأتقدم الى أيدينا البطيريك ان ينقلها اليكم بالعربية . قد غمرتنا أيها الامير بفضلك وأنا شاهدت العصي تتساقط على سعيد (وأشارت اليه) شاهدتها بعيني ولم يحظر لى أن أضع الحق عليك وقد علمت من ذلك اليوم انها دسيسة . . انك أيها الامير أتيت نعمة لبلادنا كما قال أبونا البطيريك وأحمد الله لانه أظهر الحق على يد العم زكريا فان لهذا العم الطيب القلب فضلا كبيرا في كشف هذه الاسرار وقد فعل ذلك لا لمطمع غير القيام بوعده ونصرة الحق . . »

ثم بلغت ريقها وظهرت دمعان في عينيها وأشارت بيدها نحو والدها وقالت « نعم ان والدي قد أساء التصرف معي ولا أدري أكان ذلك من

تلقاء نفسه أو باغراء من سواه وعلى كل حال فاني أتقدم الى مولاي الامير
 أن يعفو عنه فاني لا أكون سعيدة ما لم يكن والذي ايضاً سعيداً »
 فترجم البطيريك كلامها باختصار . أما والدها فلما سمع قولها غلب
 عليه البكاء لفرط ندمه وقال لها « لقد جمعت ناراً على رأسي . . اني قد
 أسأت اليك من كل وجه ولا شك ان عنصرك أطيّب من عنصري فقد
 كنت أريد أن اكون سعيداً ولو شقيت أنت أما أنت فتقولين انك لا
 تسعدين ان لم يكن أبوك سعيداً . فاصفحي عن زلاتي وأستشهد الامير
 وسائر الحاضرين اني سأرجع عن كل ما يسوءك من طرق المعيشة في
 بيتي وأكون طوع ارادتك لانك أقرب مني الى الرشاد وأدنى الى
 الصواب »

فلما رأى اسطفانوس ما جرى صاح « وأنا يا دميانة وانا ؟ »
 قالت « اني أترك أمرك الى سعيد فانه صاحب الشأن . معك »
 فتقدم سعيد وقال اذا جاز لي يا مولاي الامير ان أتكلّم فاني اتقدم
 اليه ان يصفح عن اسطفانوس فانه فعل ما فعله مندفعاً بضعف الانسان ولا
 يجديني أن اراه يذوق العذاب لا سيما وقد ظهر انه ندم »
 فقال اسطفانوس « نعم ندمت . ومن يرى هذه الاخلاق العالية
 وهذه الصدور الرحبة ولا يندم . . اني أحب أن أكون من أحقر
 أصدقائك »

فقال « دعنا من الصداقة فقد صفحت عنك والسلام »
 فأشار ابن طولون اشارة مسكت لها الجميع واصغوا لما يقول فقال « يسرني
 انكم تصالحتم وسأؤيد هذا الصلح باحتفال العرس الذي سأقيمه بعد قليل
 بحضور الاب البطيريك »

الفصل الثامن والستون

بالرفاء والبنين

وفهم الحضور انه يريد الانصراف فهضوا واذا بصوت خرج من طرف القاعة فالتفت الجميع فرأوا سمان النوبي وكان واقفاً يسمع ما يدور وكان لما سمع ما قاله زكريا عن اصله وانه كان في جملة هدية ملك النوبة للمأمون علم انه اخوه الضائع واحب ان يتصدى للكلام فلم يسعه المقام فظل صابراً حتى فرغ القوم من المحاكمة فتقدم وقال « يأذن لي الامير بكلمة : اني رسول ملك النوبة الى هذا البطريك لا كلفه ما كلفه به سواي من قبل اما بعد ان شاهدت من عدلك وعظيم خلقك فاني ارى غير رأيه وانا عائد الى ملكي اثنيه عن عزمه واعد العلائق بينه وبين المسلمين ان شاء الله »

فقال ابن طولون بغير اكترات « لك ذلك » وتحول وخرج من باب خاص في تلك القاعة وبقي الحضور يتصاحفون ويتصالحون والبطريك يباركهم ويخفف عنهم فقبات دميانة يد والدها فقبلها هو وبكى ووعدها ان يخرج ما في منزله من السراري والجواري وان يعيش لله ولها ويكون طوع ارادتها . وتقدم اسطفانوس الى سعيد يستغفره ويصالحه فقال له : « ليس في نفسي شيء عليك وقد صفحت عما فعلته لكنني لا اميل الى مصادقتك لان من كان لا يغضب لنفسه ولا يحفظ كرامتها لا يابق بالصدقة » فلما سمع اسطفانوس قوله كاد يذوب من الخجل وتحول وخرج وهو يبكي فاشفق سعيد عليه فناده وقال له : « اذا شئت ان نتصادق فاصغ لما يقوله والدك فانه من اطيب الناس قلباً واحسنهم خلقاً فاذا عملت برأيه كنت من اصدقائنا »

واما سمان فلم يصدق انه اطلق بعد خروج ابن طولون حتى اكب على زكريا وجعل يقبله ويقول له : « اخي ابراهيم ! ابراهيم ! »

فبغت زكريا والتفت الى سحمان وتفرس فيه وقال : « اخي سحمان . . .
 اخي حقيقة . . » وتعانقا

واجمل منظر بين اولئك المجتمعين اجتمع سعيد بدميانة فقد تخاطبا
 وتشاكيا طويلا بلسان لا يفهمه سواهما اعني لسان العيون فضلا عن الكلام
 وطال وقوفهما وفرغ الآخرون من احاديثهم وهما غارقان في المشاكة
 وقص الاحاديث . فتقدم زكريا اخيراً وقال : « هل تريد مولاتي ان تخرج
 والى اين ؟ »

فانتبهت لنفسها وسألت سعيداً فقال : « هل تأتون إلى قصري هنا ؟ »
 فخرجت دميانه من هذه الدعوة وادرك زكريا خيبتها فقال : « نذهب
 الآن إلى دير المعلقة لان سيدي يحب الاديار واظن ابانا البطريرك نازلا
 هناك ؟ » فأشار البطريرك أن نعم فقال : « فنحن ذاهبون إلى هناك للتبرك
 به ريثما يأمر الامير بالاكليل فنجتمع ونقيم في قصر المهندس القرغاني »
 فصاح ابوها : « بل تقيم في قريتها طاء النمل تأمر وتنهى »

ففرحت بتصرح ابيها على هذه الصورة ومشت هي وزكريا والبطريرك
 الى دير المعلقة ومعهم سحمان وذهب سعيد الى قصره ومضى اسطفانوس
 كاسف البال الى ابيه يستغفره ويرجو عفوهُ . وبقي مرقس فقال لابنته :
 « الا تأذنين ان أرافقك الى الدير ؟ »

فضحكت وقالت : « ان لهذا الدير فضلاً عليّ فقد بدأت متاعبي فيه
 ولكن قد مضى ما مضى فتفضل انك والدي وسيدي » فمشى معهم الى هناك
 واحتفلت رئيسة الدير بقدمهم

وبعد أيام امر ابن طولون باعداد معدات العرس لزفاف دميانه الى سعيد
 فبعث سعيد إلى مريه أبي الحسن البغدادي فأتى وقد فرح بما جرى وبعث
 دميانه إلى الاب منقريوس قسيس قريتها ليفرح معها فأتى . فزينوا القطائع
 كلها بالانوار والرياحين وكان احتفالا مثل احتفالات الملوك وظل اهل
 القسطنطينية يتحدثون به اعواما . وسكنت دميانه مع سعيد في قصره اياما ثم
 انتقلا الى طاء النمل وسكنا في قصر أبيها أو هو قصر مارية القبطية وكان قد

أخلاه ابوها من المراري والجواري وجعله لائقاً بدينك العروسين
الطاهرين

وقضى مرقس بقية عمره يبذل مافي وسعه لرضاء ابنته وزوجها. وكان
أبو الحسن من أعظمهم سروراً بذلك وعاش زكريا بقية عمره معززاً مكرماً
وأما اخوه سمعان فانه سافر الى بلاد النوبة يثني ملكها عن مناوأة المسلمين
فأفلح وعاد واقام في طاء النمل . وأما الاب منقريوس قسيس تلك القرية..
فقد فرح بظهور الحق لانه كان في جملة الذين شهدوا وصية مارية (١)

« انتهت الرواية »

(١) اختلف المؤرخون في مصير ابن كاتب المادرائي فقال بعضهم ان ابن طولون
غدر به وهو يبني الجامع وقال آخرون انه قضى بقية حياته بهناء وراحة وليس هنا
محل تحقيق ذلك

